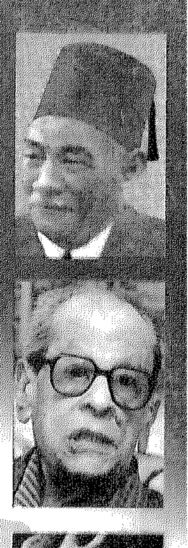
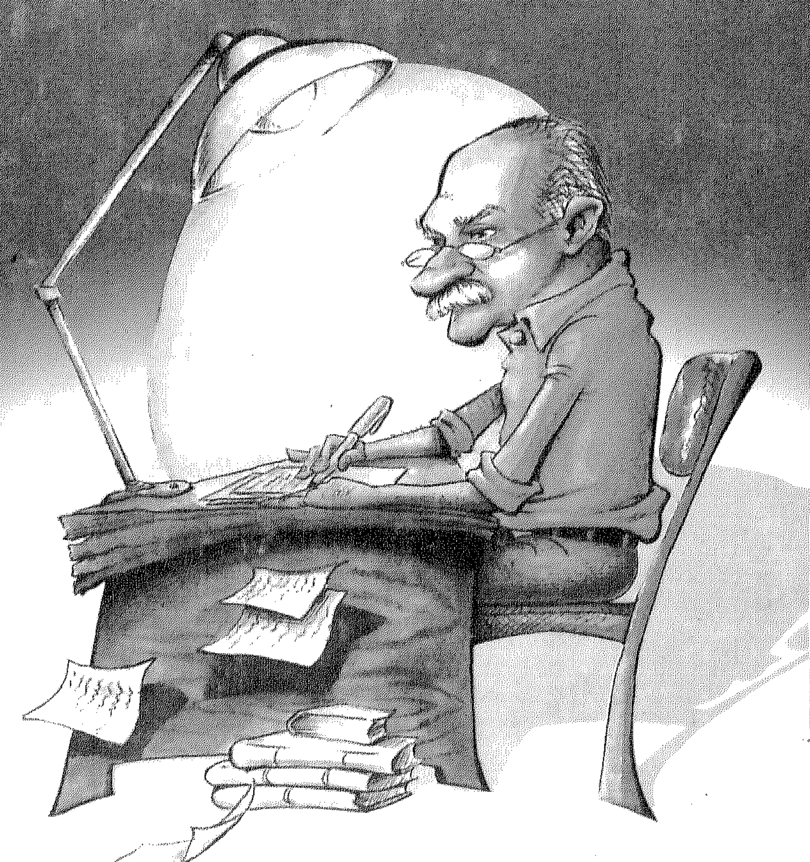
د. عبد العظيم رمضان

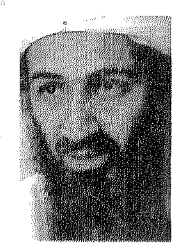
خواطر مؤرخ

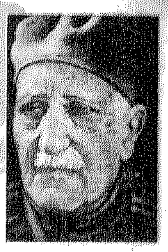
الجزء الثالث













الهيئة المصرية
العامة للكتاب







خواطر مؤرخ

(الجزء الثالث)

بقلم

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى : صبرى عبد الواحد
التنفيـذ الفنى : عصام محمد المرسى

(١)

حديث عن «الحسد»!

فى الحياة أشياء غريبة يصعب فهمها أو تفسيرها تفسيرا عقلانيا، ولكن شعبنا بتاريخه الطويل، وخبرته وملاحظته وحكمته عبَّر عنها فى الأمثلة الدارجة، أو فى الحِكَم السيَّارة!

ومن هذه الأشياء ما يتصل بالحسد والدعاء! وبالنسبة للحسد فمعناه المعروف، تمنى زوال النعمة! ولكن شعبنا لاحظ أن العكس يحدث أحيانا، فقد يكون الحسد صادرا من صاحب المصلحة ذاتها، سواء كانت مالا أو عيالا!

ومن هنا خرج بالمثل المعروف: ما يحسد المال إلا أصحابه! وبطبيعة الحال فلا يتصور أحد أن يتمنى إنسان زوال ماله، ولكن ملاحظات شعبنا عبر تاريخه الطويل. أن هذا يحدث أحيانا!!

ومن هنا فلا تجد مصريا يتحدث عما بلغه رصيده فى البنك من أرقام، إلا وهو يرفق ذلك بعبارة دينية تحصن هذا المال من حسده شخصيا! مثل: «ما شاء الله» أو «اللهم صل على النبى» و«بحمد الله» إلى آخره.

وبطبيعة الحال فهذا الكلام لا ينطبق على النصابين الذين يقترضون الملايين من البنوك ثم يهربون ولا يسددون! فهؤلاء بعيدون عن هذه النزعة الدينية، ولا يعبدون غير المال! فلا نجد أحدا منهم يقول على سبيل المثال «لقد سرقت بحمد الله من البنك الأهلى مائة مليون جنيه» ! أو يقول: «اللهم صل على النبى لقد وصل حسابى فى بنك القاهرة مما سرقته منه ١٥٠ مليونا من الجنيهات»!

كذلك لا نجد أمًّا تتحدث عن ذكاء ابنتها الصغيرة أو جمالها دون أن تبدأ بذكر النبى عليه الصلاة والسلام» خوفا على ابنتها من حسدها شخصيا! وإذا نسيت ذكر النبى عليه السلام فإن من حولها من الحضور يذكرونها، أو يصلون على النبى بدلا منها!

وهذا الكلام لا نجده فى الشعوب الأخرى الأوروبية التى تفتقد تاريخنا الطويل، بل إن حياتها المادية البحتة أسقطت من كلامها عبارة: «إن شاء الله»! فهى لا تؤمن إلا بمشيئة الإنسان وحده! وهى - بالتالى - لا تؤمن ببيت شعر الشاعر الصوفى:

«إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده» !

وتنسى أن اجتهاد الإنسان مهما بلغ لا يمنع النتيجة التى قدرها المولى تعالى وهى الفشل!

فجميع الحوادث التي وقعت فى العالم الغربى فى الطيران وغيره، لم تكن تفتقد اجتهاد الإنسان، فقد اجتهد الجميع، والتزموا بالدقة

العلمية، ولكن بعضهم أخطأ خطأ بسيطا دون أن يشعر، فوقعت بسببه الكارثة!

وقد لاحظ شعبنا ذلك فخرج بالمثل الذى يقول: «الحذر لا يمنع القدر!

ومن هنا فمن المستحيل تفسير الأشياء أو الأحداث مع استبعاد البعد الروحى أو الدينى، أو المشيئة الإلهية!!

(٢)
أبواب السماء المفتوحة!!

فى حديثى عن الحسد، كنت قد تعرضت لخبرة شعبنا الطويلة عبر ألوف السنين، التى أثبتت له أن الحسد بمعنى «تمنى زوال النعمة» ليس هو على الدوم ذلك المعنى! فقد يكون الحسد صادرا من نفس صاحب النعمة! ومن هنا جاءت العبارة المأثورة «ما يحسد المال إلا أصحابه»! وهو ما يعنى أن الحسد شىء آخر غير محدد أو هو شر قد يكون صادرا من صاحب المصلحة أو من عدوه!

والمهم أن حكمة شعبنا شاءت أن يحصن الإنسان النعمة إذا ذكرها بذكر النبى عليه الصلاة والسلام، أو بأية عبارة دينية تفيد إمكانية حدوث أضرر من صاحب المصلحة نفسه!

وفى الواقع أن المتأمل فى الحياة سوف يلاحظ أشياء لا يمكن تفسيرها تفسيرا ماديا بحتا، ولا يصلح فى تفسيرها غير التفسير الروحى!

عندما كنت طفلا وكنت «أتشاقى» وأذهب فى الشقاوة إلى حد يتجاوز طاقة والدتى على الصبر، كان الغضب يذهب بها أحيانا إلى

الدعـاء علىّ بأى نوع من أنواع البـلاء أو الموت! فكانت صـديقـاتهـا يصرخن فى وجهها محذرات من أن أبواب السماء قد تكون مفتوحة وقت الدعاء! وكانت والدتى ترتدع على الفور خشية أن تكون أبواب السماء مفتوحة بالفعل وقت الدعاء!

ولم أفهم وقتذاك معنى هذا الكلام، ولكن والدتى كانت تفهمه! وعندما تقدم بى السن، وزادت خبرتى بالحياة، أدركت أن كثيرا من الدعوات تستجاب فى بعض الأحيان، وبشكل يدعو إلى الفزع، وبالتالى إلى الحذر!

وعلى سبيل دعوة المظلوم! فكثيرا ما تستجاب! وبطبيعة الحال فيتعذر تحديد الضرر الذى أنزلته السماء بالظالم! فقد يكون فى شكل فقد أموال أو عيال أو نفوذ أو صحة أو حياة!

وقد حكت لى زوجة أن زوجها كان يظلمها كثيرا ويؤذيها، فكانت تدعو عليه! وقد استجابت السماء لدعواتها فأصيب بالسرطان، وكانت هى التى تقوم بخدمته كما طلبت فى دعائها!

وقد أصيب حمزة البسيونى فى حادث مروع اخترقت جسده فيه أسياخ الحديد، وكذلك لم يسلم من الضرر كل من أنزلوا العذاب بالبشر!

وليس معنى هذا الكلام أن يعتمد الفلسطينيون فى نضالهم ضد شارون على الدعاء! وإلا انضممت إليهم! ولكن أذكر أن المصريين قرأوا

على الجنرال بونابرت «عـدية ياسـين» فلم يمنع دعـاؤهم عليـه من انتصاره فى الحرب واحتلاله مصرا! ولكن ما لقيه من عناء وعذاب فى منفاه فى نهاية حياته، ربما كان بسبب «دعوة وليه فى ساعة مغربية»! - على رأى المثل» - فى مصر أو فى غيرها من البلاد التى فتحها!

إننى أعـرف خطورة هذا الكلام عندمـا يصـدر من كـاتب مـثلى، ولكنى أتحدث عن تطبيقات لاحظها شعبنا عبر مسيرته التاريخية، فسجلها فى أمثال! كما أعرف أن الإسلام لم ينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها بدعوة المسلمين على الروم والفرس! ولم يمنع دعاء الأفغانيين على بوش تدمير الطائرات الأمريكية فى أفغانستان! ولكن من المحقق أن أبواب السماء مفتوحة دائما وأبدا لكل مظلوم! ومن هنا فعلى كل ظالم أن يحذر!!!

(٣)

الورثـة وفلسفـة المـوت

ربما كان الموت هو صاحب أكبر سمعة سيئة فى معتقدات البشر! والدعاء على فرد بالموت هو أقصى ما يستطيع إنسان أن يعبر به عن غضبه وحنقه وحقده! ولكن الموت - من جانب آخر - يعد بالنسبة لبعض البشر هو أكبر نعمة تحل بهم، وهو نقلة هائلة من الفقر إلى الغنى، ومن الشقاء إلى السعادة.

وهذا هو ما يحصل بالنسبة لورثة الميت الغنى إنهم ينتظرون موته انتظار الغربان للجثث! فإذا مات ذرفوا دموع التماسيح، وتظاهروا بالأسى والحزن، وبأن خبر الموت وقع عليهم وقع الصاعقة، مع أنه وقع عليهم وقع البلسم الشافى!

إن الكثيرين من أبناء الشعب يتصورون أن علاقة الميت بورثته علاقة وثيقة يسودها الود والحب، مع أنها قد تختلف إلى النقيض! فقد تكون علاقة حسد وكراهية وحقد! ومع ذلك فإنهم يكونون أول المستفيدين من موته!

فالنفس البشرية هى بئر عميق تتلاطم فيه المساعى الطيبة والشريرة والحب والحقد، ولا يستطيع أى فرد اكتشاف ما فيها إلا إذا

استحث ظروف قاهرة للإفصاح، وعندئذ قد ينزعج المرء عندما يرى حجم الحسد والحقد الذى يكنه له وريثه! ورغبته فى انقضاء أجله إن آجلا أو عاجلا!

وهذه المشاعر لا صلة لها بدرجة القرابة، فقد يكون الابن أشد حقدا على أبيه من الغريب، فمنذ بضع سنوات نشرت الصحف عن ابن هو عقيد فى البوليس ـ أو الجيش ـ لست أذكر ، ظل يبحث عن والده الذى كان رئيس مجلس إدارة شركة ما، حتى عثر عليه، فأطلق عليه النار.

لقد تغلبت حقد هذا الابن على أبيه على رغبة فى وراثة أملاكه! فخسر الاثنين! بل خسر حياته شخصيا!

كان والدى رحمه الله ينبهنى قائلا: «صدور الرجال صناديق مغلقة لا يستطيع فرد أن يقتحمها إلا بإرادة صاحبها، أو فى ظروف مأساوية مفاجئة!

وليس لثروة الميت دخل كبير فى تمنى الورثة موته!

عندما كنت طفلا كنت ووالدتى نزور قريبة لها كان زوجها مشلولاً، فكانت تظهر أمامى تبرمها بمرضه وتدعو عليه بالموت لكى تستريح!

وفى يوم جاء خبر وفاته، فأسرعت ببراءة الطفولة إلى بيتها لأهنئها بتحقيق أمنيتها وفوجئت عندما وصلت ووالدتى إلى البيت

بتلك القرية تصرخ وتصيح بصياح ذلك العصر وتندب قائلة يا سبعى! يا جملى! أعمل إيه من غيرك؟

وعندئذ، وبسذاجة الطفولة سألت والدتى بصوت عال أمام السيدات اللاتى امتلأ بهن مكان العزاء: لماذا تصرخ؟ أما كانت تدعو عليه بالموت دائما؟

وصعقت والدتى، وقرصتنى قرصة من نار! وحاولت الشوشرة على أسئلتى التى كنت أكررها وأنا فى دهشة مما أرى! ولكن السيدات الحاضرات ابتسمن ودعوها إلى تركى إلى أوهامى

(٤)

الإنسان وعلم الحساب الإلهى!

مأساة الإنسان الوحيدة، هى أنه هو المسئول الوحيد فى الكون كله عن أعماله! وغيره غير مسئول! فالحيوان غير مسئول، والجماد غير مسئول، والنبات غير مسئول. وبالتالى فالإنسان هو المخلوق الوحيد فى الكون الذى يحاسب عن أعماله، وغيره لا يحاسب!

والسبب هو أنه يتميز عن بقية المخلوقات بالعقل، وبالتالى يتميز بالقدرة على الفعل وعدم الفعل ولا خيار بين الإقدام والإحجام! والعقل هو الذى ورد فى القرآن الكريم باسم «الأمانة» فالله يقول فى كتابه الكريم: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب: ٧٢)

والمعنى أنه بقبول الإنسان الأمانة - أو العقل - ظلم نفسه، وظلم غيره، لأن عقله - فى نهاية الأمر - قاصر عن التمييز بين ما ينفع وما يضر فى كثير من الأحيان!

من هنا اقتضت حكمة المولى تعالى الغفران والرحمة! الغفران لأن الخطأ وارد فى الطبيعة البشرية! ففى الحديث النبوى الشريف! كلنا

خطاءون، وخير الخطائين التوابون» وأما الرحمة فلأن الضعف البشرى وارد فى الطبيعة البشرية التى يعرفها الله تعالى لأنه هو الذى خلقها على هذا النحو ولأن هذا الضعف يتراوح حسب الضغوط التى يتعرض لها الإنسان! فقد تتطلب الضغوط الرحمة، وقد تتطلب البطش! والله وحده هو الذى عنده العلم!

من هنا أيضا نستطيع أن نفهم هذه المناجاة: «إن نجونا فبرحمتك، وإن هلكنا فبعدلك»!!

ولكن المسألة تبقى فى نهاية الأمر مقترنة بمسئولية الإنسان عن عمله! وهى المسئولية المرتبطة بأنه المخلوق الوحيد فى الكون الذى يتميز بنعمة العقل!

كذلك قررت الشريعة إعفاء مختل العقل من المسئولية عن عمله وجارتها الشريعة المدنية فى ذلك!

وفى الوقت نفسه فإن الشريعة الوضعية (القوانين المدنية) اهتمت مؤخرا بدراسة الضغوط التى تعرض لها العقل البشرى ودفعت بصاحبه إلى ارتكاب الخطأ أو الجريمة، لتحديد حجم العقوبة بين التخفيف والتشديد!

ويبقى فى النهاية أن مأساة الإنسان الحقيقية هى أنه مسئول عن عمله، بسبب تميزه بنعمة العقل، ففى كل الأحوال هو مسئول عما يفعل، وفى كل الأحوال هو محاسب عما يفعل!

ومن هنا أهمية التربية الدينية فى إنقاذ الإنسان من المخاطر!

وأقصد بالتربية الدينية هنا شيئًا واحدًا، هو أن يربى الوالدان طفلهما على أنه ليس وحيدا فى الكون، وإنما هناك قوة عليا تراقبه وتتابع حركاته وسكناته، ولا يستطيع الاختباء منها! وأن هذه القوة العليا هى أقرب إليه مما يتصور. «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»! «ولا تخفى عنه خافية» ، وأنه تعالى يحصى كل شىء.

هذا هو الدين الذى شرعه الله تعالى، وهو مراقبة الله تعالى! وقد عبر عنه الشيخ محمد عبده - بقوله: «إن مراقبتى لله تعالى تمنعنى من كذا أو تحضنى على كذا»!

وتلك هى الحكومة الإسلامية التى شرعها الله تعالى، والتى هى مزروعة فى قلب كل البشر وليست هى الحكومة التى بشر بها أسامة بن لادن أو جماعات الإسلام السياسى! فالدين علاقة خاصة بين الإنسان وربه، وبقدر ما تتوثق هذه العلاقة بقدر ما ينعكس ذلك على الإنسان وعلى مجتمعه!

(٥)
حديث مع الشيخ الشعراوى

فى حوار بينى وبين الداعية الكبير المرحوم محمد متولى الشعراوى حول تفسير القرآن الكريم، أثرت نقطة أن القرآن نزل منجما، وأن كل آية نزلت كان لها أسباب النزول، ولكنه عندما جمع بعد وفاة الرسول ﷺ لم يراع فيه ترتيب آياته حسب أسباب نزولها، ومن هنا تطلب الأمر الرجوع إلى أسباب النزول عند تفسير القرآن.

وفى الوقت نفسه أساء كثير ممن لهم أغراض سياسية تفسير بعض الآيات - مثل جماعات الإسلام السياسى، التى ساءت تفسير الآية الكريمة. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». فقد أطلقوها على المسلمين، مع أنها نزلت فى اليهود! ولم يكن القرآن هو المقصود فى آية «ومن لم يحكم بما أنزل الله»، وإنما كانت التوراة! ففى الآية الكريمة التى سبقتها «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون» إلى آخر الآية الكريمة - أى أنبياء بنى إسرائيل.

ولكن الجماعات الإسلامية وجماعات التكفير اتخذت من هذه الآية الكريمة وسيلة لتكفير المسلمين، وقتلهم! وهو منتهى التضليل

وأساءت استخدام كتاب الله الكريم للوصول إلى أغراض سياسية والاستيلاء على الحكم.

وسألت الداعية الكبير عما إذا كان فى الإمكان إعادة ترتيب آيات الله وفقا لأسباب النزول؟ وقد رد بأنه فيما يتصل به شخصيا، فإنه قام بهذا الترتيب، ولديه نسخة من القرآن بهذا الترتيب، ولكنه لا يرى تعميم ذلك، بل يعارضه، لأسباب عدة أولها أن المسلمين حفظوا القرآن الكريم بترتيب آياته الحالية، فإذا أعيد الترتيب يخشى أن يؤدى ذلك إلى خلل لا تحمد عقباه، وتضيع وحدة المسلمين حول القرآن فيحفظه البعض بترتيبه الحالى، ويحفظه البعض الآخر بالترتيب حسب أسباب النزول.

ثانيا أن القرآن فى قلوب ملايين المسلمين منذ ظهور مصحف عثمان على هذا الترتيب، فلا يعقل أن يتغير ذلك بعد أربعة عشر قرنا دون أثار سلبية خطيرة!

أما السبب الثالث، فهو أنه إذا كان القرآن الكريم قد جمع على هذا النحو، فإنها تكون إرادة الله الكريم الذى شاء ذلك لأسباب يعلمها هو! ولو شاء الله غير ذلك لفعل!

وقد اقتنعت خاصة بالسبب الأخير، فقد حفظت القرآن عن ظهر قلب وعمرى أحد عشر عاما ونصف وحصلت على جائزتين الأولى من جمعية المحافظة على القرآن بالجيزة، والأخرى من جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالقاهرة. ولا أتصور أن أعيد حفظه مرة أخرى

مرتبًا حسب أسباب النزول! فقد استغرق حفظه خمس سنوات كاملة، ولا يعقل تضييع خمس سنوات أخرى فى الحفظ، فى حين أنه محفوظ بالفعل فى القلب!

وفى الوقت نفسه، فقد شعرت بأن الترتيب الذى أراده الله جلت قدرته له حكمته البالغة! فالاستشهاد بآيات الله تعالى لا ينقضى على الدوام الرجوع لأسباب النزول، إلا فى المسائل الفقهية أو الخلافية! وغير ذلك فلا يتطلب الأمر هذا الرجوع.

فقراءة القرآن لها أغراض لا حصر لها، فحين أقرأ فاتحة الكتاب فلا يهمنى أن أعرف أسباب نزولها، وإنما أقرؤها لما فيها من عبادة ودعاء، فنصفها عبادة والنصف الآخر دعاء! ولا دخل لأسباب النزول فى ذلك، فأنا أتعبد بها، وأستعين بالله بها.

(٦)

الإنسان بين ملكوت الله وملكوت البشر!

يبدأ التاريخ منذ أن شاءت إرادة الله تعالى أن يمنح الإنسان نعمة العقل، وفى المقابل محنة الاختيار! وبذلك بدأ التاريخ! فالتاريخ هو تاريخ اختيارات البشر بين الخطأ والصواب، والخير والشر، والحرب والسلام والظلم والعدل، والجهل والعلم، والتخلف والتقدم إلى آخره.

فمن خلال الصراع بين هذه المتناقضات يتحرك التاريخ. ولو كانت إرادة الله قد شاءت أن تكون أفعال البشر خيرا مطلقا أو عدلا مطلقا لما كان هناك تاريخ! ولو خلق الله تعالى الناس جميعهم أخيارا لما كان هناك تاريخ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»! فالصراع بين الخير والشر هو «الميكانيزم» الذى يحرك الحياة! رأى آلية الحياة وقد أطلق عليه ماركس اسم «الديالكتيك» أى الصراع بين المتناقضات!

وحتى لا يترك الله تعالى الإنسان لاختيار العقل وحده، الذى قد يهديه وقد يضله، فإنه بعث بأنبياء ورسل وضعوا نظاما للحياة ومنهجا واضحا للسير، إذا اتبعه الإنسان نجا، وإذا تنكب عنه هلك، وبذلك أصبح الحلال بينا والحرام بينا، ولاعذر لأحد فيما يرتكب من خطأ!

ومع ذلك ولأن العقل يعمل وسط ضغوط حياة لا ترحم، وقد يضل المرء عن الطريق المستقيم الذى شرعه الله، فقد خلق الدعاء، وأوله ما ورد فى فاتحة الكتاب «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»!

ونصح البشر بالدعاء إليه تعالى، لانقاذهم من غمرات النسيان والخطأ، ووعد تعالى بالاستجابة فقال «ادعونى أستجب لكم» وقال «ادعوا ربكم تضرعا وخفية» وقال: «ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى «وقال! «ادعوه مخلصين له الدين» وآيات كثيرة.

ولم يستثن الأنبياء باعتبارهم أقرب إلى الله، بل قال إنهم «وكانوا يدعوننا رغبا ورهبا» وقال «يجيب دعوة الداعى إذا دعان!» «إلى آخر هذه الآيات الكريمة.

والمهم هو أنه مع منح الله الإنسان نعمة العقل وحق الاختيار، أصبح فى الكون مخلوقًا بشرًا أى يستطيع أن يخالف أوامر الله،. ويرتكب من الأفعال ما يشاء! بل وحتى ادعاء الألوهية!

وهو مالا يستطيعه أى كائن من كائنات الكون، فلا يستطيعه الحيوان ولا الجماد ولا النبات! فكلها مسلوبة الإرادة تتحرك وفق القوانين بطبيعته التى رسمها الله. أو من الغرائز بالنسبة للحيوان.

فالإنسان هو المخلوق المستقل الوحيد فى الكون، الذى يتحرك ويفعل بإرادته الخاصة ما يشاء! إنه أشبه بآلة صغير بالفعل عندما تجعلك القدرة على فعل أى شيء تريد : يعز من يشاء ويذل من يشاء!

وقد كان فرعون يدعى أنه يحيى الموتى. كذلك كان نيرون يعتقد أنه إله، وكذلك كل ديكتاتور مثل هتلر وموسولينى وصدام حسين!

وعلى المستوى الشعبى كان كل من لا يخشى الله ولا يخافه، إنما ينازعه الإلوهية، لأنه بفعل ما يريد دون أى وازع أو رادع.

والسؤال الآن: لماذا خلق المولى تعالى هؤلاء الآلهة الصغار؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٧)

عندما تزول النعمة!!

أليس من الغريب أن أعظم نعمة وهبها الله تعالى للبشر - وهى الصحة، هى أقلها قيمة وتدبرا!

فملايين البشر الأصحاء يعيشون معظم حياتهم دون أن يشعروا بهذه النعمة! وقد تذكرهم بها أعراض برد أو زكام، أو غير ذلك، ولكنهم لا يدركون على الإطلاق قيمة النعمة التى حباهم الله بها!

فهم على الدوام مهمومون بأمور أخرى أقل قيمة بكثير، ولا يسعدون إلا بعد حصولهم على بغيتهم، وعندئذ ينتقل اهتمامهم إلى أمور أخرى - أقل قيمة كذلك - حتى يحصلوا عليها - ثم ينتقلوا إلى غيرها!

فإذا تحققت كل غاياتهم وأغراضهم، وفقدوا الصحة لأى أسباب تتصل بسوء استخدامها، أفاقوا على حقيقة أن كل ما جمعوه من مال، وما حققوه من مطامح ومطامع، إنما هو فى مجمله – قبض الريح! وأنه لا يساوى شيئا إلى جانب الصحة!

والغريب، ومما يبين استهانة البشر بهذه النعمة - نعمة الصحة - أنهم يعاملونها أسوأ معاملة، ويستهينون بها، ويفسدونها بملذات تافهة،

مثل السجائر والمخدرات والخمر وغير ذلك! ولا يفيقون إلا عندما تظهر العواقب وتتبدل الصحة، وتحل محلها الأمراض!

وفى الوقت نفسه فإن الكثير جدا من البشر يسيئون فهم الغاية من هذه الصحة، على الرغم مما تذكرهم بها الأديان السماوية، بل والوضعية، وهى القدرة على فعل الخير وإفادة البشر أنهم يستخدمونها فى عمل الشر وإيذاء البشر!

فجميع البلطجية فى بلادنا يتمتعون بصحة ممتازة، وقوة خارقة ولكن مع عزم صلب على الشر وفعله! وكثيرن يغترون بقوتهم وقدرتهم على الاغتصاب والإيذاء دون تلقى العقاب.. ويظنون أن صحتهم دائمة ولا يدركون أنهم يدمرون بذلك صحتهم، ويسلبون أنفسهم مبرر بقائها! وإذا بعقاب الله ينزل عليهم من حيث لم يتصوروا أو يتوقعوا فإذا بهم وقد انكشف ضعفهم وهشاشة قوتهم فيحل الذل والعجز محل القدرة والخيلاء فى نفوسهم، ويكونون أول من يحاسبون أنفسهم، ولكن بعد فوات الأوان، ورحيل قطار الغفران وعندئذ يصدقون الحكمة التى استقاها شعبنا من تاريخه الطويل، والتى عبر عنها فى قوله إن الله يمهل ولا يهمل!

منذ بعض الوقت شاهدت طاغية اكتوى الخلق بظلمه وقدرته على الإيذاء، وقد تحول إلى فأر صغير ذليل بعد أن انحسرت عنه صحته! وأصبح عاجزا عن الحركة، وكان يشاهد أبسط الفقراء الأصحاء الذين

يمشون على الطريق، بجسد هائل لم يشعر به واحد منهم نحوه وهو يتمتع بصحته وقوته على الإيذاء والبطش!

وقد تساءلت: ترى و عاد الزمن إلى الوراء، وأصبح لهذا الطاغية أن يسخر صحته فيما أراد الله، أو يلقى المصير الذى آل إليه بالفعل، هل يثوب إلى رشده، ويتخلى عن كبره وخيلائه. ويتقي الله فى نفسه وفى الناس وفى الوطن؟

وقد أجبت على هذا السؤال بأن هذا يمكن أن يحدث بالفعل إذا وهبه الله نعمة الإيمان! ولكن من الواضح أن الله لو شاء ذلك منذ الأزل لما انتهى حال الطاغية إلى هذا المصير!

فعلى المؤمنين أن يحمدوا الله على نعمة الإيمان، فهو الإرادة الوحيدة التى تمكن الإنسان من التمييز بين الشر والخير، وبين الحق والباطل، وإدراك أن ما ينفع الناس ينفع المرء نفسه بدرجة أكبر!

(٨)
عندما يساق المرء إلى مذبحه!

فى عام ٨٠/٨١ عندما كنت أستاذا زائرا فى جامعة لندن، تصادف أن جاء المرحوم الأستاذ نصر عبدالغفور عضو مجلس الشعب للعلاج وعندما علمت من الأطباء أنه على وشك الموت، وكان فى مستشفى كرومويل. أخذت أعده للقاء ربه بدون أن أخبره بالمرض القاتل.

وأذكر أنه كان فيما قلت له فى إحدى المرات. إن كل منا سوف يلقى ربه فى يوم من الأيام، وهذا أمر أكيد، وعليه فعلى المرء أن يستقبل قدره باستسلام تام وتسليم بقضاء الله وقدره!

وأردت أن أضرب مثلا لهذا الاستسلام المطلق، فقلت له: فى عيد الأضحى، هل ترى استسلام الخروف وهو يساق للذبح؟ إنه لا يقاوم بأى شكل من الأشكال ، وإنما يمضى فى طريقه باستسلام كامل حتى تتسلمه سكين الجزار، فتنتهى القضية بالنسبة له، وكأنه لم يحسن ساعة من النهار!

واستطردت أقول: إن كلا سوف يساق فى يوم أراده الله لمذبحه، ومن الأفيد له كثيرا أن يستسلم استسلام الخروف للذبح!

قال رحمه الله - وكأنه أدرك! ولماذا تشبه الأمر باستسلام الخروف؟ لماذا لا تشبهه باستسلام اسماعيل للذبح - عندما قال له أبوه إبراهيم النبى: إنى أرى فى المنام أنى أذبحك. فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين!

أعجبنى المقال الذى ذكره وقلت له هذا أصوب! ولكن النتيجة هى التسليم المطلق، والصبر على البلاء! ولكن هذا يتطلب الاطمئنان!

قال: الاطمئنان لأى شىء؟

قلت: الاطمئنان إلى أن الآخرة - سوف تكون خيرا وأبقى!! فكم من البشر ترى يطمئن إلى أن الآخرة سوف تكون خيرا وأبقى؟ إن جميع البشر تقريبا فى الكون يعملون على أساس الدنيا خيرا وأبقى! وإلا فيم كل هذا الطمع والجشع والظلم والطغيان والتكالب على المادة والسلطة؟ لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم!

وقلت له: هل تعلم كم عدد الملحدين فى الأرض الذين لا يعترفون بوجود إله فى الكون ولسان حالهم: إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين؟ قال مبتسما: كم؟ قلت: لا يقل عن نصف عدد سكان الأرض!! ومع ذلك فبعضهم يعيش فى بحبوحة من العيش لا يتمتع بها أتقى المؤمنين بالله! ولكن الله تعالى يؤخرهم ليوم تذهب فيه الأبصار! هؤلاء هم الذين عليهم أن يقلقوا وهم يساقون إلى مذبحهم، فقد خسروا الحياة الإبدية فى مقابل حياة فانية قصيرة!

قال باسما: ومن منا لا يقلق وهو يساق إلى مذبحه؟ من منا لم يرتكب أخطاء ومعاصى؟ ما هو الأمل؟

قلت: الطمع فى رحمه الله! وذكرته بالمناجاة الشهيرة: «إن نجونا فبرحمتك، وإن هلكنا فبعدلك»! فلنطلب من الله الرحمة، فهى وحدها سبيل النجاة!

ثم تساءلت بعدها فيما بينى وبين نفسى: كم منا يعد نفسه ليوم يساق فيه لمذبحه؟ وعرفت السر فى استسلام الخروف للذبح دون جزع ودون مقاومة. إنه يعرف أنه لن يحاسب، فلم يكن له أى اختيار فيما فعل طوال حياته! لقد أعفاه الله من محنة الاختيار التى ابتلى بها الإنسان، عندما وهبه الله نعمة العقل!

(٩)
الداعية الجديد بين التوكل والتواكل

تعجبت كثيرا وأنا أشاهد حلقة الداعية الجديد عن حجاب المرأة! فقد كانت الموعظة الرشيدة عن «التوكل على الله»!

لم أفهم معنى هذا الكلام! فالحديث النبوي الشريف يقول« اعقلها وتوكل»! ومن هنا كنت أتمنى لو أن الموعظة كانت عن العمل، الذى هو أصل التوكل! فالعمل هو المشكلة الرئيسية فى حياة المسلمين! فهناك مسلمون ولكن بلا عمل إسلامى - أى عمل ينطبق عليه حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»! فلا لأحد يفكر من المسلمين فى «اتقان العمل» ! فى حين أن غير المسلمين من الصينيين واليابانيين والآسيويين والأوروبيين لا يعمل أحدهم عملا بدون أن يتقنه! وإلا فإن نظام العمل فى تلك البلاد سوف يكتشف إهماله، وسوف يستأصله من مكان العمل!

فقضية الدعوة إلى التوكل على الله من قبل الدعوة إلى العمل. وإتقان العمل هى قضية خطيرة! ويقع ضحيتها كثيرون يلقون المسئولية على الله تعالى فى فشل أى عمل!

فسائق الأتوبيس ينتهك حرمة الإشارة الضوئية، ويقتحم مزلقان السكة الحديد، وهو يصيح «توكلت على الله» ! دون أن يرى الخطر الداهم المتمثل فى القطار القادم! فتصور أن عبارة «توكلت على الله» سوف توقف القطار فى الوقت المناسب! وينسى أن الله تعالى قد وضع قواعد ونواميس تضم حياة البشر فإذا خالفوها حقت عليهم كلمة «العذاب»!

وكذلك الحال فى بقية نواحى الحياة! ففى أوروبا يعملون دون «توكل على الله» ولكنهم يوفرون الشروط الأساسية للنجاح، فينجحون! وعندنا يتوكلون من دون عمل يفشلون! والسبب فى ذلك أنهم نسوا أوامر الله تعالى فى هذا الصدد. فالقرآن الكريم يحفل بالآيات الكريمة التى تدعو إلى العمل: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون!» ولا توجد آية فى الكتاب الكريم تدعو إلى التوكل دون عمل مسبق أو مزمع عمله! فالتوكل على الله مقترن بالعمل «فإذا عزمت فتوكل على الله» «فأعرض عنهم وتوكل على الله»!

«ومن هنا حين - يمحور الداعية الجديد موعظته حول التوكل على الله - أى يجعل التوكل محور موعظته - دون أن يمحورها حول العمل وإتقانه، فإنه يدعو إلى التواكل! ثم أنه يثير قضية بدون قضية، فكل من يؤمن بالله سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، يعلم أن الأمر بيد الله خالق الكون ورب العباد،، ولكنه يفصل قضية العبادة عن

قضية العمل. فالعبادة بين المرء وربه، والعمل بين المرء ومجتمعه، نلاحظ! كما يحدث عندنا!

فى أثناء معركة القناة عام ١٩٥١ خرج المرشد العام حسن الهضيبى، يدعو الإخوان المسلمين إلى العبادة وذكر الله. فى حين كان شباب مصر يهاجم الانجليز فى معسكرات القناة ويموتون، وعندها خرج الشيخ خالد محمد خالد نشر فى روزاليوسف بعنوان «أبشر بطول سلامة يا چورج» - وچورج رمز للملك الانجليز!

فلا عبادة بدون عمل، ولا نجاح لعمل بدون توكل على الله، والتوكل على الله بدون عمل تواكل!

(١٠)

القرآن وحديث عن «الأمثال»!

القرآن الكريم فيه نوعان من المخاطبة: أولهما ما يتصل بالحسيات، والثانى ما يتصل بالمعنويات، وبالنسبة للحسيات كان القرآن الكريم يخاطب بها العرب. وأما المعنويات فيخاطب بها البشر كافة.

وهو أمر منطقى، فلكى ينتصر دين الله، يلزم وجود من ينصره، ولكى ينصر العرب دين الله يلزم اقتناعهم بهذا الدين، والحسيات هى إحدى الوسائل المهمة للإقناع، وتنبنى على الثواب والعقاب، ومن الضرورى أن يكون الثواب والعقاب حسيا، ومن هنا الجنة والنار، ووصف الجنة يجب أن يكون حسيا بما يناسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى يعيش فيها العرب، فكل ما ورد فى الكتاب الكريم من وصف الجنة لا يوجد فى البيئة الصحراوية، وفى الوقت نفسه يخاطب البيئة الاجتماعية بل وهو ما يفسر - غلمان مخلدون - ! كما يخاطب أيضا الحالة الفكرية للعرب حسب المرحلة التاريخية التى بعث بها رسول الله ﷺ.

وهذا هو الذى دفعه محمد فريد وجدى تفسيره للقرآن الكريم إلى أن يفسر آية: «وأرسلنا عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل» فى سورة الفيل. بأن المقصود بها مرض الجدرى. وأن الطير الأبابيل يقصد بها الجراثيم أو بميكروبات المرض التى تنتشر فى الهواء.

وهو أمر معقول، فلو خاطب القرآن الكريم العرب بمصطلح الميكروبات والفيروسات والجراثيم. لما فهموا هذه المصطلحات الحديثة، لأنها لم تكن معروفة فى ذلك العصر!

وبطبيعة الحال كان خالق هذا الكون يعرف كل ما يدور فيه إلى يوم القيامة، ولكن الحالة الفكرية للعرب كانت تقتضى أن يكون الخطاب على هذا النحو. فقد ورد فى الحديث النبوى الشريف: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»!

من هنا فليس من الضرورى أن نفهم الجنة على أنها بنفس الأوصاف التى وردت فى سورة الرحمن، فهى أعظم من ذلك بكثير، وليس من الضرورى أن تكون حسية! فقد تكون لها أشكال أخرى لا يدركها عقل البشر!

وكذلك الحال بالنسبة للنار، فليس من الضرورى أن تكون محرقة حسية! فقد تكون شيئا آخر يحدث نفس التأثير الذى أورده الكتاب الكريم فى وصف تعذيب المجرمين الذين بطشوا بالخلق وأجرموا فى حق أنفسهم وفى حق البشر، مثل الطغاة ومجرمى الحرب والذين نكلوا بشعوبهم وغيرهم!

وكذلك الحال بالنسبة للحدود! فما أورده القرآن الكريم من الجلد والرجم وقطع الأطراف، مما كان سائدا فى عقوبات ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن، يلزم تنفيذه وفقا لأوامر المولى، ولكن بما يوافق ظروف عصر التنفيذ، وبالشكل الذى يتفق مع ما تطور إليه الفكر البشرى فى هذا المجال، مثل الأشغال الشاقة المؤبدة، والإعدام شنقا، أو بالكرسى الكهربائى، فكلها وسائل تؤدى إلى تنفيذ حدود الله بأشكال تناسب تطور العصر.

وفى الوقت نفسه فإن العقلية الإجرامية قد أفرزت على مر العصور جرائم لم يتحدث عنها القرآن، مثل تزوير المستندات، فلم تكن هناك مستندات فى ذلك العصر، وغيرها. ويتعذر تطبيق الحدود بالشكل الذى صوره القرآن.

كذلك إثبات تهمة الزنا على الزانى والزانية! كانت شروط الإثبات كانت تتناسب مع ظروف الحالة العمرانية التى كان عليها المجتمع العربى وقت نزول القرآن، حياة الخيام، ولكنا مستحيلة الإثبات فى الحالة العمرانية للمجتمع البشرى فى هذا العصر - حالة العمارات والأبراج السكنية حيث يستحيل تماما المجىء بأربعة شهود لرؤية حالة الزنى بالتفصيل!

الدين - إذن - لم يقف ضد التطور، ولم يتجاهله، ولم يقف ضد الاجتهاد، وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: «ويضرب الله الأمثال للناس» أى لكى يقيسوا عليها فيما يتصل بشئون حياتهم!

(١١)
حديث عن رابطة الدم!

يعتقد الكثيرون أن رابطة الدم هى أقوى الروابط الإنسانية على الإطلاق! وينسون التحذير الخطير الذى حمله إلينا كتاب الله الكريم، عندما روى كيف طوعت نفس قابيل له قتل أخيه هابيل من أجل امرأة؟ فلم ترده رابطة الدم عن ارتكاب هذه الجريمة النكراء، وقتله بالفعل!

كما روى كتاب الله قصة تآمر إخوة يوسف عليه، فألقوه فى البئر، بعد أن كادوا يقتلونه ولم تنفعهم رابطة الدم عن فعلتهم المنكرة!

هذان التحذيران الخطيران يوضحان فى جلاء أن رابطة الدم تتحول إلى رابطة ماء إذا تدخلت المصالح المادية ويحق القول إن المثل الشائع بأن الدم لا يتحول إلى ماء هو مجرد هراء فالدم يتحول إلى ماء فى معظم الأحوال! وصفحات الحوادث فى الجرائد تحفل بأمثلة فى هذا الشأن لا حصر لها.

ومن هنا فلا منجاة لأحد من غدر رابطة الدم إلا بالدين! وإلا الوعظ بالموت، فهو خير واعظ! وإلا باتخاذ الحذر، وعدم الارتكان إلى رابطة الدم، وإيجاد المصلحة المشتركة ما أمكن!

وفيما عدا ذلك فالمرء يصاب من مأمنه!

كنت فى الشهر العقارى منذ سنوات لتسجيل توكيل لمحام فى قضية رأى، وكانت إلى جوارى سيدة تريد أن تعمل توكيلا عاما لابنها فى أملاكها! ووجدت نفسى - دون أى صلة لى بها - أتدخل ، وأطلب منها التروى! لقد أشفقت على السيدة! فقد تجد نفسها مجردة من كل شىء بين يوم وليلة، فى حالة ما إذا نقل الابن أملاكها باسمه تحت تأثير زوجة لا ترعى الله، وتستجدى الابن فلا يجيب!

وكان الأمر مضحكا عندما حدثتها عن الملك لير عندما وزع ممتلكاته على أولاده، ولم يرضهم إلا العقوق! وضربت لها المثل بملكة إنجلترا التى رفضت إلى اليوم التنازل عن الملك لابنها الأمير تشارلز فعاشت ملكة إلى اليوم، ولو تنازلت لما بقى لها ذكر ولصارت مهملة!

ولم تفهم السيدة حرفا واحدا مما قلت! وكان لسان حالها : مالى وما الملك لير أو ملكة انجلترا؟! لقد أقنعها ابنها بعمل التوكيل العام، وقد يكون تحت تأثير زوجته أو غيرها! وستنزل عن عرشها مختارة، وتلقى جزاء الملك ليرا!

ومنذ عام أو أكثر حضرت واقعة سفر صديق عزيز إلى الخارج فى رحلة علاج، ولم يجد أكثر قرابة له من أخيه لينجز أعماله فى تحصيل الإيجارات، وعمل له التوكيل اللازم، بعد أن أعطاه المستندات اللازمة - ثم حضر الغائب، وانتظر أخاه ليسلمه ما حصله من إيجارات، وتبلغ عدة ألوف من الجنيهات وتهرب الأخ من لقائه وقتا طويلا، ثم حضر

معتذرا بأنه أنفق فى الصرف على تحصيل الإيجارات عدة ألوف من الجنيهات! وكان كل ما حمله معه ليسلمه لأخيه مائة جنيه! وكاد الأخ يصعق! وألغى التوكيل، وحاول استرداد المستندات من أخيه دون جدوى!

والقصص كثيرة ولكنها تصب فى الحقيقة التى أشرنا إليها، وهى أن الاعتماد على رابطة الدم أشبه بالاعتماد على حائط مائل، كما يقول المثل الشعبى! لا يلبث أن يسقط عند أول تجربة! فالمصالح.. والمصالح وحدها هى التى تحفظ روابط القربى! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٢)
لغز الصدفة

لا شىء فى الحياة يخضع للصدفة! فكل شىء مقدر ومرسوم ومخطط ومرتب منذ الأزل! وما يعتبره المرء صدفة إنما هو نتيجة ترتيب إلهى معجز لا بقوة بشر!

وعلى سبيل المثال، فحين تسقط صخرة من جبل على رأس إنسان وتقضى عليه، فإن الحادث يبدو صدفة، مع أنه تسبقه عملية إعداد طويل الأمد استغرق قرونا، جرى فيها خلخلة هذه الصخرة من الجبل بعوامل التعرية، والأمطار والزلازل وغيرها، حتى تنفصل هذه الصخرة من جسم الجبل، وتكون جاهزة للانقضاض على رأس الضحية.

وفى الوقت نفسه يكون قد جرى إعداد هائل للضحية، يقودها إلى الجبل فى الزمان والمكان اللذين تقع فيهما الحادثة! وهذا الإعداد يشمل - فيما يشمل - أن يكون الضحية من هواة تسلق الجبال، أو ممن يقطنون فى هذه المنطقة الجبلية أو ممن تقودهم ظروفهم إلى التواجد فى هذا المكان بالذات حيث يلتقى مع الصخرة فى الموعد المحدد!!

وهذا الكلام معقول، ومنطقى! فلو كانت الصدفة تلعب أى دور فى الحياة، لاختفى النظام من الكون، ولسارت الفوضى ولا يمكن السيطرة عليها، بكل ما يعنيه ذلك من غياب قوة عظمى منظمة للكون وللبشر! وهو ما ينكره ما نلاحظ من وجود كونى ينظم علاقة الكواكب ببعضها البعض تحت إشراف دقيق ووجود مكونات لكل شىء، وتركيبات لا يمكن أن يحدث فيها أى خلل، وإلا اختل نظام الكون كله، وعلى سبيل المثال تركيب الهواء فلو زادت نسبة فى أكسيد الكربون فى الهواء، لما عادت هناك حياة!

لا شىء يخضع للصدفة، حتى لو تصور المرء ذلك من بعض مظاهر الحياة، فقد يقع زلزال، وتتهاوى الأسقف والحوائط والجبال، ولكن لا عشوائية فى ذلك، فكل ضحية مكتوب اسمه على الحائط الذى يسقط عليه، أو الصخرة التى تصبه!

وعندما تحدث غارات جوية على المدن، يكون مكتوبا على كل قنبلة أو صاروخ أسماء الضحايا!

ومن هنا فلا مهرب! وقد رأينا فى الزلازل أناسا يريدون الهرب من الواقع الذى يتواجدون فيه هربا من الموت، دون أن يدريها أن الموت ينتظرهم فى الموقع الذين يهربون إليه!

وعندما تدرس حالات الناجين من الموت سوف نرى الإعجاز الإلهى، والتخطيط الدقيق! ويعتقد البعض أن الرصاصات التى يطلقها الجند تنطلق عشوائيا، وهم مخطئون، فكل من هذه الرصاصات ينطلق

لهدف محدد، ولا يمكن أن تخطئ فتصيب جنديا غير المقصود، حتى ولو كان بينه وبين زميله بضعة سنتيمترات!

وفى رواية الأديب الألمانى الكبير إريك ماريك ريمارك: «كل شىء هادئ فى الميدان الغربى، يموت البطل بطريقة إعجازية، فهو يقيم فى الخندق شهورا، ولكن ما يكاد يصعد برأسه خارج الخندق، حتى تكون هناك رصاصة فى انتظاره، فتستقر فى رأسه ويموت! لقد كانت رأسه على موعد مع الرصاصة! لقد نجا من مئات الرصاصات من قبل، ولكنها أخطأته جميعا، لأنها لم تحمل اسمه!

(١٣)

لغـز الـرزق (١) !!

يقول الله تعالت حكمته فى حديث قدسى «لأرزقن من لا حيلة له، حتى يتعجب من ذلك أهل الحيل»!

هذا هو لغز الرزق الذى لا يدركه الكثيرون، ولو أدركه البشر لاختفى الفساد من الأرض! مثلما باع البعض آخرته الدائمة مقابل حياته القصيرة!

وهذا الكلام ليس دردشة يسارية - كما قد يتصوره البعض! ولكنه ملاحظة واقعية تثبت نفسها كل يوم!

والمشكلة فى هذا اللغز هو أن البعض يعتبر المال على الدوام نعمة من النعم، مع أنه قد يكون نقمة من النقم! فالحديث النبوى الشريف يقول: «إذا غضب الله على امرىء رزقه من حرام، فإذا اشتد غضبه عليه، بارك له فيه!» ومعنى ذلك أن الرزق قد يكون أحيانا من علامات غضب الله وليس من علامات رضاه! وهو قد يشقى ولا يسعد، ويدمر ولا يبنى

والأدلة على صحة هذا القول يقرؤها القارئ من يوم لآخر فى صفحة الحوادث فى الصحف اليومية، عندما يقرأ عن سقوط مالى

كبير فى يد العدالة لمحاسبته عما كسبه من حرام! وهو ما يقرؤه عن نواب القروض، والحباك والحباكين، وغيرهم ممن كانت لهم سطوة المال وسطوة المكانة الاجتماعية، فسقطوا إلى القاع! ولعلهم عرفوا أن ما ارتزقوه من حرام كان علاقة غضب من الله وليس علاقة رضا!

وبطبيعة الحال فلم يعد ينفعهم إدراكهم حقيقة مصدر رزقهم، ولكنه ينفع غيرهم ممن يفهمون! وأما الأغبياء والذين لا يرتدعون، فلهم يومهم القريب أو البعيد! فالله يمهل ولا يهمل!

وقد أصبحت «عبادة الأبناء» إحدى الوسائل الرئيسية للفساد! فمن المحقق أن حاجات الإنسان لا تتطلب كل هذا التكالب على الرزق! ولكن عبادة الأبناء تحرض صاحبها على اجتناء المال من أى طريق، لتأمين حياة «المعبود الصغير»! وينسى أن كل ما كسبه من حرام لن ينفع المعبود الصغير! فسيحترق بنار الحرام، وسيقضى عليه!

وهذا الكلام لا يحتاج إلى بحث طويل عن الدليل، فيكفى قراءة الصحف اليومية، وسوف يرى القارئ نماذج من هذه الأدلة فى مرتكبى الجرائم من أبناء الأثرياء! فلم يصلحهم المال وإنما أفسدهم! ولم ينفعهم وإنما أوقع بهم وقضى عليهم!

وعلى الوجه الآخر سوف يرى القارئ ملايين من البشر، ممن نجحوا فى حياتهم، وأفادوا أنفسهم وأمتهم، واشتهروا، وأثروا، ولم يترك لهم أباؤهم مالا، وإنما تركوا لهم الفضائل، ووضعوا أقدامهم فى أول الطريق إلى الله!

ولن يدهش القارئ إذا عرف أن هؤلاء هم الذين عمروا الأرض، وحافظوا عليها صالحة للحياة إلى اليوم، وأما المفسدون الذين عجزوا عن حل لغز الرزق، فقد امتلأت بهم السجون، وبددوا حياتهم فى قبض الريح!

(١٤)
لغـز الـرزق (٢) !!

الرزق نوعان، نوع مغتصب، ورزق مقدر منذ الأزل! وبالنسبة للرزق المغتصب، فإنه رزق حرام، وهو زائل مهما اجتهد صاحبه، ولا يتبقى لديه سوى الرزق الحلال!

والمشكلة فى الرزق الحرام أنه لا يزول بسلام، وإنما يزول بعد أن يدفع صاحبه الفوائد عليه! وهذه الفوائد قد يدفعها هو، أو يدفعها أولاده ومن يعولهم ممن استفادوا من الرزق الحرام. فبقدر استفادتهم، بقدر ما يدفعون!

ومن هنا فعلى الأبناء الذين ينعمون بالمال الحرام أن ينبهوا عائلهم إلى أن هذا المال لن ينفعهم على المدى البعيد، وأنهم سيدفعون فوائده غاليا!

وبذلك تتكامل الحلقة، فالدين لا يتجزأ، والحلال بيِّن، والحرام بين، والمسئولية عن المال الحرام لا تتجزأ، فهى مسئولية من يغتصبه ومن يستفيد منه وهو يعلم حرمته!

ولو علم «عبدة الأبناء»! الذين يريدون أن يضعوا مال الدنيا تحت

أقدام أبنائهم، أن هذا المال لن ينفعهم، وأنهم سوف يدفعون ثمنه، لتوقفوا فى الوقت المناسب!

والمهم هو أن دفع فائدة المال الحرام لا تكون بالضرورة مالا أو نقدا. أى خسارة مال - وإنما الدفع يتم بطرق شتى! فقد يكون الدفع من الصحة، وقد يكون من السمعة والكرامة، وقد يكون من السعادة بأسبابها المختلفة، وصفحات الحوادث فى الصحف مملوءة كل يوم بالأمثلة لمن يعتبر ولمن لا يعتبر!

ولكن فى كل الأحوال، وبما لا سبيل للشك فيه، فإن الدفع أمر محتوم!

وفلسفة الدفع إنها تبين لمن يرتزق من حرام أنه خسر ولم يكسب، وأن هناك فى الحياة نعمًا أخرى أعلى قيمة بكثير من المال! وأنه لو تعفف عن الارتزاق من المال الحرام، لكسب تلك النعم الأخرى ولم ينقص رزقه درهما واحدا، بل إنه قد يزيد! فمن الأمور الملاحظة فى هذا الصدد، أن جميع الآيات الكريمة التى تتحدث عن الرزق فى القرآن تقرنه بمشيئة الله وحده! وليس بأى حساب! وإنما بتقدير العزيز العليم.

فعندما يحرم الله وأد البنات يقول: ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقهم وإياكم (الإسراء) ويقول: والله يرزق من يشاء بغير حساب (البقرة) ويقول: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب! (آل عمران) ويقول: (ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب!

فلأن الرزق هو أصعب امتحان للإنسان، فقد جعله الله تعالى خاضعا لمشيئته وحده، وأطلق حجم الرزق، فجعله بغير حساب غير حساب الخالق!

ولكن هذا لم يمنع الكثيرين من اغتصاب المال بغير ما شرع الله، غافلين عن أنهم سوف يردونه كاملا أو «يكمّونه» ومعهم أولادهم ومن استفادوا من المال الحرام، مضافا إليه الفوائد الباهظة!

وهذا الكلام ليس «دردشة» من الكاتب ـ كما يعتقد البعض! فأدعوا الجميع إلى أن يتأملوا فى هذه الظاهرة، وهى أنه لم ينتفع أحد مما كسبه من حرام، بل خسر! وتلك هى فلسفة الرزق!

(١٥)

لغــز الـرزق (٣) !!

يعتقد الكثيرون ممن لا يعلمون أن الرزق نعمة مطلقة، وينسون أنه محنة أيضا! لأن الإنفاق منه مرتبط بشروط إذا خالفها الإنسان يستحق عقاب المخالف!

وبصفة مبدئية فإنه لا أحد يملك! فالمال مال الله، وما يملكه المرء هو أشبه برصيد أودعه الله تعالى فى البنك، يصرف منه كما يشاء، وقد يصرفه كله، أو يصرف بعضه! وقد يبقى معه إلى نهاية العمر، وقد يفقده كله أو بعضه فى أثناء حياته! وقد يتمتع به كله أو بعضه! وقد يدخل بسببه السجن، أو يلتف بسببه حول عنقه حبل المشنقة!

كما قلنا فى مقال سابق، فبعض الرزق حلال، وبعضه حرام، ولم ينتفع الإنسان إلا مما ارتزقه من حلال وقد يكون بعض الرزق بفضل رضا الله، وقد يكون بعضه نتيجة سخط الله! فالحديث النبوى الشريف يقول «إذا غضب الله على إمرىء رزقه من حرام، وإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه»! فزيادة الرزق للمرء قد تكون نتيجة غضب من الله، وليس نتيجة رضا، وهذا يفسر أنه لا أحد سينجو بمال حرام!

والذين سرقوا بنوكنا الوطنية إذا أفلتوا من قبضة الرئيس مبارك، فلن يفلتوا من قبضة خالق مبارك!

وبالنسبة للرزق الحلال فهو ليس ملكا مباحا يتصرف فيه المرء وفق هواه، فهو أمانة «اودعها الله فى يده يصرف منها بالحق، وبالعدل، فإذا خالف ذلك استحق جزاء المخالف!

وعلى سبيل المثال: فإذا أغدق على أولاده بغير حساب، وبغير سؤال، فلا يلومن إلا نفسه إذا أفسد هذا المال الأولاد، إذ يجب عليه أن يعلمهم المسئولية عن إنفاق هذا المال، وضرورة أن ينفق فيما ينفعهم ولا يضرهم!

وبالنسبة للمال الحرام فلا يظن أحد أنه سوف ينفع أولاده! فسوف يتعذبون به عذابا أليما إذا عرفوا مصدره، وهو أمر يسير، فموظف يتقاضى مرتبًا ألف جنيه شهريا، ومع ذلك ينفق عدة ألوف! والسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، فمن أين أتت الألوف الأخرى؟

فمن حق الأبناء أن يحاسبوا أباءهم، لأنهم هم الذين سوف يدفعون الثمن فى النهاية، من سمعتهم ومن رزقهم ومن مستقبلهم! فإذا عرفوا وصمتوا وقبلوا فلا يلومون إلا أنفسهم!

عندما صدر الحكم على الحباك نشرت الصحف أن ابنته احتجت بقولها: اشمعنى بابا! إنها تظن أن الآخرين لن يدفعوا الثمن! وهى واهمة فالكل سوف يدفع الثمن!

ولكن ما هو الثمن؟ إن عقاب الله له صور شتى، على رأسها ضياع الصحة، وسوف يحسد أى فقير يراه فى الطريق يسعى إلى رزقه، وسوف يعرف أن هذا الرزق مهما تضاءل سوف يستمتع به الفقير مع صحته، وأن رزقه الحرام مهما تضخم سوف يفقد كل قيمة له إذا ضاعت الصحة!

فالغالبية الساحقة من أبناء شعبنا لا تملك سوى قوت يومها، ولكن رزق اليوم حين يبارك فيه الله تعالى يتضاعف بلا حدود.

فالبركة فى المال الحلال أمر يعرفه كل رجل شريف، وهى ليست البركة التى اخترعها أصحاب الذقون من أصحاب شركات توظيف الأموال، والتى أطاحت بهم من حالق فبعضهم فى السجن، والبعض الآخر قضى نحبه بعد أن أطبقت «السُّطَل على قلبه» فلم ينفعه مال ولا ولد!

(١٦)

لغــز الـرزق (٤) !!

بعض الناس يعتقدون أن الرزق هو المال فقط، وهو خطأ بالغ! فالرزق يشمل كل شيء يمنحه الله للمرء، فالأولاد رزق! والصحة رزق! والعلم رزق! والزوجة الوفية رزق، وكل ما أعطاه الله للمرء مما يسعده رزق.. إلى آخره!

ومن هنا فعلى المرء أن يضع المال فى إطاره الصحيح بين كل هذه العطايا والنعم الإلهية! وسوف يكتشف العجب!

وعلى سبيل المثال، فإذا أتى للمرء الاختيار بين هذه العطايا الإلهية، فسوف تتغير أولوياته! فلو خير المرء بين ملك الدنيا والصحة، لاختار الصحة دون تردد! إذ ماذا يفيد المال إذا كان الإنسان عاجزا مقعدا طريح الفراش، يعانى من الآلام والمرض؟، ولو خير بين أن يفقد أولاده أو يفقد المال، لاختار الأولاد! ولو خير بين زوجة وفية محبة وحياة عائلية سعيدة وبين المال، لاختار الأسرة السعيدة.. إلى آخره!

ومن هنا فإن مشكلة الإنسان الأساسية، أنه يريد أن يجمع بين هذه النعم على مستوى واحد من الكمال! فإذا نقص منه شيء نسى بقية النعم، وتملكه السخط والقلق، وبذلك يخسر الجميع!

فبعض الناس يصاب بضغط الدم، وآخرون يصابون بسكتة دماغية، وبعضهم ينتحر ويفقد حياته، مع أنه لو نظر إلى ما فى يده، لتعجب من فيض النعم الإلهية التى تغمره! ويسجد لله شكرا!

ولذلك شاءت إرادة الله تعالى أن يختبر البشر، ليرى من يكفر ومن يشكر، ووعد الصابرين بالخير، فى قوله تعالى: «ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا، إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المفلحون»!

والرزق قد يكون عينا وقد يكون نقدا! فالصحة على سبيل المثال - من قبيل الرزق العينى! ولكنها تكون نقدا إذا كان المرء يملك مليونا من الجنيهات وأصيب بمرض خطير، أنفق فيه مليون جنيه حتى استرد صحته! لقد اشترى الصحة بمليون جنيه! والآخر لم يكن فى حاجة لشرائها من الأطباء، لأن الله وهبها له عينا!

ومن المنطقى أن حالة الثانى الذى وهبه الله الصحة عينا أفضل من حال الذى اشتراها من الأطباء ولكن العجيب أن الناس يفضلون الحصول على المال أولا ثم يشترون الصحة! وبمعنى آخر أن أصحاب النعم الموهوبة عينا لا يشعرون بقيمتها إلا عندما يفقدونها!

فمن هو المبصر الذى عرف أنه يملك نعمة لو فقدها لدفع فى استردادها كل ما يملك؟ إن الوحيد الذى يعرف قيمة نعمة البصر هو الإنسان الذى ولد أعمى - ثم دفع مليونا من الجنيهات حتى حصل على

نعمة البصر! فعندئذ يعرف أن نعمة النظر التى حصل عليها تساوى مليونا! ولكن الذى ولد مبصرا سوف يشيط من الضحك إذا قلت له إنه يملك نعمة تساوى مليونا!

لو فكر المرء فى نفسه لعرف أنه يملك من النعم العينية مالا يقدر بمال! ولعرف أنه ثروة تتحرك وتمشى على الأرض! وعلى كل من لا يصدق هذا الكلام أن يذهب إلى أقرب مستشفى ويسأل مرضاها! وسوف يدهش عندما يرى كم تغيرت نظرتهم لأهمية المال! لقد أصبحت قيمة المال لديهم بقدر ما يدفعون منه لاسترداد صحتهم.

(١٧)

لغـز الـرزق (٥) !!

لعله اتضح لنا من المقـالات السـابقـة أنه لا يوجـد غنى مطلق، أو فقير مطلق! فكل امرئ أعطاه الله رزقه بصور شتى، فقد يكون رزقا نقديا يتـمثل فى المال، وقد يكون رزقا عـينيا يتمثل فى النعم الأخرى التى تفوق قيمتها قيمة المال!

فالإنسان كنز متحرك مكون من نعم لا حصر لها، إذا فقد واحدة منها كلفه استردادها من المال ما قد لا يقدر عليه! ولكن الإنسان يتخذ من المال وحده المقياس الوحيد للرزق، أى للغنى والفقير.

مع أن الحاجة هى المعيار الصحيح للثراء! ومن هنا قال الحكماء! عز من قنع، وذل من طمع! وقال الحكماء أيضا: «القناعة كنز لا يفنى»!

فالاستغناء فى حد ذاته ثروة لا تقدر بثمن! فهو يحدث من الإشباع مالا تستطيعه أية ثروة! والدليل على ذلك ما نقرؤه فى أخبار الصحف عن بعض المسئولين فى بعض البلاد، الذين يقدمون للمحاكمة بتهمة الاستيلاء على مئات الملايين من الدولارات!

إذ يدهش الإنسان: أما كان يكفى هذا المسئول مليونا أو مليونين أو ثلاثة؟ ولماذا مئات الملايين؟ والجواب لأنه لو استولى على مئات المليارات لما اكتفى! لأنه لا يملك "نعمة القناعة! إن ملايين الدنيا لن تشبعه، وقديما قال الحكماء: اثنان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال!

فالطمع فى حد ذاته لعنة تؤدى بصاحبها إلى الدمار، وتفقده كل إحساس بكل زيادة فى ماله، لأنه يطمع دائما فى المزيد! إنه لا يرتوى أبدا! كما أنه لا يشعر أبدا بالأمان، فالخوف من النقص ومن الحاجة يطارده، والفزع من يوم آت تتكشف فيه اختلاساته وسرقاته.. يوم يقرع رجال الأمن بابه لامتثاله وسوقه إلى المحاكمة، يؤرق نومه!

فالجريمة تنتقم من فاعلها!

وإذا قارنا بين حجم الهموم التى يحملها فقير معدم، وتلك التى يحملها صاحب ملايين، فسوف ندهش! فكل يحمل من الهموم بقدر ما يملك من مال! فالأخير يحمل هموم حفظ المال واستثماره ومسئولياته، حتى ولو كان مالا حلالا، والأول أعفاه الله من هذا الهم!

وليس معنى ذلك أن نقع فى خطأ أن الفقير يسعد بفقره، والغنى يشقى بماله! ولكن هذا يدخلنا فى قضية أخرى هى أن كلا منهما يسعد ويشقى فى حدود الدور الذى رسمه الله تعالى لحياته، وفى حدود الالتزام بأوامر الله ونواهيه! - أى فى حدود مبادئ عامة رسمها الله لحياة البشر!

فلقد سبق أن قلنا أنه لا يوجد فقير مطلق أو غنى مطلق إذ الفقير يملك من النعم الإلهية نفس ما يملكه الغنى، وإنما الفقر فى المال وحده الذى هو نعمة من هذه النعم! بل عند قياسه بنعمة الصحة - على سبيل المثال - سوف تتضاءل قيمته!

فإذا قلنا عن إنسان إنه فقير، فليس معنى ذلك أنه فقير فى كل شىء! إذ قد يملك من النعم ما يحسده عليها صاحب الملايين!

فإذا كان يملك القناعة فهو أغنى من أغنى الأغنياء، وإذا كان يملك أولادا فهو أغنى من الغنى المحروم من الأبناء، وإذا كان يملك نعمة الإيمان فهو أغنى من الثرى الذى حرم من هذه النعمة! إلى آخره!

(١٨)
لغـز الـرزق (٦) !!

عندما كنت أعيش فى لندن كأستاذ زائر حدث أن تعرضت شقتى لسطو، وكان من المسروقات مبلغ من المال، وعدد ٢ ستريو وزجاجة «بارفان» كبيرة محفوظة داخل علبة جميلة، وقد قبضت شرطة سكوتلانديارد على اللصوص فى ظرف ساعة تقريبا وأعادوا لى ستريو واحدا، وأما الباقى فلم يعد إلى اليوم!

بعد يومين قابلتنى صاحبة المنزل وزوجها، وفاجآنى بأن أثنيا على شجاعتى ورباطة جأشى.! وسألتهما عن السبب، فقد نسيت الحادثة، فأجابانى بأنى لم أبد حزنا على ما ضاع، وأنى ما زلت أحتفظ بروح المرح والتفاؤل كأنى لم أتعرض لضرر!

وأجبتهما على الفور! ولماذا أحزن أو أكتئب! إن ما فقدته لم يكن ملكى! وتعجبا وسألان: ترى ملك من؟ شرحت لهما المسألة فقلت: إن الذى ضاع كان ملكى فى الظاهر، ولكنى لم أكن أملكه حقيقة! لقد كنت فقط أحمله، أو أحتفظ به للصوص! ولو كان ملكى لأنتفعت به. فلماذا أحزن على فقد شىء لم يكن لى منذ الأزل؟

ثم زودتهما إيضاحا فقلت إن ما لدينا جميعا من المال أو أولاد أو متاع، إنما هو وديعة لدينا، ننفق منها أو ننتفع بها وفقا لما أراده الله! إنه أشبه برصيد فى البنك، قد نستخدمه كله، وقد نستخدم بعضه، وقد نموت دون أن نستخدم شيئا منه! وقد يسترده المولى أولا يسترده وفقا لترتيبه الإلهى!

وبالتالى فلو أن المال الذى سرق منى كان ملكى منذ الأزل، لما ضاع! ولكنه كان مودعا لدى، حتى يذهب إلى أيد أخرى! فضربت المثل - ضاحكا - بزجاجة البارفان! فقلت إننى لفرط إعجابى بها لم أمسها! بل كنت فقط أتفرج عليها! لقد حافظت عليها للحرامى! وكنت أمينا عليها بأكثر من أمانتى لممتلكاتى! فلو أنها كانت ملكى حقا لظلت فى حوزتى، ولاستخدمتها، ولكنها كانت مودعة عندى حتى يتسلمها الحرامى!

وكذلك الحال فى كل شىء! فنحن لا نعرف قدر ما نملكه بالفعل حتى نستخدمه ونستفيد منه بالفعل! وقبل ذلك فنحن مجرد حفظة للأموال والممتلكات، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

وبالفعل، فقد تكون بعض الأموال المودعة لدينا أموالا معدومة! بمعنى أن أحدا لن يستفيد منها على الإطلاق! وتلك هى الأموال التى تكون فى الطائرات المحترقة. أو فى قطار الصعيد الذى احترق مؤخرا. إن الوحيد الذى يعرف مصير كل قرش نملكه هو الله!

ومن هنا - فما ضاع منك لم يكن ملكك منذ الأزل؛ فلماذا الأسف على ما ضاع؟

وهذا ينطبق على المسروقات! فما سرق منك لم يكن لك! وفى الوقت نفسه لن ينتفع السارق بما سرق! لأنه مال مغتصب، ومن هنا فأولئك الذين يسرقون من أجل أولادهم يضرونهم ولا ينفعونهم! فالمال الحرام ينتقم ممن استحله! ولن ينتفع المرء إلا بما كسبه من حلال!

كم أتمنى أن أرى وجه صاحب ملايين حين يعرف مصير ملايينه ومن شقى بها أو سعد! ومن انتفع بها ومن أضرته!

فقد كانت الحاجة كاملة صاحبة ملايين، وقد بنت بها، أو ببعضها عمارة شاهقة فى مصر الجديدة، لكنها هوت وسقطت. ودفنت تحتها بشرا، كما دفنت خزائن، وأموال ومجوهرات! ولكنها كانت خيرا وبركة على آخرين عثروا أثناء التنقيب على أموال ومجوهرات، كانت محفوظة لهم وسط الأتربة والحجارة والكتل الخرسانية!

وضاعت ملايين الحاجة كاملة! وضاعت أموال أخرى لم تكن من نصيب أصحابها منذ الأزل، وإنما كانوا يحملونها ويحفظونها حتى دفنت مع أصحابها!

وقد يعجب القارئ إذا عرف أن بعض هذه الأموال التى دفنت أو ضاعت سعى أصحابها للحصول عليها سعيا شاقا، وكان بعض السعى حلالا، والبعض الآخر حراما! وكانوا جميعا يتوهمون أنهم يوم حصلوا عليها أصبحت ملكهم إلى الأبد! ولم يعلموا أنهم كانوا مجرد حفظة لمال زائل لا يستحق أى عناء فى الحصول عليه!

(١٩)

لغز الرزق (٧) !!

ومن أكبر ألغاز الرزق، أنه لا أحد يعرف مصير الرزق الذى يصل إلى يده! مع أن الجميع يتوهمون أنهم يعرفون!

ولو علم البخلاء مصير أموالهم لأصابهم الهلع والانزعاج! ولعلموا أنهم يكنزون أموالهم ويحرمون أنفسهم من التمتع بها من أجل كلاب عاقين وعقورين!

كنت مع صديق صاحب مركز قانونى مرموق، وجاء ذكر قريب شاب اشترى سيارة مرسيدس من أحدث طراز، وكان يقودها بتهور أدى إلى ارتكابه حادثة دامية، أصيب فيها ومعه فتاة، وتحطمت السيارة، وقال لى الصديق معلقا: رحم الله والد هذا الفتى! كنت أعرفه. وقد عمل بإحدى دول الخليج، وارتزق منها كثيرا، ولكنه كان بخيلا! كان يرتدى بدلة واحدة، ويدخر ماله لهذا الابن لكى يؤمن له حياته! وقد مات الوالد الغنى كأفقر ما يكون الفقراء، وعاش الابن كأغنى ما يكون الأغنياء! حتى أصيب فى تلك الحادثة!

واستطرد الصديق قائلا فى تحسر ممزوج بالسخرية: لو أن هذا

الأب اشترى بدلة جديدة بأمواله الطائلة، لما نقص من أمواله شيء يذكر، ولاستمتع ببعض ماله! ولكنه ترك كل شيء لابنه المستهتر!

قلت معلقا: لو أنه اهتم بتربية ابنه بقدر اهتمامه بتنمية ثروته، ولو أنه قرأ كتاب الله الكريم، «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط» لعاش عيشة أسعد، ولترك لابنه أيضا عيشة أسعد! فكثيرون لم يخلف لهم آباؤهم شيئا من مال، ولكنهم خلفوا لهم الخلق الكريم والتربية الصالحة. فنهضوا من حضيض الفقر، وكونوا الأموال بالحلال، وصاروا أثرياء! وأولئك هم الذين يطلق عليهم اسم «العصاميين»!

واستطردت قائلا لصديقي: إن الكثيرين لا يعرفون أن التربية الصالحة ثروة! وأنها تدخل في باب الرزق! فالرزق ليس هو فقط المال، وإنما هو مفهوم واسع! فالبعض يرزقه الله مالا، والبعض يرزقه الله تربية حسنة وخلقا قويما وخشية من الله وخوفا!

عرفت سيدة ثرية أفسدت تربية ابنها الوحيد عن طريق تدليله والانصياع لكل رغباته. وكانت تملك كمية من المجوهرات احتفظت بها لابنها ولمن يتزوجها، وأغلقت باب غرفة نومها. ثم أصيبت بمرض عضال، ونقلت إلى مستشفى عين شمس التخصصي، وعندما طال مرضها تبرم ابنها الوحيد، وكان قد تزوج من فتاة من منبت سوء، فكان يستعجل وفاة أمه، حتى فاجأها مرة بسؤالها: لماذا لا تموتي لتريحي

الجميع؟ ولم تتحمل الأم الصدمة. فماتت! وفى اليوم التالى كانت الزوجة تقتحم غرفة الأم، وتستولى على كل مجوهراتها!

لم تدر الأم وهى تحتفظ بكل هذه المجوهرات أنها سوف تؤول إلى امرأة غريبة منها تتربص بموتها ولا تذرف عليها دمعة واحدة! وأن الابن الذى ضحت بشبابها من أجل تربيته، وادخرت له ما ادخرت، سوف يقع فى هوى فتاة محترفة تستولى عن طريق الزواج الشرعى - على كل ما ادخرت واحتفظت.

لقد كان خطؤها الوحيد أنها لم تحصن ابنها بالتربية الحسنة التى تحفظ ثروتها، لقد تصورت أن الرزق مجرد ثروة ومال، ولم تدر أن التربية الصالحة رزق أيضا! وأن المال بدون تربية صالحة هو مال مبدد مصيره إلى الضياع!

(٢٠)
تأملات فى لغز الرزق (٨) !!

ومن ألغاز الرزق، أنه قد يأتى أحيانا عن طريق فائدة عامة تعم الجميع، وقد يأتى أحيانا عن طريق مصيبة عامة تصيب الجميع!

وفى هذه الحالة نجد أنفسنا أمام مفارقات غريبة، توضح هندسة الخالق، وترتيبه الإلهى! ونكتشف شبكة هائلة من الاتصالات تشتبك فيها خطوط الخير بخطوط الشر على نحو معجز!

فقد تقع مصيبة كبيرة، ولكن تتفرع عنها منافع عظيمة لأشخاص ما كانت تقع لتقع لولا حدوث تلك المصيبة!

فكثيرا ما أقول لحارسى: لقد كان من الضرورى أن يقتل المجرمون صديقى فرج فودة، لكى تحصل على الشقة التى تعيش فيها حاليا مع زوجتك!

فقد كان بعد اغتيال الشهيد فرج فودة أن عينت الدولة حراسا على كتابها ومفكريها، لأنهم ثروتها الفكرية فأصبح هذا الحارس حارسا شخصيا لى.. وبطبيعة الحال كان واجبا على أن أساعد هذا

الحارس على استكمال تعليمه العالى، وأن أساعده فى الحصول على إحدى شقق محافظة القاهرة! ولم يكن ذلك ليتحقق لولا أن يصبح حارسا لى! ولم يكن ليصبح حارسا لى لولا اغتيال الشهيد فرج فودة!

ومن المعروف أن جميع التركات التى يرثها الأفراد تأتى عن طريق موت المورث! - أى عن طريق مصيبة! وهذه المصيبة ينتظرها الورثة، ويترقبون حدوثها بصبر نافذ كالصقور الجارحة على أفرع الأشجار، لا يكاد يسقط المورث حتى تنقض الصقور!

بل هناك أرزاق لا تأتى إلا عن طريق المصائب!

فرزق الحانوتى وأصحاب محلات الفراشة ومقرئى القرآن، لا يأتى إلا عن طريق المصائب! ويكفى أن نتصور بهجة كل منهم عندما يسمع عن حدوث حالة وفاة فى منطقته! ثم تحدث المفارقة! فهناك فى بيت الميت صراخ وعويل، وهناك فى بيت الحانوتى أو محل الفراشة ومقرئى القرآن ابتسامات وضحكات!

ومن عجيب القدر أن الصراخ والعويل لا يصدران إلا عند بيت الفقير، عندما يسقط الجدار الحامى، ويتعرى الجميع! أما بيت الغنى الذى ظل يكنز المال لتأمين مستقبل أولاده وتوفير سبل الراحة والرفاهية لهم، فهو الأقل صراخا وعويلا! وإن لم تتردد فى جنباته همسات البهجة والفرح! إن ورثة الغنى يجازونه جزاء سنمار! ولو علم الذين يسرقون مال الدولة بالملايين أنهم سوف يجازون هذا الجزاء من

ورثتهم، لترفقوا كثيرا بمال الدولة! ولعلموا أنهم يورثون كلابا عاقة وعقورة لا يستحقون المخاطرة! إن المال الحرام ينتقم من سارقه! في حين أن المال الحلال يحفظ للمورث كرامته حيا وميتا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

(٢١)
لغـز الـرزق (٨) !!

كثير مـن الناس يعتقدون أن الرزق هو مـا حـصلوا عليه بأنفسهم، ومـا هـو مـودع فـى حسـاباتهم، ومـا هـو مملوك لهم من أطيان وعقـارات ولو علمـوا الحقيـقـة لسلك الذهول عـقـولهم. فـمـا ينطبق عليه وصف الرزق هـو ما يتمتع به المرء من مـاله فقط، سواء كان فى شكل طعام أو كسـاء أو مـأوى أو أسباب السعادة والترف والهناء، وفيما عدا ذلك فهو ليس رزقه، وإنما هو رزق الآخرين!

فـالله تعـالى يـرزق النـاس من رزق النـاس! وهؤلاء الذين يرزقـون النـاس بأمر الله أشبه بالبعير الذى يحمل الرزق لتوصيله إلى الآخرين! ولا يسـتطيـعـون التـخلف عـن هـذا التـوصـيل فـى المكان والـزمـان الذى يحـدده المولى تـعـالـى! وكل ذلك يتم بنظام دقـيق مـحكم رسـمـه العـزيز الحكيم! وبوسـائل مـواصـلات مـختلفـة. فقد يسافـر المرء آلاف الأميال إلى أوروبا والولايات المتحدة أو غيرها ليسلم كل مرزوق رزقه!

ونحـن نمشى فـى الأسـواق لهـذا الغـرض بالذات، وهو تسليم كل مـرزوق رزقـه! فكل سلعـة مكتوب عليها اسم من سيشـتريها واسم من سيبيعها! ولا يمكن أن يحدث خطأ أو خلطة.

وإذا استولى واحد على رزق الآخر بالتحايل أو بالخطف أو بطريقة غير مشروعة، فإنه مغفل! لأنه لن ينتفع من هذا الرزق، فهو مخصوم من رزقه الحقيقى!

ولو علم الناس حاجتهم الحقيقية مما لديهم من مال، لما سرقوا، وما نصبوا، وما خطفوا! ولعلموا أنهم فقط قد أضافوا إلى أعبائهم فى عملية توزيع الرزق الإلهى! أنهم مثل البعير الذى يحمل عشرة أطنان لتوصيلها إلى أصحابها فيضيف إليها خمسة عشر طنا! ولن يضيف إلى رزقه الذى حدده المولى مليما واحدا! فسواء كان يملك عشرة آلاف جنيه، أو عشرة ملايين، أو عشرة مليارات، فلن ينتفع إلا من الرزق الذى حدده الله تعالى، وهو لا يساوى بحال ما أراق من ماء وجه، وما خالف من ضمير، وما اختلس من مال!

ومن هنا فبر الأمان للمرء أن يرتزق من حلال! فهذا هو الرزق الذى حدده المولى له بلا نقص أو زيادة! وهو الرزق الذى سوف ينتفع به بالفعل.

ومن هنا فليس كل ما يحوزه المرء من مال يملكه ملكية مطلقة! أن له فيه حق الانتفاع فقط! فالمال مال الله، وهو يزيد فيه وينقص حسب إرادته العالية! وللنقص حكمة، وهى حكمة الابتلاء! أى حكمة الاختبار والامتحان! وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: «ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله ، وإنا إليه راجعون»!

والمعنى هنا الذين يتذكرون أنهم وكل ما يملكون لله، وأنهم إليه راجعون!

ولأن هذا التذكر هو قمة الإيمان بالله وبحقيقة العلاقة بين الإنسان وربه، طلب الله من رسوله أن يبشر هؤلاء الصابرين بأن عليهم صلوات من ربهم ورحمة! وتلك منزلة رفيعة لا يصل إليها المرء إلا بالنجاح فى الاختبار.

(٢٢)
لغـز الـرزق (٩) !!

فى مـقـال سـابق قلت إن الله تعـالى يـرزق الناس من رزق الـناس! ويـترتب على ذلك أن على كل امـرىء أن يسلم كل صاحب رزق رزقـه فى المكان والـزمـان الذى حـدده الله تعـالى! فـإذا كـان صـاحب هذا الرزق بائعـا صغيرا فى بلدة نائيـة من بلاد العـالم، أو عـاصمـة فى أوروبا أو أمريكا أو آسيا أو أفريقيا، فإن على المرء السفر إلى هذه البلدة؟ وهذه العاصمة لتسليم صـاحب الرزق رزقه! ولا يستطيع أن يتخلف عن ذلك أبدا!

وهذا يتطلب ترتيبا إلهيا معجزا من قديم الأزل يعود المـرء بصورة حتمية إلى السفـر إلى هذا المكان من العالم حيث لا يدرى ولا يشعر ولا يعلم!

وعلى سـبـيل المثـال. فـإذا كـان على صـاحب هذا القلم بالذات أن يسلم صاحب رزق رزقه فى لندن فى يوم ما من أيام شهر إبريل ٢٠٠٠، فإن الترتيب الإلهى قضى بأن أصـاب بمرض خطيـر فى عينـى يتطلب عرضى على أطبـاء مستشفى مورفيلد للعيون فى لندن، وأن أكون فى

لندن فى هذا الوقت بالذات، مع كل مـا يتطلبـه ذلك من إجـراءات لا حصـر لهـا، وحـجـز على الطائرات، وتواجد فى المكان الذى يوجد فيه صـاحب الرزق - وقد يكون الـرزق عـشـرة جنيهات فقط أو أقل أو أكثـر وتوافـر حـافـز يدفعنى إلى شـراء السـاعة بالذات التى يبيعها صـاحب الرزق، والتى يكسب فيها المبلغ الذى كلفت بتسليمه إليه!

شبكة هائلة من الظـروف التى تقود إلى تسليم صـاحب رزق رزقه رتبها ودبرها العـزيز القـدير من قديم الأزل. لا يوجد فيها أى مـجـال للصدفة.

فـمـا نتـصـوره صـدفـة إنما هو تـرتيب إلهى سلفًا من قـبـل بدء الخليقة، وينفذ بدقة وإحكام منذ بدء الخليقة! ولا يستطيع امرىء على ظهر الأرض مخالفته أو تجاوزه! وتسخر فيه جميع الكائنات على وجه الأرض من بشر وحيوان وجماد!

وعلى سبيل المثال فإذا قدر لامرىء أن يلتهمه أسد فى غابة فى أفريقيا، كان الترتيب الإلهى يتم بحيث يقود صاحب القدر إلى التواجد فى الغـابة فى ذات المكان والزمـان الذى يتواجـد فيـه الأسـد، ويرتكب الأخطاء التى تدفـع به إلى فم الأسـد، فيلتهمه، ويصبح بعد ذلك رزقـا رزقه الله تعالى للأسد!!

لا شىء فى الكون يخضع للصدفة! فكل ما يقع هو تدبيـر العـزيز القـدير، وقـد دبره منذ الأزل، ويتم بدقـة مـعـجـزة، ولا يستطيع أن يفلت منها أحد!

وكمـا أنه على كل امرىء أن يسلم صـاحبـه الرزق رزقـه فى المكان والزمـان الذى حـدده العـزيـز الحكيم، فـإن على كل صـاحب رزق أن يتواجد فـى المكان والزمان الذى يتم فـيه اللقـاء بمن يسلمـه رزقـه! ولا يستطيع أن يتخلف دقـيقـة واحـدة أو شبـرا من الأرض التى يتم فـيها اللقاء!

فـإذا كـان بائعا فعليه أن يحمل السلعـة التـى تناسب ذوق هذا المرء والتى تغـريه على شـرائهـا! وهـذا يتطلب بدوره تدريبـا إلهيا معـجـزا من قديم الأزل، لا مكان فيه للصـدفة، حتى لو تصـور المرء أنه تواجـد فى هذا المكان بمحض الصدفة.

وعلى حـد قول عمر الخيام فى رباعيـاته: «كل شىء مقدر مكتوب، ذاك لوح عن الورى محجوب. فيه آمالنا وفيه الخطوب»!

(٢٣)

لغـز الـرزق (١٠) !!

خلق الله المخلوقات، وتعهد برزقها! وقد ترتب على هذا التعهد عملية تموين هائلة، شملت الكون كله، وشملت كل المخلوقات على ظهر الأرض، وفى أعماق البحار، وأجواء الفضاء.

والغريب فى عملية التموين هذه، أنه على اتساعها بإتساع الكون كله، فإن كل مخلوق يحصل على رزقه أيا كان موقعه فى الكون، وفى الزمان الذى حدده المولى، فلم نسمع عن طائر مات من الجوع، أو حشرة ماتت من الجوع، أو سمكة صغيرة فى قاع المحيط ماتت من الجوع أو طائر فى أجواء الفضاء مات من الجوع.

والأغرب من ذلك أن نظام رزق المخلوقات غير العاقلة يبدو أكثر دقة من نظام رزق المخلوقات العاقلة. لسبب بسيط هو أن رزق المخلوقات العاقلة يخضع لتنظيم العقل البشرى، ولكن رزق المخلوقات غير العاقلة يخضع لنظام وضعه العزيز القدير، لأنها لا تملك لنفسها عقلا يدبر أمورها، وتحصل على رزقها.

ويستوى فى الحصول على رزقه المخلوقات الأليفة والمخلوقات

المتوحشة، وحتى «الأميبا» ذات الخلية الواحدة، إذ يصل إليها رزقها أيان كانت، وفيها الإعجاز كله، فهى تتنفس، وتتغذى، وتخرج!

عندما كنت شابا يافعا، كنت وأصدقائى نتردد كثيرا على حدائق القناطر الخيرية، ومعنا طعام الغداء نتناوله فوق الحشائش الخضراء والطبيعة الساحرة، وفى يوم نسينا أن نأخذ معنا البيض المسلوق وأخذنا، بدلا منه البيض النيىء. وقد لاقينا عناءً شديدًا حتى سلقنا هذا البيض. وفرشنا سجادة صغيرة على الأرض، ووضعنا عليها ما أعددناها من طعام جاف، مضاف إليه البيض المسلوق.

على أنه ما كدنا نغادر المكان لحظة واحدة حتى كان عدد من الطيور المترقب فوق السور ينقضون على البيض المسلوق ويلتهمونه!

سخطنا فى البداية، ولكن ضحكنا فى النهاية! فلم نكن نتصور أننا كنا نعد البيض لطعام الطيور! ولكنه كان رزقا مكتوبا، وكان علينا إعداده لها.

ولو فكر القارئ فى هذه العملية لرأى أنها تتطلب ترتيبا معجزا، حتى يحصل كل طير على بيضته فى المكان والزمان اللذين حصل عليها فيهما. ولعرف أننا ذهبنا إلى القناطر الخيرية لأداء واجب تسليم كل طائر رزقه!

ومنذ عام تقريبا انفجرت عجلة سيارتى فى الطريق الصحراوى، ونجوت وزوجتى بأعجوبة، وقدم علينا بعض من لهم معرفة بتركيب

العجلة الإضافية، فقاموا باللازم، وحصلوا على الرزق الذى قدره العزيز العليم! لقد كان من اللازم أن تتفجر عجلة السيارة، وأن ننجو، وأن يحدث كل ذلك فى الزمان والمكان اللذين يتواجد فيهما أصحاب الرزق، فيحصلون على رزقهم! فكل شىء مدبر ومقدر ومرتب بعناية ودقة منذ الأزل، حتى لا يفوت أحد رزقه!

وعندما كنت فى سويسرا منذ عامين، وعلى بحيرة لوتسيرن الجميلة، قدمت مدرسة ومعها تلاميذها الصغار وأخرجت أرغفة من الخبز الجاف، قامت بتكسيرها قطعا صغيرة وناولت كل تلميذ قطعة منها، فتجمعوا على شاطىء البحيرة، يلقون بفتات الخبز للبط العائم الذى تجمع أمامهم، فحصلت كل بطة على رزقها، وما زادت وما نقصت!

أنه ما كانت كل بطة تحصل على رزقها لولا إعداد هائل مسبق منذ الأزل، بحيث تكون هناك مدرسة. وبرنامج رحلات، ومدرسة تعد لهذه الرحلة، واختيار هذا الجانب من البحيرة بالذات، لكى تتلقى كل بطة نصيبها من الرزق!

(٢٤)
وقد يكون أسامة بن لادن مختبئا فى أمريكا

ربما كان أكبر سؤال يدور فى الشارع المصرى اليوم، وهو يشاهد الاستعدادات العسكرية الجبارة التى تقوم بها أكبر دولة على وجه الأرض وهى الولايات المتحدة، لاعتقال أسامة بن لادن، لماذا كل هذه الاستعدادات؟

وبطبيعة الحال فلا يوجد عاقل فى العالم يصدق أن أسامة بن لادن يستحق كل هذه الاستعدادات! فهو مهما طلع أو نزل! ـ على حسب التعبير الشعبى المعروف، لا يعدو أن يكون فردا، مهما كانت قدراته خارقة، فلا تستحق أن تستفز بها دولة كبرى ـ بل هى أكبر دولة فى العالم ـ وهى الولايات المتحدة، فتنفق مئات المليارات من الدولارات فى استعدادات عسكرية فى طول الكرة الأرضية وعرضها، لاعتقاله!

يا سلام!! أكل هذه الاستعدادات لاعتقال شخص واحد؟ أليس ما يجرى اليوم من ردود فعل الإدارة الأمريكية لهجوم يوم الثلاثاء الأسود، مما لم يشهد التاريخ مثيلا ويفوق قدرة الإنسان على التصور والخيال.

والأغرب من ذلك ـ يا أخى! ـ أنه لا يوجد لدى الإدارة الأمريكية أى دليل قاطع على أن أسامة بن لادن هو مدبر ذلك الهجوم! بل إن

أسامة بن لادن قد نفى بنفسه أن يكون له يد فى هذا الهجوم! مع أنه مما يتوج تاريخه الإرهابى تتويجا عظيما أن ينسب هذا الهجوم إلى تدبيره الشخصى، فيدخل التاريخ كأسطورة لم يسبق لها مثيل!

ولقد رأينا كيف أنه بعد الهجوم حاولت بعض الجماعات الإرهابية أن تنتحل لنفسها هذا العمل! ومنها جماعات يابانية زعمت أنها ارتكبت الهجوم انتقاما لضرب هيروشيما وناجازاكى بالقنبلة الذرية الأمريكية!

إن ما تقوم به الإدارة الأمريكية اليوم، من شن الحرب على فرد واحد، هو عمل غير مسبوق! خصوصا وهى تحاول أن تصل إليه عبر بحر من دماء الأبرياء، الذين سوف تطحنهم الحرب طحنا، وتدكهم دكا!

فسوف يصلى نار هذه الحرب شعب يتضور جوعا ومتخلف حضاريا إلى حد بعيد! معظم أفراد هذا الشعب ربما لم ير أسامة بن لادن فى حياتهم! فهو يعلم أنه مطلوب من أمريكا وغيرها، ومن هنا فهو يسعى لحماية حياته عن طريق السرية المطلقة بما تراه أن يمشى فى الأسواق كسائر البشر، ولا يعرف مقره أحد إلا خاصة الخاصة! ومن المحقق أنه يتنكر فى أزياء متعددة، وفى أشكال كثيرة، وبالتالى فهو أشبه بإبرة فى قش! وقد يكون اليوم مختبئا فى الولايات المتحدة نفسها يرتدى (بنطلون جينز وقميص مشجر) وبالتالى فما ذنب الشعب الذى يعيش بين ظهرانيهم دون أن يراه!

وفى الوقت فإن الحرب التى سوف تعلنها أمريكا على أفغانستان سوف يكون لها ضحايا من المحاربين الأمريكيين وغيرهم من الحلفاء! وهو يعنى مضاعفة عدد ضحايا هجوم الثلاثاء الدامى على نيويورك وواشنطن وهو ما يعنى - بالمفهوم الإرهابى - نصرا جديدا يضاف لنصر الثلاثاء الأسود! فإذا كان الإرهابيون قد أرادوا قتل عشرة آلاف فسوف يضاف إليهم عدة ألوف أخرى من ضحايا الحرب!

والمحزن فى ذلك كله أن الإدارة الأمريكية قد صنعت من هذا الإرهابى، الذى عانت منه مصر وشعوب أخرى، بطلا! وجعلت منه قيمة دفعت حكومة طالبان إلى حمايته حتى ولو عرضت شعبها لخطر حرب تشنها عليه أكبر دولة فى العالم، كما دفعت المنطقة كلها لتغييرات سياسية قلبت كل شئ فيها!

وهكذا تصنع الإدارة الأمريكية من الإرهابيين أبطالا! فى الوقت الذى تحمى النظم الدكتاتورية فى العالم الثالث إذا كان فى وجودها مصلحة لأمريكا! والدليل على ذلك استمرار نظام صدام حسين عشر سنوات كاملة! مع ما هو معروف للعالم أجمع من أنه أكثر النظم الاستبدادية بطشا ودموية. فى الوقت الذى تضيف فيه القاذفات الأمريكية مزيدًا من معاناة الشعب العراقى!

لقد أبقت الإدارة الأمريكية نظام صدام حسين لتجعل من بقاء القوات الأمريكية فى الخليج ضرورة! ولم تدر أنها أعطت لأسامة بن لادن الفرصة ليكون بطلا لمعارضته الوجود العسكرى فى الخليج كما

جعلت من صدام حسين بطلا أيضا لنفس السبب وقد دفع ذلك الكثيرين من الزعماء العرب إلى التعليق على ذلك قائلين لقد حولت السياسات الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة أمثال ابن لادن وصدام حسين إلى أبطال، وقوضت صورة المعتدلين فى العالم العربى.

(٢٥)
الفائز الوحيد
فى هجوم الثلاثاء الدامى!

ربما كانت العملية الإرهابية التى وقعت فى نيويورك وواشنطن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر، أكبر العمليات الإرهابية التى شهدها التاريخ تكلفة! إنها تكلفة حرب كاملة بكل ما وقع فيها من ضحايا بشرية، وخسائر مادية!

فقد يدهش القارئ إذا عرف أن تكلفة إزالة أنقاض مبنى مركز التجارة العالمى فقط سوف تبلغ اثنى عشر مليارا من الدولارات!

فإذا أضيف إلى هذه التكلفة تكلفة الأصول التى دمرت، وعلى رأسها مبنى مركز التجارة العالمى ومبنى البنتاجون، فضلا عن تعويضات الضحايا والطائرات التى دمرت فى الهجوم وغيرها، فإن التكلفة سوف تصل إلى أرقام فلكية لم يشهد التاريخ لها مثيل! إنها تكاليف حرب كاملة خسرتها الولايات المتحدة الأمريكية!

من هنا تبدو الاستعدادات العسكرية التى تجريها الولايات المتحدة حاليا على مستوى العالم مثيرة للعجب! فلا يستطيع القارئ تصور مقدار ما تكلفه هذه الاستعدادات العسكرية الجبارة من نفقات هائلة، خصوصا إذا أضيف إليها خسائر الحرب، إذا نشبت بالفعل!

فإذا علم القارئ أن كل هذه الاستعدادات والإنفاقات العسكرية الفلكية هى من أجل اعتقال شخص واحد هو أسامة بن لادن. بدأ الشك يتسرب إلى نفسه!

فهل يستحق اعتقال شخص واحد كل هذه النفقات الفلكية؟ وما الذى يمكن أن تفعله الإدارة الأمريكية بأسامة بن لادن إذا تمكنت من اعتقاله؟ هل ستفعل شيئا أكثر من إعدامه؟

هل تسمح المدنية الحديثة بإخضاعه لعمليات التعذيب التى كانت تسمح بها ظروف العصور الوسطى؟!

فإذا كانت النتيجة هى إعدامه. أفلا تكون قد حققت له أمنية عاش لأجلها، وهى الشهادة؟

بل ألا تكون قد حققت له بطولة أسطورية فى العالم الإسلامى لم يشهدها التاريخ؟ فلم يسبق فى طول التاريخ البشرى وعرضه أن تكلفت حياة فرد مثل هذه التكلفة الباهظة التى تفوق الخيال؟

وتبلغ المفارقة قمتها إذا عرفنا أن حياة هذا الفرد فى نظر نفسه لا تساوى شيئا! فقد باعها لله منذ زمن طويل، واشترى حياة أفضل - فى نظره - وهى الحياة الأخرى!

وهو ما حدث لمن قاموا بالعمليات الانتحارية! فلم يطلبوا شيئا من الحياة الدنيا، وإنما كان طلبهم الوحيد الحياة الآخرة! وقد حصلوا

عليها بجدارة بمجرد ارتطام طائراتهم بمبنى مركز التجارة العالمى ومبنى البنتاجون؟

المشكلة بالنسبة للإدارة الأمريكية إن ما تسعى إليه انتقاما من مرتكبى هجوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وهو حياة هؤلاء الأفراد، قد سعوا إليه بأنفسهم منذ لحظة بدء عملياتهم؛ فقد كانوا أول من ضاعت حياتهم بإرادتهم! ومن هنا ضاعت لذة الانتقام! وفقد مغزاه! نعم فقد القصاص مغزاه، بعد أن تحول إلى مكافأة للجناة - حسب اعتقادهم - لأنه طريقهم إلى الجنة!

وهذا أمر محزن فحين يدفع الظلم الإنسان إلى الكفر بالحياة التى وهبها الله تعالى له لينعم بها، وحين يفضل عليها الآخرة، فنحن أمام خطأ جسيم يجب الكشف عنه وملاقاته! لأن الحياة والموت بيد الله وليست بيد الإنسان، فإذا انتزعها المرء فى يده، حدث خلل فى نظام الكون يجب التصدى له! فالإنسان أعجز من أن يقرر لنفسه متى يعيش ومتى يموت، ولكنه لا يفعل ذلك اختيارا، وإنما يفعله إجبارا! بمعنى أن هناك ظروفا معينة دفعته إلى هذا الإخلال بنظام الكون، وازدراء الحياة التى وهبها الله له، وتفضيل الحياة الأخرى عليها!

وعندئذ فعلينا أن نحدد المسئول!

البديهى أن المسئول فى هذه الحالة هو الجانب الذى تعرض للاعتداء! والذى اعتقد المعتدى أنه يستحق الاعتداء! ولست فى مجال

الحكم بمسئولية الولايات المتحدة عن الاعتداء الجسيم الذى وقع عليها، ولكن نظرا لأنها الخاسرة الرئيسية فى هذه العملية، والمعتدون فائزون بالجنة - حسب اعتقادهم - فربما كان على الإدارة الأمريكية أن تعيد النظر فى سياساتها الخارجية حتى لا تتيح لمعتدين آخرين الفرصة للفوز بالجنة!

(٢٦)
حول مأساة الطائرة الأمريكية

حزنت كثيرا لحادث الطائرة الأمريكية التى سقطت فى حى «توينز» بنيويورك، وعلى متنها ٢٦٠ راكبا، وماترتب على ذلك من سقوط الضحايا من سكان الحى الأمريكى. وتذكرت الطائرة المصرية التى سقطت بالقرب من الشاطئ الأمريكى، وراح ضحيتها عدد ١٦٠ مصريا، منهم ثلاثون عسكريا برتب كبيرة.

وأعتقد أن مهمة الإدارة الأمريكية فى الكشف عن أسباب الحادث سوف تكون مهمة عسيرة، بسبب هجوم الحادى عشر من سبتمبر الارهابى، الذى كان من الطبيعى أن يلقى بظلاله الكئيبة على الحادث الجديد، فسوف يكون على الإدارة الأمريكية أن تحدد بدقة ما إذا كان الحادث الجديد إرهابيا أو أنه كان قضاء وقدرا، أو أنه كان حادث كحادث الطائرة المصرية الذى وصفته الإدارة الأمريكية بأنه كان حادثا انتحاريا، استنادا إلى قولة البطوطى «توكلت على الله»!

لست أعتقد أن الادارة الأمريكية سوف تستغرق عامًا أو أكثر فى الكشف عن الحادث الجديد كما استغرقت فى كشف غموض حادث

الطائرة المصرية المنكوبة ! بل لعلها سارعت بتبرئة الإرهاب من هذا الحادث - على غير العادة - حتى لايفقد الشعب الأمريكى الثقة فى قدرة حكومته على حمايته لوفى الوقت نفسه لايمكن أن تعتبر الحادث حادثا انتحاريا، لأن قائد الطائرة المنكوبة أمريكى وليس مصريا.

والمهم أن تكشف الإدارة الأمريكية عن أسرار هذا الحادث المروع، حتى لايدخل التاريخ باعتباره حادثا غامضا كحادث الطائرة المصرية، أو كأحداث يوم الحادى عشر من سبتمبر!

تشير الأنباء إلى أن عدد الذين يشككون فى ارتكاب أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة هجوم الحادى عشر من سبتمبر، يتزايد حتى داخل الشعب الأمريكى ! وهناك كتاب أمريكيون أعلنوا بالفعل تشككهم فى ذلك. بل هناك كتاب أمريكيون أخذوا يتشككون فى معنى الإرهاب الذى احتكرت الادارة الأمريكية تعريفه وشنت الحرب ضد الأبرياء فى أفغانستان بناء على هذا التعريف !

والمهم هو أنه يمكن اعتبار الادارة الأمريكية الحالية سيئة الحظ لحد كبير، بقدر ماكان عهد الرئيس السابق كلينتون حسن الحظ لحد كبير !

ففى حين كان لهذا الرئيس السابق كلينتون عهد رخاء لم تشهده أمريكا . كان عهد الرئيس الحالى بوش يعتبر النقيض، فقد ضربت أحداث الحادى عشر من سبتمبر الاقتصاد الأمريكى، وضربت معه اقتصاد العديد من دول العالم !

ومن هنا فإن مهمة إدارة الرئيس بوش تبدو عسيرة للغاية، إذ عليها أن تعيد للاقتصاد الأمريكى عهده الزاهر أيام كلينتون، أو تدفع الثمن من ثقة الشعب الأمريكى ! وعلينا فى هذا الصدد أن نذكر أن الشعب الأمريكى ليس من شعوب العالم الثالث ! فهو قادر على ما لا تستطيعه هذه الشعوب من التغيير والتبديل !

(٢٧)
ولماذا لم تسلم أمريكا الإرهابيين المصريين إلى مصر؟

ربما كانت مأساة الإدارة الأمريكية الحالية الحقيقية، هى أن أحدا فى العالم لايصدق زعمها أن اسامة بن لادن هو مدبر ومرتكب جريمة يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ! لسبب بسيط هو أن الجريمة التى ارتكبت كانت من ناحية التخطيط والتدبير والتنفيذ أعلى مستوى بكثير من أن يدبرها إرهابى مثل أسامة بن لادن، مازال إلى اليوم يصور وهو يمتطى جواده ويحمل بندقيته !

لم أقابل إلى اليوم شخصا عربيا كان أو أجنبيا ـ مدنيا كان أو عسكريا ـ يؤمن بأن أسامة بن لادن مرتكب جريمة الحادى عشر من سبتمبر ! فالجريمة بالشكل الذى تمت به أشبه بخطة حربية مدروسة خطط لها عسكريون على درجة عالية من العلم والكفاءة والخبرة ! وقد قاموا بدراسة كل صغيرة وكبيرة فى عمليتهم، سواء من ناحية زوايا الهجوم، ونقاط القوة والضعف فى الأبنية التى هاجموها، وغير ذلك مما لا يمكن أن يقوم به إلا من هم على دراية بعملهم من ناحية العلم والخبرة وغيرها ! ثم إن اختيار رموز القوة المالية والعسكرية للولايات

المتحدة يوضح درجة الثقافة والعلم العالمية التى تمتع بها المهاجمون، وهو ما (يتصور) إن لم يكن يستحيل - نسبته إلى أسامة بن لادن وتنظيمه !

وإذا كانت الإدارة الأمريكية قد تسرعت بنسبة هذه الجريمة لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، فإنها تكون بذلك قد أخفت إلى الأبد مرتكبى الجريمة الحقيقيين ! فلو كشفت التحقيقات الجارية حاليا عن براءة اسامة بن لادن، لما أعلنت ذلك الإدارة الأمريكية بعد كل ما اتخذت من إجراءات عسكرية!

ومع ذلك فمن الغريب حقا أن الشعب الأفغانى الذى لا مصلحة له بالجريمة ، هو الذى يدفع اليوم ثمن جريمة الحادى عشر من سبتمبر. ولا يدفع دفع الثمن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة !

ومن هنا فالكثيرون فى العالم اليوم يتساءلون فى غضب : وماذنب الشعب الأفغانى المسكين ليتعرض لهذا الانتقام الرهيب ؟ وأى منطق يقود الادارة الأمريكية إلى هذا الانتقام الجنونى الذى يصيب الأبرياء ويخطئ المذنبين الحقيقيين؟ وإذا كانت الادارة الأمريكية تؤمن حقا بأن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة هم وراء جريمة الحادى عشر من سبتمبر، ألم يكن فى وسع المخابرات الأمريكية (س أى ايه) تتبعه واعتقاله فى أى مكان على ظهر الأرض ؟ ولماذا لم تستعن بحليفتها إسرائيل فى هذه العملية وهى تتقنها وتنفذها كل يوم فى الأراضى

الفلسطينية ؟ وقد تعقبت من قبل العسكريين والسياسيين النازيين وتمكنت منهم حتى النهاية؟

ثم إن حكومة طالبان لم ترفض تسليم أسامة بن لادن للإدارة الأمريكية وإنما اشترطت فقط تسليمها الأدلة على ارتكابه هذه الجريمة. وهو حق مشروع لها لاينازعها فيه أحد.

بل إنه الحجة التى كانت تواجه بها الحكومة الأمريكية والحكومة البريطانية مصر كلما طالبت بتسليمها الارهابيين المقيمين فى انجلترا وأمريكا ! على الرغم من أن بعض هؤلاء الارهابيين صدرت ضدهم أحكام إدانة ! ومع ذلك رفضت الإدارتان الأمريكية والانجليزية تسليم هؤلاء الإرهابيين إلى مصر !

ومعنى ذلك أن حكومة طالبان لم تفعل شيئا أكثر مما تفعله الإدارة الأمريكية عند مطالبتها بتسليم الإرهابيين المقيمين على أرضها.

ولكن هذا العذر وحده كان سببا لأن يتعرض الشعب الأفغانى البرىء للعقاب! بل وتتعرض معه شعوب العالم اليوم للعقاب فى شكل كساد اقتصادى رهيب سوف تكون له آثاره الوخيمة على مستقبل العالم !

(٢٨)
الحرب ضد الأشباح

هناك أزمة ثقة بين شعوب العالم والإدارة الأمريكية حول العمليات العسكرية التى تحدث فى أفغانستان فالجميع يتساءلون ! هل هؤلاء الذين تقصفهم الطائرات الأمريكية كل يوم هم الذين ارتكبوا جريمة الحادى عشر من سبتمبر ؟!

هذه هى أزمة الثقة الحقيقة فيما تفعله الادارة الأمريكية .. فالجميع يعرفون - فيما عدا الإدارة الأمريكية - بأن الشعب الأفغانى لاعلم له بما جرى يوم الثلاثاء الأسود، وليس متورطا فيه بحال من الأحوال، وبالتالى فإن ماتفعله الإدارة الأمريكية لا يعدو معاقبة للشعب الأفغانى بذنب لم يرتكبه وإذا كان هذا هو العدل الأمريكى، فما هو الفرق بين الادارة الأمريكية والعصابة التى ارتكبت جريمة يوم الثلاثاء الأسود؟

إن الذين ارتكبوا جريمة الحادى عشر من سبتمبر كانوا يعتقدون أن لهم قضية عادلة يحاربون من أجلها، وهى قضية محاربة الظلم الأمريكى المستبد بالعالم وبالفلسطينيين، والذى يساند النظم

الدكتاتورية ويضرب الشعوب الواقعة تحت ظلم هذا التقسيم، ويسلح دولة مغتصبة لأرض فلسطين ليكون لها التفوق العسكرى على جميع الدول العربية. وبالتالى فهم كانوا يطبقون عدالتهم بدفن أكثر من خمسة آلاف أمريكى تحت أنقاض مبنى مركز التجارة العالمى.

وقد كانت شعوب العالم، التى ـ غضبت لما وقع على أبرياء نيويورك ـ متشوقة بالفعل لرؤية مرتكبى الحادث يعتقلون، ويعاقبون بأشد العقاب، خصوصا بعد ماترتب على تلك الجريمة الشنعاء من دمار اقتصادى فى العالم لم يقتصر أثره على أمريكا، بل على بلد مثل مصر تبعد عنها عشرات الألوف من الكيلو مترات. من كساد السياحة وتشريد العاملين فيها، وغير ذلك من الآثار الاقتصادية الوخيمة.

ولكن شعوب العالم ـ وشعبنا على الأخص ـ مازال حتى اليوم عاجزا عن فهم ما يحدث فى أفغانستان ! فحتى إذا كان زعم الادارة الأمريكية أن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة هم الذين ارتكبوا الجريمة فلماذا لم يقع عليهم العقاب بدلا من الشعب الأفغانى الذى يتلقى العقاب حتى اليوم !

بل أين هم ؟ هل هم من قندهار ؟ أوفى كابول ؟ أو فى جبال ووديان وكهوف أفغانستان ؟

إن أحدًا لم ير أحدا منهم إلى اليوم، اللهم إلا فيما سرت من إشاعة بأن أسامة بن لادن شوهد فى قندهار ! وأغلب الظن أنها إشاعة مقصودة ومسربة للتعمية !

أليس معنى ذلك أن الادارة الأمريكية تحارب أشباحا لا وجود لهم؟ وإذا كان لهم وجود فأين هم ؟ إن المخابرات الأمريكية تسمع دبة النملة كما قيل لنا على مدى نصف قرن، وهاهى ذى الأفلام البوليسية قد أكدت ذلك بعشرات الألوف من الأفلام. فكيف تعجز استخبارات أمريكا وانجلترا وفرنسا وجميع الدول المتحالفة عن العثور على أماكن مرتكبى جريمة يوم الثلاثاء الأسود؟

وكيف تتجرأ الإدارة الأمريكية على خداع شعوب العالم واتهامها بأنها تحارب الإرهاب وهى لم تحارب حتى اليوم سوى الأبرياء ؟ أنه إذا لم تقدم الادارة الأمريكية لشعوب العالم أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة للمحاكمة وتثبت عليهم ارتكاب جريمة يوم الثلاثاء الدامى، فسوف تدخل الحرب التى تجرى اليوم فى أفغانستان التاريخ بأنها كانت حربا ضد الأشباح !

(٢٩)

أفغانستان وفوائد سياسية «فرق تسد»

لست أدرى هل هى طبيعة الاستعمار الحديث، أو أن انجلترا بالذات هى التى وضعت المبدأ الاستعمارى المعروف بـ «فرق تسد» ، ولكن مايحدث فى أفغانستان يوضح أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أكبر الدول التى تستفيد منه اليوم فى حربها ضد أفغانستان .

فكما يتوقع الكثيرون الذين يعرفون طبيعة الاستعمار، فإن الاعتماد الأساسى للادارة الأمريكية فى حربها ضد الأفغانيين كان على الأفغانيين أنفسهم - أى على على قوات التحالف الشمالى، المكونة من مقاتلين أفغانيين ! وليس على مقاتلين أمريكيين.

وهو أمر ليس جديدا، فمن يتابع الأحداث العالمية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى اليوم، لن يرى حروبا أوروبية كتلك التى جرت على مدى خمسة قرون - من القرن السادس عشر حتى عام ١٩٤٥ - وهى أواخر حرب عالمية أوروبية، وإنما سيرى حروبا فيما عرف باسم العالم الثالث. لقد صدرت أوروبا الحروب إلى شعوب العالم الثالث، واعتمدت على الحروب الأهلية بين هذه الشعوب ، سواء فى آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية.

وليس خافيا أنها تركت شعوب العالم الثالث يقتل بعضهم بعضا، ويستنزفون ثرواتهم فى هذه الحروب، وأخذت تصدر لهم السلاح الذى يقتتلون به.

وعلى سبيل المثال، وعلى مستوى منطقة الشرق الأوسط، فإن أطول حرب شهدتها المنطقة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت هى الحرب بين العراق وإيران - التى استمرت ثمانى سنوات، أكلت الحرث والنسل، ونقلت الاقتصاد القوى من حالة الكساد والتضخم إلى حالة الرفاهية والرخاء !

ولم تكد تنتهى الحرب العراقية الإيرانية، حتى كانت الولايات المتحدة تعطى الضوء الأخضر لصدام حسين للقيام بمغامرة احتلال الكويت تحت حجة أنها أرض عراقية، وترتب على هذه المغامرة حرب شبه عالمية استفادت منها الدول الغربية فى تطوير أسلحتها، وبيع السلاح. وكانت الولايات المتحدة بعدها حريصة على بقاء النظام العراقى لارهاب الكويت ودول الخليج البترولية، فتبقى قواتهما فى المنطقة لحماية هذه الدول من غزو عراقى محتمل.

وفى كل أنحاء العالم سوف ترى شعوب العالم الثالث تقتتل فيما بينها - سواء فى شكل حرب بين كل دولة وجارتها - أو فى شكل حروب أهلية.

وعندما شنت الولايات المتحدة الحرب على أفغانستان تحت اسم محاربة الإرهاب، كان معروفًا أن الجنود الأمريكيين لن يحاربوا فى

هذه الحـرب، ولكن الذيـن سـوف يحـاربون الأفـغـانيين هم الأفـغـانيـون أنفسهم، فشعوب العالم الثالث، بفضل سياسة «فرق تسد» هى أشرس وأكثر ضراوة فى محاربة بعضها البعض من الاستعماريين أنفسهم.

ومن هنا كانت قوات التحالف الشمالى الأفغانية هى المرشحة منذ البداية لهذا الهجوم الذى تم اليوم. وقد تكون هى الأقدر على العثور على أسامة بن لادن والقضاء على تنظيم القاعدة !

(٣٠)
هـل سقوط طالبـان يعنـى القضاء على الارهـاب؟

ربما كان أصعب امتحان للإدارة الأمريكية ولمصداقيتها لدى الرأى العام العالمى منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، هو النتيجة التى سوف تسفر عنها الحرب التى شنتها على أفغانستان !

ولم تذكر الادارة الأمريكية فى أى بيان لها أنها أعلنت الحرب على الشعب الأفغانى، وإنما قالت إنها ضد الارهاب ! حتى أصبح الشعب الأفغانى مرادفا للارهاب ! كذلك لم تعلن الادارة الأمريكية فى أى بيان لها أن حكومة طالبان هى التى ارتكبت جرائم يوم الثلاثاء الأسود، وإنما كان العذر التى قدمته أن حكومة طالبان تحمى الارهاب - وتعنى به أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة !

ولكن على مدى شهر كامل من القصف الجوى بأحدث الطائرات الحربية وأشد القنابل والصواريخ فتكا، لم نسمع عن إصابة أسامة بن لادن أو تنظيم القاعدة، وإنما كانت الإصابات على الدوام تصيب الشعب الأفغانى البرىء، الذى لاصلة له بهجوم يوم الحادى عشر من سبتمبر !

ومن هنا لم يصدق أحد في العالم الثالث، وفي كثير من دوائر العالم الغربي، أن الحرب التي تخوضها الولايات المتحدة ضد الشعب الأفغاني هي حرب ضد الارهاب، ولذلك كان التعبير الذي أطلقته القنوات الفضائية والإذاعات عن هذه الحرب ضد أفغانستان هو تعبير: «الحرب ضد ما تسميه الإدارة الأمريكية بالارهاب» !

وهو أمر طبيعي بعد أن احتكرت الادارة الأمريكية تعريف «الارهاب» وسارعت باتخاذ الإجراءات الحربية وفقا للمفهوم الذي حددته للإرهاب! فقد أذعن العالم للولايات المتحدة بحكم القوة القاهرة، ولكنه لم يخدع نفسه إلى حد تصديق أن الجماهير الأفغانية التي تعيش حياة العصور الوسطى، هي الإرهاب الذي تعنيه الادارة الأمريكية !

وقد زاد من أزمة تصديق الإدارة الأمريكية، ظهور مرض الجمرة الخبيثة في أعقاب هجوم الحادي عشر من سبتمبر ! وقد وصفته الادارة الأمريكية ـ بحق في هذه المرة ـ بأنه عمل ارهابي ! وكان من المنطقي أن يكون هذا العمل من تدبير الجهة التي نفذت هجوم الحادي عشر من سبتمبر، ولكن الادارة الأمريكية لم تملك إلا أن تعترف بالحقيقة، فأكدت بأن هذا العمل هو من داخل الولايات المتحدة وليس من الخارج !

ولم يستطع أحد أن يفهم هذا الكلام ! ووقف العالم حائرا أمام هذا اللغز : هل هناك تنظيمان ارتكبا تلك الجرائم؟ أحدهما التنظيم الذي ارتكبه حادث الحادي عشر من سبتمبر، والثاني الذي

ارتكب حوادث الجمرة الخبيثة، أو أن هناك تنظيما ارهابيا واحدا ارتكب الجريمتين ؟

وإذا كان هناك تنظيمان، فما هى الصدفة العجيبة التى جمعت بينهما فى وقت واحد ليرتكبا جريمتين متعاقبتين لايفصل بينهما سوى أيام ؟

وإذا كنا أمام تنظيم واحد، فما هو هذا التنظيم ؟ هل هو التنظيم الذى ارتكب جريمة الحادى عشر من سبتمبر - وهو تنظيم من خارج الولايات المتحدة يقيم فى أفغانستان ؟ أو هو التنظيم الذى يرتكب جرائم نشر الجمرة الخبيثة؟ وهو تنظيم من داخل الولايات المتحدة - كما أعلنت الإدارة الأمريكية نفسها ؟!

واضح أن السبب فى هذا اللغز، هو تسرع الادارة الأمريكية باتهام العرب والمسلمين، وعلى رأسهم أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، من غير أن تجرى أى تحقيق، ومن غير أن تقدم أية براهين أو أدلة ومسارعتها بشن حرب ضد أفغانستان بحجة القضاء على الارهاب !

ولكن أى ارهاب تشن عليه أمريكا الحرب، هل هو ارهاب تفجيرات الحادى عشر من سبتمبر، أو هو ارهاب الجمرة الخبيثة ؟

واضح اليوم، بعد انتصارات قوات التحالف الشمالى واحتلال كابول، أن كل ماحققته الحرب الأمريكية الانجليزية ضد أفغانستان، هو اسقاط حكومة طالبان! ولكن طالبان - باعتراف الادارة الأمريكية

ذاتها - ليست هى الارهاب! وإنما هى الحكومة التى تأوى الارهاب ومن هنا إذا لم تقدم لنا الادارة الأمريكية اسامة بن لادن، وتنظيم القاعدة، كثمرة لحربها الضروس ضد أفغانستان، فانها لاتكون قد حققت أى انتصار، لأنها لم تحقق الهدف الذى أعلنته من الحرب، وهو القضاء على الارهاب، ويكون من حق الشعب الأمريكى فى هذه الحالة إلا يشعر بالاطمئنان، لأن الارهاب سوف يتعقبه فى المستقبل، انتقاما لتخريب أفغانستان، وقتل الألوف من الضحايا الأبرياء، وتشريد مئات الألوف ممن لاصلة لهم بهجوم الحادى عشر من سبتمبر. وستدخل الحرب الأمريكية الانجليزية ضد أفغانستان التاريخ باعتبارها أفشل الحروب فى التاريخ!

(٣١)
الشعب الأفغانى من الرمضاء إلى النار!

لا أستطيع أن أخفى شماتتى فى «طالبان» ! على الرغم من حزنى لسقوطها على يد التدخل الأمريكى، وإن كان يبدو أن هذه كانت الطريقة الوحيدة لسقوط هذا النظام المستبد الذى يتستر بعباءة الإسلام !

وأخشى ما أخشاه أن تشجع هذه النتيجة شعوب العالم الثالث، الخاضعة لنظم استبدادية لا تستطيع التخلص منها، على أن تطلب من الولايات المتحدة تخليصها من هذه النظم كما خلصت الشعب الأفغانى من حكم طالبان! فتكون كالمستجير من الرمضاء بالنار وتخلصت من استبداد الحكام لتقع فى قبضة الاستعمار الجديد !

وعلى سبيل المثال أن يطلب الشعب العراقى من الولايات المتحدة تخليصه من نظام صدام حسين الدموى الذى ألحق الكوارث به وبالأمة العربية !

وإن كان من المؤكد أن الولايات المتحدة سوف ترفض هذا الطلب، حتى لاتقضى على النظام الذى يوفر لها الذريعة لبقاء قواتها فى

منطقة الخليج لحماية شعوبه من غزو عراقى كالذى اجتاح الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ ! فالولايات المتحدة تفضل الطريقة الحالية التى تتبعها، وهى الاغارة بطائراتها على الأبرياء فى العراق، وتجريد النظام العراقى من الأسلحة غير التقليدية، مع عدم المساس بوجود النظام الذى يركز على قلب الشعب العراقى! وكذلك تفعل مع النظم الاستبدادية الأخرى، فهى تضرب الشعوب وتحمى النظم !

ولربما كأن من الخير أن ينبثق عن أزمة أفغانستان، وماترتب عليها من سقوط حكم العصور الوسطى المتستر برداء الإسلام، نظام عالمى يحمى الشعوب الخاضعة لنظم استبدادية من استبداد حكامها، ويحررها من قبضتها الباغية، ولو بالقوة المسلحة - كما حدث فى أفغانستان !

وإن كان هذا يتطلب تعديل القانون الدولى، وهو الذى قامت الولايات المتحدة بانتهاكه بتدخلها فى أفغانستان تحت ذريعة محاربة الارهاب، فيطبق هذا التعديل الارهاب على النظم الاستبدادية، التى تمارس الارهاب على شعوبها وتخضعها لسلطتها عشرات السنين، تبتز ثرواتها، وتبددها فى مغامرات عسكرية فاشلة تدفع ثمنها الشعوب ! كذلك ينطبق على الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين الذى ينكل بالشعب!

والمهم هو الدرس الذى تستخلصه الشعوب العربية والاسلامية من تجربة حكم طالبان، وهو أن هذه النظم التى تطلق على نفسها أسماء وألقابا إسلامية، وهى أبعد ماتكون عن جوهر الدين الإسلامى

الحنيف، وأنها تعمل لحساب نفسها ولاتعمل لحساب الإسلام، وقادتها هم أجهل مايكونون بحقيقة الإسلام، ولكنهم يأخذون بقشور الدين، ومتعصبون.

وربما كانت طالبان أكثرهم تعصبا، عندما قامت بنسف تماثيل بوذا، تحت الاعتقاد بأنها أصنام ! ناسين أنه لم يعد أحد يعبد الأصنام اليوم، وإنما هذه التماثيل تراث حضارى أصبح ملكا للعالم أجمع كما نسوا أن الدين الإسلامى فى جوهره هو معاملة وسلوك، وليس لحى ونقابا ! كما نسوا أن القرآن الكريم يأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يأمر بالعنف والقسوة وقهر الشعوب !

وقد أثبت قادة طالبان حماقتهم وجهلهم بالعمل السياسى، وعندما أصروا على حماية الإرهابى أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة رغم ما ثبت من عجزهم عن حماية أنفسهم! فقد سقط حكمهم سريعا وفروا بليل، تاركين الشعب الأفغانى تتمزقه القوى السياسية الأخرى!

فكم أضر هذا الحكم بالشعب الأفغانى، بل كم أضر هذا الحكم بالعالم الإسلامى !

(٣٢)

درس فى الحساب الإلهى !

يقول الحديث الشريف : «إذا غضب الله على امرىء رزقه من حرام، وإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه» !

ولكن الكثيرون يحسدون صاحب المال الحرام، ويتصورون النقمة نعمة! والغضب الإلهى رضاء ! ولو أنهم انتظروا حتى تتكشف الأمور، لأدركوا أن الله يمهل ولايهمل! وأن حسابه قد يتأخر، ولكنه آت لاريب فيه !

ولدينا نماذج لاحصر لها لأناس كانوا فى عزة ومنعة بفضل مالهم الحرام، إذا أحسوا بالاطمئنان وهمهم القدر وأصابهم الخطر من حيث لايحتسبون، وإذا بهم يهبطون من حال وسط فضيحة مجلجلة، فيندمون، ولكن حيث لاينفع الندم!

والمشكلة كلها تتمثل فى أن القوم ينسون تماما أن الحياة الدنيا هى حياة قصيرة جدا مهما طال الأجل، وأنها مجرد اختبار لا أكثر من ذلك ولا أقل، يؤهل صاحبه لنوع الحياة الباقية الخالدة، فإما أن يذهب إلى جهنم، وإما أن يذهب إلى الجنة.

كما ينسون أن هناك إلها فى الكون يراقبهم ليحاسبهم، وإذا غفلوا عنه فإنه لايغفل عنهم وقد جعل الله تعالى فى نفس كل إنسان حكومة تحصى كل شىء، وتسجله فى «كتاب حفيظ» ! وقد شرح هذه الحكومة فى عبارات بليغة وقاطعة فى قوله تعالى «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه! ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»! وأوضح أن هناك فى كل نفس بشرية ملكان يتلقيان كل ما يصدر عن المرء من قول أو فعل لتسجيله فى الكتاب الحفيظ، فيقول الله تعالى : «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» فإذا نفخ فى الصور (يوم القيامة) ، «جاءت كل نفس معها سائق وشهيد» أى ملك يسوقها والآخر يشهد عليها. ثم يلقى فى جهنم من كان فى ضلال بعيد ! ويقول المولى تعالى : «وما أنا بظلام للعبيد»!

لامفر - إذن - من الحساب والعقاب، ولكن الكثيرين فى بلدنا لايعرفون غير حساب الأرباح والخسائر الدنيوية، و «حساب ماينهبون من أموال الشعب! ولاترهبهم المحاكمات شبه اليومية، والفضائح المدوية والسقوط من حالق!

فمن المحقق مايحدث حاليا فى مصر من نصب واحتيال على البنوك، وسرقات بمئات الملايين، لم يحدث فى مصر إلا فى القرن التاسع عشر فى عهد سعيد واسماعيل على يد المرابين والأجانب من أصحاب المصارف والبنوك، ولكن فى شكل آخر، هو شكل الفوائد الربوية، التى وصلت بالدين فى عام ١٨٧٦ إلى ٥٢ مليون جنيه، أى

مـايزيد علـى كل مـاتم اقتـراضـه ودخل الخـزانة المصـرية بـ ٢٠ مليـون جنيه !!!

ولكن الشكل الحـالى لنهب البنوك يتـجـاوز كل الحـدود المتـعـارف عليها، إنه ليس فى شكل فوائد ربوية وفوائد غير ربوية، وإنما هو شكل الامتناع عن الدفع أصلا، ولتضرب الدولة رأسها عرض الحائط !

(٣٣)
إنه چيمس بوند وليس بن لادن

الأمر الذى يحزننى كثيرا كمؤرخ - هو أن جيلى، وربما عدد من الأجيال القادمة، لن يعرف سر هجوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على مبنى مركز التجارة العالمى ومبنى البنتاجون ! ولن يعرف مرتكبيه!

فحتى لوعرفت أجهزة الأمن فى الولايات المتحدة من هم مرتكبو هذا الهجوم، فلن تسمح لهم الادارة الأمريكية باذاعته، لسبب بسيط هو أنه سوف يكشف براءة أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة من ارتكابه! وسوف يكشف أن كل ما اتخذته الادارة الأمريكية من إجراءات كنتيجة لهذا الاتهام، والتى تمثلت بالدرجة الأولى فى الحرب التى شنتها على الشعب الأفغانى الفقير، إنما كان تسرعا وخطأ كبيرا !

وليس فى ذلك دفاعا عن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، وإنما لأن ماحدث كان فوق مستوى تفكير أو تدبير ابن لادن وتنظيم القاعدة! بل إنه يرقى إلى مايفوق ما قد يفعله چيمس بوند فى الأفلام البوليسية التى تقدمها السينما الأمريكية، وكانت سببا فى ارتقاء مستوى الجريمة فى العالم !

إن ماجرى يوم الحادى عشر من سبتمبر فى نيويورك وواشنطن لاتستطيع أن تقدم عليه وتنفذه إلا عقلية كتلك العقلية التى ابتدعت الأفلام البوليسية الخارقة التى قدمتها السينما الأمريكية وأخرجت فيلم يوم الاستقلال، ثم الأفلام الخيالية!

وبمعنى آخر أن بصمة العقلية الأمريكية المبدعة ظاهرة وواضحة فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر ! وقد تكون بصمة عقلية مبدعة أخرى فى الدول التى وصلت إلى حد عال جدا من التقدم العلمى والتكنولوجى. ولكنها لايمكن أن تكون بصمة إرهابى مثل أسامة ابن لادن وتنظيم القاعدة الذى يعيش فى كهوف وجبال أفغانستان !

فلم يسبق لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة أن قدما لنا عملا ابداعيا فى مجال الجريمة والارهاب، يمكن أن يدفع إلى الظن بأنه ارتكب أحداث الحادى عشر من سبتمبر. فجميع الجرائم التى ارتكبها تقع فى اطار الجرائم العادية التى يمكن لأى تنظيم ارهابى أن يفعلها، وعلى رأسها تفجير السفارة الأمريكية فى كينيا وتنزانيا الذى هز العالم.

ولكن ماحدث يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كان شيئا آخر، كان شيئا خارقا يتطلب علما وخبرة وعقليات عسكرية فى مجال الطيران وصناعة الطيران. وهندسة البناء، وسبقته دراسة شاملة لمواضع الضعف فى مبنى مركز التجارة العالمى، التى يمكن أن تسقط هذا البناء الأسطورة الشامخ بمجرد اصطدام طائرة مدنية به !

هذا مشروع عسكرى وعملية حربية على أعلى مستوى، يستحيل أن تفكر فيه وتنفذه عقلية تعيش فى كهوف أفغانستان . إنها عقلية إجرامية راقية جدا ومتعلمة جدا، كتلك العقليات التى تقدمها لنا السينما الأمريكية وتبهرنا بها على رأسها عقلية چيمس بوند !

إنه چيمس بوند آخر قد يكون أمريكيا أو يابانيا أو ألمانيا ! هو الذى ارتكب هجوم يوم الحادى عشر من سبتمبر! ومن سوء الحظ أن جيلى والأجيال التالية لن تعرفه، ولكن يكشف التاريخ عنه الستار فى يوم من أيام الزمن البعيد !

(٣٤)
العرب ودبلوماسية ساعى البريد!

إذا كانت هناك حقيقة واضحة فى الصراع العربى الإسرائيلى، فهى أن الإعلام الإسرائيلى يسبق الإعلام العربى بمراحل، والتأثير الإسرائيلى على القرار الأمريكى يفوق التأثير العربى بمراحل أيضا، وأما بالنسبة للكونجرس الأمريكى فيمكن القول بأنه لايوجد أى تأثير عربى على الإطلاق، وإنما التأثير الوحيد الموجود هو التأثير الإسرائيلى!

فمنذ أيام قلائل، وعشية خطاب كولين باول يوم الاثنين ١٩ نوفمبر من هذا العام أمام طلبة جامعة لويز فيل فى ولاية كنتاكى، سارع ٨٩ من أعضاء الكونجرس الأمريكى بإرسال رسالة إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش تؤيد عدم مقابلة الرئيس الأمريكى لياسر عرفات، وطالبه بعدم معارضة الإجراءات القمعية التى تتخذها حكومة شارون ضد ما اسمته بالإرهاب الفلسطينى!

وفى الوقت نفسه لم نر عضوا واحدا من أعضاء الكونجرس يتحرك تحركا مضادا للتحرك الإسرائيلى!

والسبب فى ذلك واضح، وهو أنه لايوجد جهد عربى لتحريك مثل هذا العضو، فى حين يوجد جهد إسرائيلى لتحريك ٨٩ سيناتور لإرسال الرسالة المذكورة إلى الرئيس الأمريكى ! فلقد أتيحت لى الفرصة لمعرفة كيف تتحرك الآلة الإعلامية الإسرائيلية داخل الكونجرس الأمريكى، وكيف تمارس الدبلوماسية الإسرائيلية تأثيرها على الكونجرس، وذلك أثناء حديث درا بينى وبين دبلوماسى إسرائيلى فى أحد المؤتمرات حول القضية الفلسطينية، التى حضرها مشتركون فلسطينيون وإسرائيليون. لتوعيتهم بأهمية القرار الإسرائيلى، لكى يقف الموقف الذى يتفق مع مصلحتها.

وبطبيعة الحال فإن هذا الدبلوماسى لايستطيع الاتصال بأعضاء الكونجرس إلا إذا كانت صلته بكل منهم صلة وثيقة تمكنه من هذا الاتصال !

والسؤال الآن كم من الدبلوماسيين العرب فى واشنطن عنى بإقامة اتصالات مع أعضاء الكونجرس على هذا النحو لخدمة المصالح العربية ومصلحة القضية الفلسطينية ؟

إن الدبلوماسيين العرب فى واشنطن يعملون لمصالحهم الخاصة، ويتمتعون بالوجود فى الولايات المتحدة ومهمتهم هناك لاتعدو مهمة ساعى البريد ! فهم يتلقون التعليمات من حكوماتهم ويوصلونها للخارجية الأمريكية، ولاشىء أكثر من ذلك !

ولكن الدبلوماسيين الإسرائيليين لايفصلون بين الدبلوماسية والسياسة! فهم دبلوماسيون وثلثهم فى الوقت نفسه سياسيون يعملون من أجل قضية وطنية ويحاربون لنصرتها، لأنهم يعلمون أنه إذا انتصر العرب انتهت إسرائيل من الوجود.

ومن هنا فإن الدبلوماسية العربية يجب أن تتغير، وتتحول عقلية الدبلوماسيين العرب من عقلية سعاة البريد إلى عقلية أصحاب قضية يحاربون من أجلها بكل الطرق وما يملكون من قدرة !

(٣٥)
ولا دمعة تذرف على تنظيم القاعدة الإرهابى !

لا أشعر بأى تعاطف مع مقاتلى تنظيم القاعدة أو أسامة بن لادن فى مصيرهم الأخير ! فهم فى نظرى ليسوا مناضلين وإنما هم فوضويون، لا هدف محدد لهم، ولا رسالة يريدون تحقيقها تفيد الأمة الإسلامية، وإنما هم متخبطون ومضللون. وقد كان ضررهم على الإسلام وعلى الشعوب الإسلامية محققا، وكانت نزعة الإجرام فى نفوسهم أكبر بكثير من نزعة النضالى؟ ولذلك فلم يسفر عملهم عن خير للأمة الإسلامية، وإنما أسفر عن شر !

ولو تحقق أنهم كانوا مدبرى هجوم يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على نيويورك وواشنطن، كان هذا الهجوم لم يحقق أى نفع للأمة الإسلامية، وإنما حقق أضرارا بالغة .. لقد حقق أضرارا بالغة للعرب والمسلمين فى الولايات المتحدة، وحقق أضرارًا أكبر للشعب الأفغانى، الذى دمرت مرافقه وقتل الأبرياء من أبنائه بسبب إيوائه تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن.

والأهم من ذلك أنه أطلق طاقة الشر فى القوة الأمريكية، فهى اليوم تريد أن تنتقم من العالم أجمع لما أصابها فى نيويورك وواشنطن!

لأنهـا تعلم أن مـعظم شـعـوب العـالم اسـتـقـبلت تفـجـيـرات ذلك اليـوم المشهود بالشـماتة والتشفى لما تسببـه السياسـة الأمـريكية المتحيـزة من أضرار بشعوب العالم الثالث والثانى والأول على السواء !

لقـد كانت أعـمـال تنظيم القـاعـدة وأسـامـة بن لادن تصيب الأبرياء فى العـالم أكثـر ممـا تصيب الأمـريكيين، مثل تفـجـيـرات كينيـا وتنزانيـا! ولم يكن لها أى مردود مفيد لنضال الشعوب ! ولم تلحق أى ضـرر يذكر بالوحش الأمـريكى، بل زادته شـراسـة وتعطشـا للدمـاء !

وقـد أصـيبت مـصـر بالذات بخسـائر فـادحـة فـى الأرواح والممتلكات والاقـتـصـاد القـومـى مـن جـراء أعـمـال الارهـابيـيـن فـى تنظيم القـاعـدة، وكـادت تفـقـد مـصـر رئـيـسـا مـن أعـظم رؤسـاء مـصـر فـى أديس أبابا، دون رعـايـة لدوره النضـالـى ضـد إسـرائيل عندمـا وجـه أول ضـربة جـوية للاحـتـلال الإسـرائيلى فـى حـرب أكتـوبر ١٩٧٣ ! فـأثبت تنظيم القـاعـدة إنه إرهـاب أعمـى، لايفرق بين صـالح وطالح، أو بين نافع وضـار !

لذلـك فـإن اخـتـفـاء هـذا التنظيم من الـوجـود ـ بغض النظـر عن الطريقة التى اختفى بها هو لصالح البشرية على وجه التحقيق !

(٣٦)
جناية الإسلام السياسى على الأمة الإسلامية (١)

مشكلة رجال الدين فى بلدنا هى أنهم ليسوا رجال دين، وإنما هم رجال سياسة وحكم ! ومن هنا فلا هم حصلوا الدين، ولاهم حصلوا الحكم!

وأقصد برجال الدين هنا رجال الإسلام السياسى، الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الأمة الإسلامية، وحكموا بتكفيرها، وفرضوا رؤيتهم الخاطئة للدين الصحيح ! وأرادوا تغيير نظم الحكم بالعنف والتآمر والاغتيال !

وسوف يحكم التاريخ على هذه الجماعات بأنها ألحقت بالإسلام وبالمسلمين من الأضرار ما لم تلحقه فى أشد أعداء الأمة الإسلامية !

فقد أساءت إلى سمعة الإسلام، وصورته للعالم فى غير الصورة التى نزل بها، وأرادت فرض رؤيتها على الشعوب الإسلامية، دون أن يأمر بذلك الإسلام ! بل وبرغم ماحذر منه الإسلام!

وفى القرآن الكريم يخاطب الله رسوله قائلا : «إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر» ! ويقول : أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ «ويقول لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى» ويقول :

«قل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر» ويقول «قل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أ أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد» وغير ذلك آيات كثيرة فى هذا المعنى العظيم.

ومن ذلك كله يتبين مدى خروج جماعات الإسلام السياسى عن الدين الإسلامى بإقحام أنفسهم فيما لم يأمرهم به الله، بل فيما نهاهم الله تعالى !

لقد خلطوا الدين بالحكم والسياسة، وتركوا رسالتهم الحقيقية، وهى هداية الضالين إلى طريق الحق والصواب، فبقى الضالون على ضلالهم، بل وزاد عددهم كما هو حاصل اليوم! ولم يصل رجال الإسلام السياسى إلى الحكم!

وحتى الذين وصلوا إلى الحكم، مثل جماعة طالبان فى أفغانستان، كانوا أفشل الحكام، وأسوأهم وأجهلهم بالدين ! فلم يفهموا الفرق بين التراث الحضارى لأفغانستان، الذى هو ملك للشعب الأفغانى، بل هو ملك للبشرية، وبين الأصنام ! فقاموا بنسف تماثيل بوذا باستخفاف وجهل !

ثم كانت رعايتهم لارهابى أصيل هو أسامة بن لادن، أثبت أنه كان أشد ضررا على الإسلام والمسلمين من أعداء الأمة الإسلامية فوضعوا العالم الإسلامى كله فى مواجهة مع العالم الغربى المسيحى واليهودى، ولم يكن العالم الإسلامى مستعد لهذه المواجهة، وها هوذا الآن يدفع الثمن غاليا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣٧)
جناية الإسلام السياسى على الأمة الإسلامية (٢)

فى مقالنا السابق قلنا إن جماعات الإسلام السياسى، كانت أشد ضررا على المسلمين من ألد أعدائهم ! لأنها أقحمت نفسها فيما هو ليس من شئونها، ومما لم يأمر به الله، وتجاهلت قول الله تعالى «لا إكراه فى الدين» وحكمت على المسلمين بالكفر، وأرادت أن تفرض عليهم مفهومها العريض للدين الإسلامى، واصطدمت بالعالم الغربى دون أن تعد العالم الإسلامى لهذا الصدام، متجاهلة قوله الله تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم»!

وقد يكون من المناسب هنا أن نبرز هذه الحقيقة، وهى أن جماعات الإسلام السياسى هى جماعات حديثة فى تاريخ العالم الإسلامى! وترجع بالذات إلى العشرينات من هذا القرن.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن العالم الإسلامى كان خاضعا لحكم إسلامى بالفعل يتمثل فى الدولة العثمانية التى يرأسها خليفة للمسلمين يدينون له بالولاء، ويقدمون له خالص الاحترام.

وبالتالى فإن فكرة قيام جماعة من جماعات الإسلام السياسى تزعم أن هدفها هو إقامة الحكم الإسلامى، كانت فكرة غير مطروحة أصلا، لأن الحكومة الإسلامية كانت موجودة بالفعل! كذلك لاتستطيع أن تزعم إقامة خلافة إسلامية، لأن الخلافة الإسلامية كانت قائمة بالفعل، وهى خلافة آل عثمان، وكانت خلافة مقبولة من جميع المسلمين، ولايعارضها أحد أو ينازعها منازع!

وفى مصر بالذات كان الولاء لخلافة آل عثمان أشد ! وكان مصطفى كامل ينعت السلطان العثمانى عبد الحميد بأنه «أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان» ! وكان يضرع إلى الله فاطر السموات والأرض أن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها، وللإسلام إمامه وناصره، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبد الحميد الثانى»!

وكان عبد الله النديم يسب أحرار العرب فى المشرق الذين يذمون سوء الادارة العثمانية وقسوة الحكام فى الدولة العثمانية، ويصفهم «بالمغفلين» ويقول : «ولو أنصفوا لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا، وأحسنها تبصرا، وأقواها عزيمة»!

بل لقد نصح الشاعر أحمد شوقى السلطان عبد الحميد بالضرب على أيدى هؤلاء وعدم التسامح معهم قائلا : «لا تجزهم منك حلما واجزهم عنتا» أما الشاعر الكبير محرم فقد أعلن رأيه بأن الترك أحق بالخلافة من العرب أو غيرهم قائلا : «ما للخلافة إلا الترك تحرسها» ! وقد هاجم مصطفى كامل الخلافة العربية، ووصفها بأنها «فكرة انجليزية»،

(٣٨)
جناية الإسلام السياسى على الأمة الإسلامية (٣)

قلنا إن جماعات الإسلام السياسى كانت شؤما على الأمة الإسلامية، كما أنها أساءت إلى الإسلام والمسلمين. وقد أبرزنا حقيقة غائبة، وهى أن ظاهرة هذه الجماعات تعد ظاهرة حديثة فى تاريخ مصر، وترجع بالذات إلى العشرينيات من القرن العشرين ، بسبب بسيط هو أن مصر كانت حتى ذلك الوقت خاضعة للدولة العثمانية، وتدين بالولاء للخليفة، أو تطالب بخلافة إسلامية لأن الخلافة الإسلامية كانت موجودة بالفعل، وكان معترف بها من القوى الوطنية المصرية وعلى رأسها الحزب الوطنى الذى يرأسه مصطفى كامل !

بل لقد كان هناك من الأسباب السياسية مايدفع القوة الوطنية فى مصر. وعلى رأسها مصطفى كامل للتمسك بتبعية مصر للخلافة العثمانية، لأن التمسك بهذه الخلافة كان هو وسيلة القوى الوطنية لإظهار بطلان الاحتلال البريطانى لمصر ! وهو ما أوجد تناقضا حادا بين القوى الوطنية فى مصر والقوة الوطنية فى المشرق العربى، ففى حين كانت القوى الوطنية تطالب بالتمسك بتبعية مصر للسيادة العثمانية، كانت القوى الوطنية العربية تسعى للتخلص منها ! وهو ما

بلغ ذروته بالثورة العربية الكبرى التى قامت بالتحالف مع بريطانيا، وهو ما اعتبر فى مصر خيانة للإسلام ولخليفة المسلمين!

فلما هزمت الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، وسقطت الخلافة العثمانية، وقامت ثورة ١٩١٩ القومية الكبرى، التى تخلصت فيها مصر من السيادة العثمانية، ونبذت فكرة الخلافة الإسلامية كان ذلك مما مهد السبيل لظهور جماعة الإخوان المسلمين، التى أرادت عودة الساعة إلى الوراء.

فقد تمسكت بنظام الخلافة، وسعت إلى إقامة حكومة إسلامية بديلا للحكومة الدستورية، ودخلت بالتالى - فى صراع مع القوى الليبرالية الممثلة فى الوفد، وتحالفت مع القصر الملكى المناوئ للوفد، وساندت ادعاءاته فى الخلافة للحصول على صيغة إسلامية لحكمه.

وفى البداية رفعت جماعة الإخوان المسلمين شعارا مسالما هو تكوين الحلف الإسلامى الصحيح، ونشر الفضائل الإسلامية، فأقبل الكثيرون من المصريين على الانضمام إليها ولكنها لم تلبث أن انتقلت من هذا الهدف الدينى البحت إلى هدف سياسى بحت وهو الحكم !

ففى أثناء الحرب العالمية الثانية أخذ الشيخ حسن البنا فى بناء تنظيمه العسكرى وجهازه السرى، وتحويل جماعته من جماعة مدنية إلى جماعة شبه عسكرية، والانتقال بها من مرحلة نشر الدعوة «بالحب والإخاء والتعارف» إلى مرحلة نشر الدعوة بالقوة!

(٣٩)
جناية الإسلام السياسى على الأمة الإسلامية (٤)

قلنا إن الشيخ حسن البنا أخذ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية، فى بناء تنظيمه العسكرى، وتحويل جماعة الإخوان المسلمين من جماعة مدنية إلى جماعة شبه عسكرية، والانتقال من الدعوة بالموعظة الحسنة إلى الدعوة بالعنف.

وكانت وسيلته الأولى لذلك ما أطلق عليه اسم «فرق الرحلات» ! التى عرض مشروعها على المؤتمر الثالث لمجلس شورى الإخوان فى عام ١٩٣٤، فأقره. وبناء على ذلك أعيد تنظيم الانضمام إلى الإخوان إلى أربع مراتب :

المرتبة الأولى، هى مرتبة الانضمام العام. والثانية ، مرتبة الانتساب، والثالثة، مرتبة الانضمام العملى، ويسمى العضو فيه «أخا عاملا» ويحق له الانضمام إلى فرق الرحلات، أما المرتبة الرابعة، فهى مرتبة الجهاد، ويسمى العضو فيه «أخا مجاهدا»!

وقد اعترف البنا بأن الفكرة فى تأسيس فرق الرحلات ليست الرحلات ذاتها، وإنما فكرة «الجهاد الإسلامى» ! تنفيذا لأمر الإسلام،

وتحرجا مما جاء فى الحديث الشريف : «من مات ولم يغزُ ولم ينو الغزو، مات ميتة جاهلية»!

وبذلك انتقلت الجماعة من مرحلة الدعوة بالموعظة الحسنة إلى مرحلة الجهاد والغزو!

ولذلك ففى تلك الفترة ذاتها بدأ تسليح الإخوان المسلمين - باعتراف حسن البنا فى ذلك الحين قائلا : «لاننكر، بل نجهر، بأننا نسعى بالسعى الحثيث لتسليح أنفسنا. وليس ذلك من عندنا، ولكنه أمر الله أنزل إلينا، وفريضته التى فرضها علينا»!

على أن نشوب الحرب العالمية الثانية هدد وجود فرق الرحلات العسكرية بالفناء، ولكن البنا تغلب على ذلك بالانضمام رسميا إلى تشكيل النظام العام لجمعية الكشافة، حتى يستفيد من التسهيلات والمزايا التى تستفيد بها الفرق من تسجيلها رسميا!

وعلى هذا النحو تحولت فرق الرحلات «إلى فرق الجوالة» فى عام ١٩٤٠، وعين الصاغ محمود لبيب، وهو ضابط بالجيش، مفتشا عاما للفرق، وافتتحت مدينة للمدربين قامت بتخريج ٣٥ مدربا بعد شهرين! وتكونت المجموعات فى القاهرة والاسكندرية أولاً، ثم انتشرت تدريجيا فى أعماق الريف! وعند نهاية الحرب العالمية الثانية كان تعداد جيش الإخوان المسلمين من «الجوالة» قد بلغ خمسًا وأربعين ألفا».

ولقد كان وجود هذا الجيش ضد قانون الكشافة، وضد القانون العام الذى كان يحظّر قيام أية تشكيلات شبه عسكرية، ولكن البنا

تغلب على هذه العقبة بالتحالف مع القصر الملكى، الذى كان يحكم البلاد، ووضع هذه التشكيلات فى خدمة أهداف القصر. وتحت هذه المظلة أخذ البنا فى تسليح جيشه على نطاق واسع !

(٤٠)

وقــود الحـــرب

كـانـت الحـروب ـ ولاتزال ـ شـؤما على البشـرية ! ليس فـقط لما تلحقـه من خـراب ودمـار بالدول المحـاربة، وإنما لأن الطبقـات الفقـيرة تدفع ثمنها عـادة، ولأن الأبرياء يذهبـون ضحـايا وقـودها دون أى ذنب جنوه.

وهو ماحدث تمامًا فى الحرب الأمريكية فى أفغانستان. فقد شنت أمريكا الحرب بحثا عن بن لادن . ولكنها فى طريقها للعثور عليه قتلت عشرات الألوف من الأبرياء الذين لا علاقة لهم بانفجارات يوم الحادى عـشـر من سـبـتـمـبـر ! ومـازال أسـامـة بن لادن بعـيـد المنال، لا تـطوله الطائرات الحربية الأمريكية، رغم القصف المكثف للكهوف التى يشتبه فى اختـفـائه فـيـهـا !! وذلك أنه مـازال الموت ينتظر ألـوف آخـرين من الضحايا ! وقد تنتهى الحرب دون أن تقتنص الولايات المتحدة أسامة ابن لادن فتكون هذه الأرواح قد ذهبت سدى!

وهذه هى الحـرب الحديثة التى تختلف عن الحروب القديمة فى أن الفقراء يدفعون ثمنها، ويدفعون تكاليفها أيضا ! فهى أكثر وحشية من الحروب القديمة.

لقد كانت الحروب فى العصور الوسطى أرحم بكثير بالفقراء، لسبب بسيط هو أن الجيوش فى هذه العصور كانت تتكون من الأغنياء وحدهم ! وبمعنى آخر من الفرسان الاقطاعيين، ويبتعد عنها الفقراء أو الأفنان، كما كانوا يسمون فى ذلك العصر لأن الجندية كانت شرفا لا يحصل عليه إلا المالك، أما المعدم فلا يستحق هذا الشرف !

وفى الوقت نفسه فإن الجندية كانت حرفة صعبة تتطلب تدريبا طويلا من الصغر، وعزلة عن المجتمع وعلى سبيل المثال فإن المماليك فى مصر كانوا يشترون صغارا، ويعزلون عن المجتمع، ويتلقون التعليم الدينى، ثم يتلقون مبادئ الفروسية فى القلعة، حتى تكتمل مهارتهم فى القتال، فيسمح لهم بالانخراط فى الجيوش والقتال.

أما الجندية اليوم فتتم بطريق التجنيد من بين أبناء الشعب، فقيرهم قبل غنيهم! وكان الغنى المقتدر فى مصر يدفع مايسمى بالبدلية، وهو من المال مقابل اعفائه من التجنيد ! وهو مايعنى انقلاب الحال ! فقد وقع عبء الدفاع عن الوطن على عاتق الفقراء، وأعفى الأغنياء ! وهو وضع مقلوب! فحين كانت الجندية مقصورة على المالكين، كان الغرض أن يدافعوا عن ممتلكاتهم، وكان هذه الممتلكات الأفنان الذين أعفوا من الجندية لأنه ليس لديهم مايقاتلون من أجله ! ولكن الفقراء فى العصر الحديث أصبحوا هم الذين يدافعون عن الأغنياء !

(٤١)

وقـــود الحـرب (٢)

قلنا إن الحروب فى العصور الوسطى كانت تقوم على أكتاف الأغنياء، ويعفى منها الفقراء وكانت الجندية شرفا لا يناله إلا الذين يملكون، ولكن الحروب الحديثة أصبحت تقوم على أكتاف الفقراء بعد ادخال نظام التجنيد وتطور السلاح من السيف إلى البندقية والمدفع.

وكان معنى ذلك أن الفقراء أصبحوا يدافعون عن أملاك الأغنياء ومصالحهم فى الحروب الحديثة، بعد أن كان الأغنياء هم الذين يدافعون عن أملاكهم فى العصور الوسطى.

وقد أحدث هذا الانقلاب انقلابا فى الفكر السياسى فعندما دعت الدولة الثانية الشيوعية الطبقة العاملة إلى الامتناع عن التجنيد حتى لايصبحوا وقود حرب لاناقة لهم فيها ولا جمل، ولأن مغانم الحرب تذهب إلى جيوب الرأسماليين الذين يشعلون الحرب لاقتسام مناطق النفوذ فى العالم الثالث.

وفى القصة الشهيرة : «كل شىء هادئ فى الميدان الغربى» للكاتب الألمانى «اريك ماريا ريمارك» دعا الرأسماليين إلى أن يتبارزوا فيما

بينهم حتى ينتصر أحدهم، ويعفوا الشعوب من القتال الذى لا مصلحة لهم فيه.

وعندما أخذ محمد على باشا الكبير فى تجنيد السودانيين وتكوين جيشه منهم، أضرب السودانيون بطريقتهم الخاصة، فقد تفشت فيهم الأمراض، وفسر المؤرخ الرافعى ذلك بأن مناخ مصر لم يناسبهم ! وهو أمر غير صحيح، لأن المناخ فى مصر أفضل بكثير من المناخ فى السودان، ولكن السودانيين المجندين لم يكن لديهم مايدفعهم إلى القتال، ولم يجدوا مبررا لنقلهم من موطنهم الأصلى للقتال دفاعا عن مصالح لا تمت لهم بصلة.

وكذلك فعل الفلاحون المصريون، الذين أخذوا يتهربون من الجندية بكل الطرق، حتى ولو بتشويه أنفسهم وقطع بعض أطرافهم !

وهذا هو مادفع الدول الحديثة إلى تخصيص مميزات يحصل عليها الجندى فى فترة التجنيد. ورفع المرتبات، والاهتمام بالتوجيه المعنوى لرفع الروح المعنوية للجنود، وتحسين الأوضاع الاجتماعية فى البلاد بوجه عام، حتى يشعر الجندى بالفخر والانتماء لوطن يحقق له حياة رغدة، ويستحق القتال فى سبيله، والموت فداء له. وكانت ثورة يوليو هى التى اهتمت بهذه الناحية بوجه خاص، كما ألغت «البدلية» التى تعفى الغنى من التجنيد مقابل دفع مبلغ من المال، لتحقيق المساواة بين الفقير والغنى فى واجب الدفاع عن الوطن.

(٤٢)
محنة العالم الثالث
الهند - باكستان - أفغانستان !(١)

استطاعت بريطانيا أن تحكم العالم الثالث بمبدأ خطير هو مبدأ «فرق تسد» Divide and Rule وكان فى وسع شعوب العالم الثالث أن تتغلب على هذا المبدأ بمبدأ آخر هو مبدأ «الاتحاد قوة» ! ولكن فيروس الفرقة والانقسام الذى زرعته بريطانيا كان أقوى من كل دعوة للاتحاد!

وعندما اكتشف كارل ماركس عنصر الوحدة الوحيد فى الطبقة العاملة فى العالم، وهو القيود ! أطلق صيحته الشهيرة ! ياعمال العالم اتحدوا، إنكم لن تفقدوا شيئا سوى قيودكم وقد أثمرت هذه الدعوة الحركات الشيوعية التى انتشرت فى العالم انتشار النار فى الهشيم، وقتلت أكبر خطر تحدى سطوة الاستعمار البريطانى والفرنسى والأمريكى، وترتب عليها انقسام العالم بين كتلة رأسمالية وكتلة عمالية (أو اشتراكية).

ولكن فيروس الفرقة والانقسام الذى زرعه الاستعمار كان قد تمكن من الجميع، ولم ينج منه المجتمع الاشتراكى ! فلم يكد يخرج من سيطرة الاتحاد السوفيتى، حتى كان يتحلل ويتفسخ على نحو لم يسبق له نظير ! فقد تحلل الاتحاد السوفيتى، وتحول إلى روسيا، ثم إلى

روسيا الاتحادية، وتحللت يوغوسلافيا ودبت الحرب بين أجزائها: بين الصرب والكروات والبوسنويين ! وتحللت تشيكوسلوفاكيا إلى التشيك والسلوفاك، ولم تبق دولة شيوعية إلا وقد تمزقت إلى أشلاء بدون تدخل أجنبى! وإنما بفعل البذرة الفرقة والانقسام القديمة التى بذرها الاستعمار فى هذه الدول قبل تحولها إلى الشيوعية!

ومعنى ذلك أن دعوة الانعتاق من القيود التى أقنع بها كارل ماركس الطبقة العاملة من أجل الاتحاد، لم تستمر طويلا! ولم تحفظ الشيوعية وحدة البروليتاريا فى هذه الدول! فقد كان الصراع الطبقى بين المستغلين والمشتغلين هو الذى كسب فى النهاية ! بعد أن وقع الاستغلال فى يد البيروقراطية الشيوعية، وتبينت الطبقة العمالية أنها خرجت من قبضة الطبقة الرأسمالية لتقع فى قبضة ألبيرقراطية الشيوعية، وأن الطبقة الرأسمالية كانت أذكى وأدرى بمصالحها من البيروقراطية الشيوعية !

وأما العالم الثالث، فإن النضال الوطنى ضد الاستعمار كان قد وحده ضد الدول الاستعمارية فى العشرينيات، وجاءت النازية العنصرية لتزيد وحدته فى الحرب العالمية الثانية من أجل هزيمتها.

وبلغت هذه الوحدة ذروتها بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الصراع الذرى بين الكتلتين الرأسمالية والشيوعية، عندما وجدت شعوب العالم الثالث أنها سوف تكون وقود هذه الحرب، فقامت حركة عدم الانحياز واحتدمت حركة التحرر الوطنى.

ولكن مبدأ «فرق تسد» كان بالمرصاد ! وهو أقوى سلاح فى يد القوة الاستعمارية ! إذ لم يلبث أن فرق الوحدة الوطنية من جديد فى كل دولة من دول العالم الثالث، مستغلا عناصر الانقسام الطبيعية داخل كل دولة، وعلى رأسها الانقسام الدينى والانقسام العرقى، وهى انقسامات كامنة بالضرورة، وترسخت على يد الاستعمار فى الفترة الاستعمارية تطبيقا لمبدأ «فرق تسد» وقد تمثل ذلك اليوم فى أحداث الهند، وباكستان، وأفغانستان.

(٤٣)

محنة العالم الثالث (٢)

قلنا إن انجلترا استطاعت السيطرة على العالم، بمبدأ «فرق تسد»! لقد استغلت عناصر الفرقة الطبيعية فى المجتمعات البشرية، والمتمثلة فى الانقسامات الدينية والعرقية، وأخذت تعزف عليها باستمرار فى كل شعب من الشعوب التى سعت للسيطرة عليها واستعمارها، وبذلك كان الصراع على الدوام يدور بين بريطانيا المتحدة فى المصالح والأهداف، والمجتمعات الممزقة تحت عامل الدين أو العرق.

ولكن جهود بريطانيا لم ينتصر على ذلك، فعندما كانت عناصر الوحدة فى أى مجتمع تتغلب على عناصر الفرقة، كانت بريطانيا تسعى إلى توسيع شقة الخلاف والنزاعات بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، حتى تتغلب عناصر الفرقة على عناصر الاتحاد ! حتى ليمكن القول بأن انجلترا لم تكن تغادر بلدًا إلا وكان منقسما وممزقا!

وعلى سبيل المثال، فعلى الرغم مما يجمع بين الشعب الهندى من عناصر الوحدة المتمثلة فى الجنس والحضارة الواحدة، والثقافة المشتركة، حتى إنه لايوجد إنسان فى العالم يستطيع التمييز بين هندى

وبنجلاديش. وهندى باكستان، أو هندى الهند، اللهم إلا إذا عرف هذا بنفسه، وعرفه بجنسيته! فإن انجلترا لم تترك الهند إلا وكانت قد أرست أسس انقسام القارة الهندية إلى بنجلاديش، وهند، وباكستان! ولا يتذرع فى ذلك بالدين، فمنذ عشر سنوات دعيت لإلقاء محاضرة فى جامعة اسلامية هندية عريقة، هى جامعة عليكره، وجلست مع الأساتذة الهنود المسلمين، وألقيت المحاضرة على طلبة مسلمين وطالبات مسلمات يرتدين اللبس الإسلامى التقليدى!

وفى طوال هذه الزيارة كان السؤال الذى يحيرنى : هل أنا حقًا فى الهند، أو أنى فى باكستان، أو بنجلاديش؟ وماهو الفرق بين مدينة «آليجار» ALIGAR التى تقع فيها جامعة عليكره ، وأى مدينة أخرى فى باكستان .

وعندما زرت مدرسة عليكره، وشاهدت التلاميذ يجلسون على الأرض، وأمامهم المصاحف، يقرءون منها القرآن بالطريقة التقليدية التى كنت وأنا طفل أتلو بها القرآن فى مدرسة المحافظة على القرآن الكريم بالجيزة، وبالأنغام المعتادة فى هذه القراءة - عجزت عن فهم هذا اللغز! فهل أنا حقا فى الهند أو فى باكستان أو فى بنجلاديش؟

بل ساءلت نفسى : ماهو الفرق بين أن تكون جامعة عليكره الإسلامية فى الهند أو باكستان مادام أن المسلمين يمارسون شعائرهم الإسلامية ويرتدون ملابسهم الإسلامية، ويتناولون طعامهم الإسلامى ويعيشون حياتهم بالطريقة الإسلامية ؟

على أن إنجلترا كان لها رأى آخر ! ففى طوال احتلالها للهند منذ ١٨٥٧، عندما أصبحت تابعة للتاج البريطانى، كانت تعمل فى صبر ودأب على تعميق الفوارق بين المسلمين والهندوس، تأهبا ليوم تضطر فيه إلى إنهاء احتلالها للهند !

وعندما تزعم غاندى حركة المقاومة السلمية، التى وحدت شعوب القارة الهندية، كثفت انجلترا جهودها للحيلولة دون قيام هند متحدة فى شبه الجزيرة الهندية، حتى لاتتحول إلى دولة عظمى! ولذلك لم تكد تنهى احتلالها حتى كانت الهند تنقسم إلى هند وباكستان ! ومع ذلك فلم تكتف بريطانيا بهذا الفوز، فقبل انهاء احتلالها كانت قد بذرت بذرة انقسام باكستان إلى باكستان ، وبنجلادش! وهذا هو الذى قد كان، ولكن بؤرة الفرقة لم تكن وحدها التى بذرتها انجلترا، فقد بذرت معها بذرة الكراهية بين الشعبين الهندى والباكستانى وهو ما نرى مظاهره فى الوقت الراهن!

(٤٤)

محنة العالم الثالث (٣)

قلنا إن بريطانيا سادت العالم، وأصبحت رية البحار السبعة ـ كما كان يطلق عليها ـ بتطبيق مبدأ واحد، هو مبدأ «فرق تسد» ! لقد أدركت بريطانيا أنه لا يوجد شعب فى العالم يخلو من الفرقة بين عناصره، لأسباب تتصل بمراحل تكوين كل شعب على حده.

فالشعوب تنشأ فى وحدات صغيرة، ثم تنضم إلى بعضها البعض تحت تأثير ظروف قاهرة، وقد يكون بعضها ناشئا من الخوف من عدو قوى،فتتحد لمقاومة هذا العدو والتغلب عليه، وقد يكون البعض الآخر من ظهور حاكم قوى يعمل على توحيد هذه الشعوب، إما لغرض دفاعى وإما لغرض توسعى، ويكون التوحيد بالقوة وفى خلال هذه الوحدة تكتشف الشعوب عناصر الوحدة ـ فيما بينها وما تستفيد من الوحدة، فتستبقيها بارادتها، فتتكون الأمة الموحدة مع مرور الزمن ولكن عناصر الفرقة القديمة تبقى كامنة، تظهر عند الأزمات، أو عند ضعف قبضة الحاكم ! وهنا يكون الامتحان الحقيقى لتوه عناصر الوحدة فى هذه الأمة، فقد تتفسخ، وقد تبقى على الدهر إذا كانت عناصر الوحدة

أقوى من عناصر التفسخ. وفى كل الأحوال فإن الحكومة المركزية تبقى هى الحاسمة فى وحدة أى شعب وبدونها تتفسخ أية وحدة !

وهذا يتضح من ملاحظة تكوين الأنموذج المصرى، الذى يمثل أقوى وأقدم نموذج لوحدة شعب من الشعوب.

لقد كان النيل هو أول وأقوى عناصر وحدة الشعب المصرى، بما فرضه على المجتمعات الزراعية الصغيرة القائمة على ضفافه من ضرورة الاتحاد، لتفادى الخطر الذى يهدد الجميع وقت الفيضان، ومايحمله من فائدة مشتركة لهذه المجتمعات إذا نظمت الاستفادة من حياة النهر، وبالتالى جعل الحكومة المركزية ضرورة من ضرورات الحياة الأولى، وفرض على هذه الحكومة المركزية أن تكون أقوى من كل عناصر الفرقة والانقسام. فأسبغ عليها من القوة الروحية ماجعل الخروج عليها معصية دينية قبل أن تكون معصية سياسية ! وأعطى لرجال الدين فى الحكومة المصرية القديمة من القوة مايتفق مع ضرورة الحفاظ على هيبة الحاكم الفرد، وهو الفرعون، وصاغ الفلسفة المصرية القديمة، والعقيدة الدينية على أساس ألوهية هذا الفرعون؛ وضرورة أن يدين له الجميع بالولاء.

ولذلك عندما اكتشف اخناتون وجود إله آخر حقيقى، هو الشمس، كان ذلك مهددا لقوة الفرعون وبالتالى لقوة الحكومة المركزية، ولقوة المعتقدات التى تقوم عليها هذه الحكومة المركزية، وتقوم عليها سلطة الفرعون.

فتفسخت وحدة الدولة وسادت الفوضى وانهارات الإمبراطورية !

لم تكن مصر فى حاجة إلى فيلسوف يحكم البلاد. بل كانت فى حاجة إلى فرعون حقيقى ! أى فرعون متخصص فى الحكم وحفظ وحدة البلاد، وليس متخصصا فى الفلسفة!

(٤٥)

مبدأ «فرق تسد» فى مصر!

يأتى الخطر على الشعوب من الفرقة والانقسام والتفكك، وهو ما أدركته بريطانيا، فخرجت بمبدأ «فرق تسد» الذى سادت به العالم الثالث. لقد أدركت السياسة البريطانية الاستعمارية أنه لا يوجد شعب فى العالم يخلو من بذور الفرقة والانقسام، فعمدت إلى استنبات هذه البذور بذكاء، وتأليب كل عنصر ضد العنصر الآخر، وكانت هذه هى وسيلتها للسيادة على العالم.

كانت عناصر الفرقة فى نظر بريطانيا هى الدين والجنس أو العزف . ولذلك أخذت فى استثمار هذه العناصر لمصلحتها . وقد نجحت فى الشعوب التى لم تتوطن فيها عناصر الوحدة، ولم تتغلب بعد على عناصر الفرقة. وفشلت فى الشعوب التى انصهرت فيها عناصر الوحدة، ولم يعد يمكن فهمها .

وهذا ما فعلته فى مصر بعد احتلالها فى عام ١٨٨٢ . كانت تعلم أن الشعب المصرى يتكون من عنصرين رئيسيين هما : المسلمون والأقباط. فأخذت فى استنبات هذه البذور لتفكيك وحدة الأمة.

وكانت الوسيلة الرئيسية فى سبيل تحقيق ذلك، هى احتضان الأقليات، وأسباغ المغانم عليها، لايجاد ركيزة وطنية تستند إليها عند اللزوم.

وهذا ما فعله اللورد كرومر، عميد الاحتلال البريطانى فى مصر فقد أراد إسناد الوظائف فى الحكومة إلى الأقباط، لإثارة مشاعر المسلمين ضدهم، ولكنه لم يلبث بعد قليل أن أدرك ـ كما كتب فى كتابه « مصر الحديثة» أنه لايوجد فرق بين المسلم والقبطى. فالمسلم مصرى يتعبد فى جامع، والقبطى مصرى يتعبد فى كنيسة. ولذلك أخذ يعقد فى التعيين فى الوظائف على العناصر الشامية والأجنبية.

وقد كان هذا على حساب كفاءة الادارة. فقد اثبتنا فى كتابنا «صراع الطبقات فى مصر» إن الغالبية العظمى من الأجانب فى مصر، كانوا من الأميين وأشباه الأميين!

وقد أخطأنا بذلك خطأ فادحا، لأن اسناد الوظائف للأجانب كان أحد أكبر الأسباب فى ثورة الطلبة فى مارس ١٩١٩، واستمرارهم كعنصر رئيسى فى الثورة ! فقد كانوا يتخرجون ويعجزون عن الحصول على عمل، بسبب تفضيل الانجليز الأجانب فى التعيين!

وقد ثبت للاحتلال البريطانى أن عناصر الوحدة فى الشعب المصرى أقوى من عناصر الفرقة، عندما انفجرت ثورة ١٩١٩ القومية، وشاهد الانجليز اتحاد المسلمين والأقباط فى الثورة، وذهاب الثوار

المسلمين للخطابة فى الكنيسة المرقسية الكبرى، ومجىء الثوار الأقباط للخطابة فى الجامع الأزهر ! لقد كانت ثورة ١٩١٩ أكبر تحد لمبدأ «فرق تسد»!

(٤٦)
الأنموذج الأفغانى ومبدأ «فرق تسد»

محنة العالم الثالث تتمثل فى انقساماته وتفككه. وهى ماتتيح للاستعمار إشعال الحروب الأهلية داخل كل شعب وكل أمة، والسيطرة عليه بالتالى. وكانت انجلترا هى التى اكتشفت هذا العنصر المدمر داخل كل شعب، فخرجت بمبدأ «فرق تسد» الذى حكمت به العالم، وتتبعتها الدول الاستعمارية فى تطبيق هذا المبدأ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية !

وهو ما يتمثل اليوم فى الأنموذج الأفغانى! فعندما كانت طالبان تسيطر على أفغانستان، كانت الولايات المتحدة تسلح التحالف الشمالى، وتوليه ضد طالبان. وعندما وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ، وأعلنت الولايات المتحدة الحرب على أفغانستان، كان التحالف الشمالى ركيزتها فى الهجوم على طالبان، وكان جنوده الأفغانيون هم وقود هذه الحرب، وهم طلائع الهجوم! وأعفوا بذلك الجنود الأمريكيين من دفع ضريبة الدم فى هذه الحرب !

وعندما سقطت طالبان اكتشفت شعوب العالم أن أفغانستان لم تكن منقسمة إلى طالبان والتحالف الشمالى فقط، فهناك «الباشتون»

فى الجنوب ويمثلون جزءا كبيرا من الشعب الأفغانى، وهناك غيرهم، وكل منهم يطالب بنصيبه فى «كعكة» الحكم، وكانت مدينة «بون» مسرحا لهؤلاء ! وانتقت الولايات المتحدة من هؤلاء من يحكم افغانستان باسمها، ويحقق مصالحها !

وهو سر سقوط طالبان السريع والمفاجئ فلم تكن طالبان شعبا واحدا أو جنسا واحدا، وإنما كانت مجموعة من الأعراض التى وحدتها بالحديد والنار ! وقد ظهر أن من عرفوا باسم «الأفغان العرب» كانوا أشد تشددا وتطرفا من الأفغانيين أنفسهم ! وأنهم العمود الفقرى فى تنظيم القاعدة الذى يرأسه «أسامة بن لادن» ولم يكن أسامة بن لادن أفغانيا، بل كان عربيا سعوديا استطاع أن يوحد تحت لواء العقيدة التى ابتدعها عناصر شتى من جميع البلاد العربية من الخارجين على القانون وأصحاب النزعة الاجرامية التى تنتشر تحت غلاف الدين !

وبسقوط تنظيم القاعدة، وسقوط طالبان، تبخرت أفغانستان التى عرفها العالم قبل الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ! بل تبخر المجتمع الأفغانى الذى عاش تحت حكم طالبان ! وأخذ يتشكل مجتمع جديد فقد حلق الرجال لحاهم، وتخففت المرأة الأفغانية من النقاب ومن أسلوب الحياة المتخلفة الذى رفضه طالبان، لتحل محلها حياة اجتماعية أخرى تعيش وفق مقتضيات العصر !

وهو ما يعنى انقساما آخر داخل المجتمع الأفغانى.. بين مجتمع متخلف ومجتمع عصرى ! سوف يكون هذا المجتمع العصرى هو ركيزة

اخرى من ركائز السيطرة الأمريكية، لأنه سوف يحذو حذو الحياة الأمريكية إن عاجلا وإن آجلا تحت رعاية السيطرة الأمريكية !

فبفضل الانقسام سوف يصبح المجتمع الأفغانى كالصلصال فى يد الولايات المتحدة تشكله كما تشاء وفق مصالحها، وحتى لاتظهر طالبان أخرى!

(٤٧)

القنبلة الذرية الإسلامية فى الميزان !

من حق الغـرب الاسـتـعـمـارى أن ينعم برخـائه ونفـوذه وقـوته وسيطرته، ومن حق شعوب العالم الثالث أن تشقى بضعفها وفقرها ومرضها واستعبادها !!

عندما استطاعت باكستان أن تفجر أول قنبلة ذرية «زقططط» العالم الإسلامى، وتحدث عما أسماه بالقنبلة الذرية الإسلامية ! أى أنه أضاف هذه القنبلة إلى رصيد القوة الإسلامية !

ولكن العالم العربى «زقطط» هو الآخر لأنه أدرك أن هذه القنبلة الذرية «الإسلامية» لاهى إسلامية ولايحزنون ! وإنما هى احدى وسائل دول العالم الثالث لإفناء بعضها البعض، وإنها لن تكون أبدا فى خدمة الأمة الإسلامية، وإنما سوف تكون فى خدمة السيطرة الاستعمارية الغربية!

وقد تبين ذلك بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ! فقد خضعت باكستان للسيطرة الأمريكية، على الرغم من أنها دولة ذرية! ووضعت مواردها وامكاناتها فى خدمة عدوان الولايات المتحدة على دولة إسلامية تحت حجة أنها دولة ترعى الارهاب، وأنها مأوى «أسامة بن

لادن» - على الرغم من أن الإدارة الأمريكية لم يكن لديها دليل واحد على ارتكاب ابن لادن هذه الجريمة النكراء، وإنما كانت الحرب «تكتيكة» للاقتراب من تخوم الاتحاد السوفيتى السابق، والسيطرة على بترول آسيا بعد أن سيطرت على بترول الأمة العربية!

وكانت باكستان تتوقع أن تتلقى مكافأتها على انحيازها لأمريكا بعد سيطرتها على أفغانستان ولكنها فوجئت بأنها تواجه جارتها الذرية الهند ! بحجة رعايتها للارهاب فى كشمير بعد حادث الهجوم على البرلمان الهندى.

لم ينفع باكستان وقوفها إلى جانب الولايات المتحدة فى حرب تعتبرها أمريكا مصيرية بالنسبة لها. فقد ضمتها الادارة الأمريكية إلى الدول التى ترعى الارهاب!

ونظرا لأن كلا من الهند وباكستان دولتان ذريتان، فإن الادارة الأمريكية سوف تكون سعيدة جدا لو انتهت هذه الأزمة بمواجهة ذرية تقضى على مئات الملايين من البشر فى الدولتين الهنديتين! فأرواح الآسيويين والأفريقيين والعرب لاثمن لها.

والغريب حقا هو أن الحكومتين فى الدولتين الهنديتين الذريتين، تتمتعان بنسبة عالية من الغباء السياسى الذى يدفع بهما إلى الهلاك!

ومعنى ذلك أن التقدم العلمى الذى أحرزته كل من الهند وباكستان، لم ينعكس على إدراكهما السياسى !! فكل دولة منهما «فرحانة» بامتلاكها للقوة النووية، ولا تدرى أنها وسيلتها القريبة للانتحار!

(٤٨)
النموذج السودانى ومبدأ فرق تسد

فشلت سياسة «فرق تسد» فى مصر لأسباب كثيرة على رأسها الوحدة الجنسية التى تربط الشعب المصرى من قديم الزمان، بسبب النيل المنحصر بين صحراوين، واضطرار السكان إلى العيش حول ضفتيه آلاف السنين على نحو وحد هؤلاء السكان، فضلا عن أن طبيعة النيل أوجدت الحاجة إلى حكومة مركزية تنظم الاستفادة من النهر، والتغلب على أخطاء الفيضان.

وقد ظلت هذه الكتلة البشرية التى تكون شعب وادى النيل باقية على الدهر مابقى النيل، بخصائصها الجنسية المتميزة، ولم تفلح الغزوات التى طرأت على مصر فى تفكيك هذه الوحدة، أو التغلغل فيها أو اختراقها، وإنما ظلت غريبة عن الشعب المصرى، وكان الغزاة على الدوام بالنسبة للشعب المصرى غرباء يعيشون على هامش الحياة المصرية.

وقد كان الاستثناء الوحيد هو الفتح العربى، الذى تقبله المصريون بسبب الصلات التاريخية القديمة فى المنطقة العربية، والتى جعلته يختلف عن الغزوات التى جاءت من وراء البحر الأبيض المتوسط، مثل

اليونان أو الرومان، فاختلط الجنسان المصرى والعربى اختلاطا جنسيا وتوحـدا فى بوتقـة الأرض المحـدودة المحـيطة بنهـر النيل وكـان هذا الشعب الموحد هو الذى وقف ضد الصليبيين والمغول وذبَّهم عن أرض وادى النيل، ووحد مصر والشام والحجاز وغزا قبرس، وكون قومية عربية إسلامية حول البذرة المصرية الأصيلة الرابضة على ضفاف النيل.

على أن الأمر فى السودان كان مختلفا، بسبب طبيعته الجغرافية التى أدت إلى ظهور مجتمع قبلى لا يدين بحكومة مركزية، وتسيطر عليه النزعة القبلية التى تعرقل بطبيعتها نمو الشعور القومى الموحد، بما تثير من التعصب وما تنذره من الانصراف عن المصلحة الوطنية العامة إلى المصلحة القبلية الخاصة.

ومن هنا كان هذا المجتمع صالحا أمام بريطانيا لتطبيق مبدأ «فرق تسد» عندئذ لاحظت بريطانيا منذ البداية اختلاف المجتمع السودانى القبلى فى الجنوب عن المجتمع المصرى الزراعى فى الشمال بسبب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتأخرة فى السودان. فعمدت إلى تكريس هذه الأوضاع القبلية، وتأييد القبائل وتشجيع سلطانها، لتوسيع الهوة الاجتماعية بين المجتمع السودانى والمجتمع المصرى.

وربما كانت كلمة السير «جون مافى» فى عام ١٩٢٥ توضح ذلك جيدا. عندما دعا بريطانيا إلى أن تبنى سياستها فى السودان على تأييد النظم القبلية !

(٤٩)
بريطانيا وتمزيق المجتمع السودانى !

أدركت بريطانيا منذ احتلالها لمصر فى عام ١٨٨٢، اختلاف المجتمع الزراعى فى مصر، الخاضع لحكومة مركزية، عن المجتمع القبلى فى السودان الخاضع لسلطة القبائل، فقررت فصل السودان عن مصر! ثم قررت فصل الجنوب السودانى عن الشمالى ! وكان أداتها فى تنفيذ هذا المخطط مبدأ فرق تسد.

وقد كشف هذا المخطط السير «چون مافى» عندما دعا بريطانيا فى عام ١٩٢٥ إلى أن تبنى سياستها فى السودان على تأييد النظم القبلية قائلا إن البلاد لاتزال بها نظم وأوضاع قبلية ومحلية قديمة، وأنه لا يجب أن تترك بريطانيا هذا الأوضاع تسير إلى الزوال ! ومن الضرورى لذلك أن تحيط هذه الأوضاع القبلية بسياج منيع من التحصينات !

فى ذلك الحين كان رؤساء القبائل فى السودان يتمتعون بسلطة واسعة. فإلى جانب سلطاتهم الإدارية التى كانت تبلغ برئيس القبيلة أن يصبح ملكا فإن لهم سلطات قضائية! وكثيرا ماكان يعين شيخ القبيلة رئيسا لعدة محاكم!

وقد عمدت بريطانيا إلى خلق بعض الزعماء القبليين، الذين أصبح لهم نفوذ مماثل لنفوذ عهود الاقطاع، عن حل دمج القبائل الصغرى فى المقاطعة تحت رئاسة القبيلة ذات النفوذ، حتى حسب الناس أنهم إزاء دكتاتوريات أهلية يسندها سلطان الإدارة البريطانية وتحميها حرابها! ولتقوية الأوضاع القبلية، وولاء رؤساء القبائل لبريطانيا، أعدت قانون وراثة رئاسة القبيلة الذى يركز السلطة فى أحد البيوت، يتوارثها الابن عن الأب، بدلا من أن تكون رئاسة العشيرة للأقوى.

وفى الوقت نفسه كرست « الأوضاع الطبقية لفأبقت الملايين من رجال القبائل يرزحون تحت أبشع ألوان الاستغلال والاسترقاق، حيث كان هناك مليونان منهم عرايا، يحرم عليهم الاستعمار البريطانى بالقانون أن يستروا عوراتهم!

وهو نوع من أنواع تطبيقات سياسة «فرق تسد» لأنه يقسم المجتمع بين مالكين ومحرومين، وبسبب صراع الطبقات، فضلا عن الثورات الاجتماعية التى تقع فى نهاية الأمر عندما يفيض الظلم ويطغى !

وقد اعتمدت بريطانيا على هذه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى السودان فى فصله عن مصر ! وكانت وسيلتها الأولى هى إقناع السودانيين بأن مصر كانت تستعمر السودان! وكانت هذه منتهى «البجاحة» لأن مصر نفسها كانت محتلة بجيوش الاحتلال البريطانى ! ولكن الكثير من السودانيين صدقوا هذه الفرية!

ولذلك، ففى الوقت الذى كان سعد زغلول يعلن فى مصر أن السودان ألزم لمصر من الاسكندرية كان الاستعمار البريطانى يحرك عددا من زعماء القبائل إلى لندن للإعراب عن ولائهم للتاج البريطانى!

(٥٠)

تنظيم القاعدة بسبعة أرواح !

كنا حتى أشهر قليلة نظن أن تنظيم القاعدة قد قضى عليه قضاء مبرما بعد أن نجحت الولايات المتحدة فى غزو أفغانستان، وطرد طالبان من الحكم وإقامة حكم جديد برياسة كارازى والسيطرة على كل جبال وكهوف ومنافذ ومخارج أفغانستان، حتى خرجت علينا جريدة الفانيا نشيال تايمز البريطانية بخبر عجيب هو أن تنظيم القاعدة يقوم حاليا بإعادة تجميع قواته، وتنظيم قياداته، استعدادا لشن هجمات جديدة ضد أهداف أمريكية وأوروبية ! كما زعمت الجريدة نقلا عن مصادر المخابرات الغربية أن هناك نحو مائة شخص من تنظيم القاعدة فى بريطانيا، ونحو أربعة آلاف شخص من أنصار القاعدة فى أوروبا، وهؤلاء جميعا يخططون لهجمات إرهابية جديدة !

وإذا كان الأمر كذلك، ففيم - إذن - كان غزو أفغانستان ؟ وفيم - إذن - كان البحث عن أسامة بن لادن ؟ لقد فهمنا جميعا، وفهم العالم كله، أن تنظيم القاعدة موجود فى أفغانستان، وأن أسامة بن لادن موجود فى أفغانستان. ومن هنا تفهم العالم إقدام الولايات المتحدة على غزو أفغانستان لاعتقال ابن لادن! وكان الظن أنه بغزو أفغانستان

واعتقال أسامة بن لادن والقضاء على تنظيم القاعدة، تنتهى الحرب الأمريكية ضد ما أسمته الإرهاب.

ولكن ما جرى بعد ذلك كان على غير المتوقع! فقد تم غزو أفغانستان بالفعل، وأحيط بتنظيم القاعدة من أقصى البلاد إلى أقصاها، ولكن أخبار بن لادن انقطعت، ولم يعد يذكره أحد! بعد أن كان ملء السمع والبصر - وبعد أن كانت لاتخلو أخبار أية قناة فضائية من ترديد اسمه - انقطعت أخباره كلية كأن لم يكن يعيش فى زماننا هذا !

وأما تنظيم القاعدة، الذى كنا نظن أنه فى أفغانستان، وأنه قد قضى عليه تماما، فقد فاجأتنا جريدة الفانيانشيال تايمز بأنه - بحمد الله - موجود وأنه فى أوروبا!

وإذا عرفنا أن الولايات المتحدة تتابع هذا التنظيم فى أفريقيا وآسيا والعالم العربى وتستخدم اسمه فى حكومات هذا البلاد لمتابعته - فمعنى ذلك أن كل ما أقامته الولايات المتحدة من ذرائع لغزو أفغانستان لم يكن بسبب تنظيم القاعدة، وإنما كان لسبب الاقتراب من بترول بحر قزوين، والسيطرة عليه كما سيطرت على بترول الخليج العربى ! وأن وجود القوات الأمريكية.فى أفغانستان إنما هو تماما مثل وجود هذه القوات فى الخليج العربى! وأما تنظيم القاعدة، فالغرض منه السيطرة على العالم، وإيجاد المبرر لغزو أية منطقة فى العالم بحجة وجود هذا التنظيم الهلامى الذى يوجد فى كل مكان على ظهر

الأرض ! وأخيرا ظهر أن تنظيم القاعدة بسبعة أرواح مثل القطط، وأنه مازال موجودا في شرق أفغانستان، وأن هناك معارك تدور بينه وبين القوات الأفغانية التي يقودها ضباط أمريكيون ! والسؤال الآن : ماهي الحكاية بالضبط ؟

لقد كان يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ خيرا وبركة على الولايات المتحدة الأمريكية ! ويكفي لمعرفة ذلك أن نقارن بين سيطرة الولايات المتحدة قبل يوم ١١ سبتمبر، وسيطرتها اليوم !

لقد كانت الولايات المتحدة قبل أحداث ١١ سبتمبر هي الدولة العظمى الوحيدة في العالم بعد اختفاء الاتحاد السوفيتي ولكن كانت تحكم سيطرتها على العالم بالقواعد والموازين والمواثيق التي أرساها العالم المتحدث. ولكن الولايات المتحدة اليوم تحكم العالم بفضل القواعد والموازين والمواثيق التي اخترعتها بنفسها، وفرضتها على العالم، واتخذت من كوفي عنان رئيس الأمم المتحدة أداة لتنفيذها!

وقد اختفى أسامة بن لادن، ولكن السؤال الذي لم يختف : هل كان هذا الارهابي مايزال يعمل في خدمة الولايات المتحدة يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١؟

(٥١)
الضربة القادمة للعراق لتعزيز قبضة النظام العراقى !

أفادت وكالات الأنباء أن ضرب العراق أصبح مسألة وقت ! وذلك وفقا للمصادر الأمريكية. وهو مايثير السؤال : هل المقصود ضرب الشعب العراقى أو ضرب النظام العراقى؟

وبمعنى آخر: هل يكون ضرب العراق على مثال ضرب أفغانستان؟ أى لإسقاط النظام العراقى كما أسقط ضرب أفغانستان حكم طالبان؟ أو أن ضرب العراق فى نظر الإدارة الأمريكية يعنى ضرب الشعب العراقى ـ كما حدث طوال العشر السنوات التى مضت؟

إننا نجزم فى هذا المقال بأنه إذا حدث بالفعل ضرب العراق، فإن هذا الضرب لن يمس النظام العراقى الحاكم بأى سوء ! وإنما سيكون مقصورا على ضرب الشعب العراقى وقتل الألوف من أبنائه كما حدث من قبل !

وعندئذ يكون هذا الضرب خداعا سافرا للرأى العام العربى والعالمى ! لأن الادارة الأمريكية تعلم جيدا أن الشعب العراقى لايحتوى على ارهابيين، مثل تنظيم القاعدة الذى كان موجودا فى أفغانستان، وليس فيه أسامة بن لادن أو مثيل له، وإنما الشعب العراقى شعب

مغلوب على أمره خاضع لسلطة ارهابية استلمت العراق وهو أغنى دولة عربية، ثم ضيعت ثرواته فى حربين من أكبر الحروب التى شهدتها منطقة الشرق الأوسط، وهى الحرب مع إيران أولا ، ثم الحرب مع الكويت والعالم ثانيا وبقدر ما استنزفت هاتان الحربان ثروة الشعب العراقى، بقدر ماأنعشت اقتصاد الغرب !

وفى الوقت نفسه فإن النظام العراقى فى خدم الولايات المتحدة وإسرائيل خدمة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ! فقد حول العراق من دولة قوية ذات بأس يتطلع إليها العرب بوصفها قوة مضافة للقوة العربية العسكرية، إلى قوة مخصومة من القوة العربية ! لأنها قوة تهدد جيرانها بالغزو والاجتياح - كما فعلت مع الكويت - وتدفعهم إلى طلب مساعدة الولايات المتحدة لحمايتهم منها، باعتبارها أخف الضررين وأهون الشرين !

ومعنى ذلك أن وجود النظام العراقى فى الحكم راكزا على قلب الشعب العراقى هو ضمان أكيد للولايات المتحدة الأمريكية بأن تبقى مسيطرة على بترول الخليج بقدراتها العسكرية، وبرضاء شعوب الخليج! بل هو ضمان أكيد لمصالح الغرب عامة!

وهذا ما يفسر اعتراض فرنسا وانجلترا وروسيا على ضرب العراق! إن هذه الدول لاتقصد عدم ضرب الشعب العراقى، وإنما تقصد عدم ضرب النظام العراقى ! وتعطى لنفسها الذريعة لأن تتدخل لانقاذه إذا هدد الضرب هذا النظام لأى سبب من الأسباب !

فوجود النظام العراقى فى الحكم ضمان أكيد لمصالح الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة. ومعنى ذلك أنه إذا نفذت الادارة الأمريكية تهديداتها بضرب العراق فإن هذه الضرب لن يكون على مثال ضرب أفغانستان، وإنما سيكون لإعطاء النظام العراقى مزيدا من القوة والثبات والاستمرارية، لأنه سيجلب إليه تأييد ومساعدة البلاد العربية والشعوب العربية والإسلامية وهو ماحدث فى الماضى!

وربما كان الرئيس مبارك واعيا لهذا الحقيقة عندما أعلن منذ سنوات أن سياسة مصر هى تأييد الشعب العراقى، وليس تأييد النظام!

وهذا هو مايجب أن يكون واضحا فى ذهن النظم العربية والشعوب العربية، فلا تقع فى الخديعة إذا نفذت الادارة الأمريكية تهديداتها بضرب العراق إذ عليها فقط أن تقف إلى جانب الشعب العراقى، ولاتعطى النظام العراقى مزيدا من القوة ! وإلا فإنها تكون قد نفذت تماما ما تريده الادارة الأمريكية ! وتكون قد ساعدتها على تحقيق أهدافها الامبريالية فى المنطقة العربية!

(٥٢)
ومع شارون اختفى صوت جماعات حقوق الإنسان

أخطر ماتتعرض له القضية الفلسطينية اليوم هو اعتبار المجتمع الدولى النضال المسلح ضد الاحتلال الإسرائيلى إرهابا ! واعتبار ماتقوم به دولة الاحتلال من اغتيال المناضلين الفلسطينيين دفاعا عن النفس !

وهو لم يسبق له مثيل فى التاريخ قبل يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وهو يوم مشئوم فى تاريخ حركات التحرر الوطنى، عندما انتزعت الولايات المتحدة لنفسها حق تعريف الارهاب، وقامت بحملتها العسكرية ضد أفغانستان تحت حجة البحث عن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة! فما فعلت شيئا إلى اليوم سوى قتل عشرات الآلوف من الأبرياء ! وما عثرت على أسامة بن لادن، وإنما مزقت أفغانستان! وانتهزت إسرائيل الفرصة لتطبيق تعريف الارهاب على النضال الفلسطينى المسلح ضد احتلالها للأراضى الفلسطينية، تحت حجة أنه يقتل الأبرياء !

قبل يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كانت الولايات المتحدة تعتبر ارهاب جماعات الإسلام السياسى فى مصر، الذى يموت فيه

الأبرياء المصريون والأجانب فى الدير البحرى والقللى والهرم ومصر الجديدة وغيرها، قضية حرية رأى! وكانت تحتضن الارهابيين، وتقدم لهم المأوى والمرتبات، وتسمح لهم بعقد المؤتمرات فى كل مكان فى العالم الحر فى نيويورك ولندن وباريس وغيرها. وكان أيمن الظواهرى يجلس علنا على المقاهى فى باريس والمدن الأوروبية دون أى خوف من اعتقال ! وكانت جماعات حقوق الإنسان تزور السجون المصرية للتحقق من أن الارهابيين المصريين الذين قتلوا الأبرياء يلقون أفضل معاملة ! وتريد تحويل السجون التى يقضون فيها مدة عقوبتهم إلى فنادق ذات خمسة نجوم ! باعتبار قضاياهم قضايا حرية رأى ! فما رأينا جماعات حقوق الإنسان تتحرك لقتل الأبرياء، مادام هذا القتل يتم على يد الولايات المتحدة فى أفغانستان، أو يتم على يد إسرائيل فى الأراضى المحتلة، ومع أن هذا القتل يتم علانية، وتصوره كاميرات القنوات الفضائية فى المدن الفلسطينية، ويراه العالم أجمع !

فإذا أرادت المقاومة الفلسطينية أن تعامل إسرائيل بالمثل وتذيقها من نفس الكأس، بالأعمال الاستشهادية، اعتبرت الولايات المتحدة، واعتبرت الدول الأوروبية، هذه المعاملة بالمثل ارهابا ! وغضت الطرف عن الانتقام الإسرائيلى الرهيب من الأبرياء الذى تستخدم فيه إسرائيل كل ما تملك من سلاح وعتاد ! وطالبت ياسر عرفات بأن يتعاون معها فى الاعتقال والقضاء على المناضلين الفلسطينيين بحجة أنهم ارهابيون ! واعتدت على كرامة السلطة الفلسطينية!

وفى كل ذلك لم نسمع صوتا لجماعات حقوق الإنسان الذى كان يجلجل صدر مصر كلما أرادت أن تحمى شعبها من جماعات الإرهاب! الإرهاب الحقيقى ، وليس الإرهاب بالتعريف الأمريكى!

(٥٣)

أزمـة الزعامة الفلسطينيـة !(١)

فى حـوار بينى وبين السـيـد ياسـر عـرفـات فى مـجلة أكـتـوبر أثناء زيارة، قـام بهـا للمـجلة منذ عـشـر سنوات تقـريبـا، دار الحـديث حـول سلبـيات الحـركـة الوطنيـة الفلسطينية، وكـان رأيه أن أحـد أكـبـر هذه السلبـيـات هو كـثـرة الزعـامـات! حـتى ليـصـدق القـول إن الشـعب الفلسطينى يتكون كله من زعامات! ـ قال هذا الكلام مفاخرا!

وهذا القول الصحيح! فالنضال الوطنى من شأنه أن يبرز زعامات! والنضال المستمر من شأنه أنه يضاعف من هذه الزعامات !

وكثره الزعامات يمكن أن تكون ظاهرة إيجابية إذا كان هناك اتفاق بينها على تكتيك النضال أولا، وعلى تنصيب زعامة فى القمـة تأتمر بأمـرها الزعـامـات الأخـرى ولكنه يتحـول إلى ظاهـرة سلبـيـة إذا غـاب هذان العاملان!

ومن الواضح من متابعة أحداث الانتفاضـة الفلسطينية أنها تفتقر إلى هذين العنصرين الأسـاسـيين! فـمنهج أوسلو الذى انتهـجه ياسـر عـرفات وزمـلاؤه، هو منهج مدان بشـدة من زعمـاء الفصـائل النضـاليـة

الأخرى، وعلى رأسها حماس والجهاد الإسلامى، التى تؤمن بالنضال المسلح وقد فشلت كل الجهود حتى اليوم فى جمع الفريقين حول منهج واحد يجمع بين فضائل الوسيلتين النضاليتين وهما منهج التفاوض ومنهج النضال المسلح.

وهو ماتبدى فى الانتفاضة الأخيرة! فحين كانت مصلحة النضال الوطنى تدعو ياسر عرفات إلى دفن النضال مسلح مؤقتا، كانت نفس مصلحة النضال الوطنى تدعو حماس والجهاد الإسلامى إلى عدم الانصياع لهذه الدعوة، بل العمل ضدها تماما!

وبذلك أصبحت القيادة الفلسطينية عاجزة تماما عن أداء مهمتها بوسيلتها النضالية التى هى وسيلة المفاوضات، بما تتطلبه مناورات كرومر! ومن ثم أصبحت ـ أمام الإدارتين الإسرائيلية والأمريكية سلطة شلاء عاجزة عن الوفاء بوعودها، وعن السيطرة على شعبها.

وكانت قمة ذلك عندما استطاعت حكومة شارون استفزاز وجر حماس والجهاد الإسلامى إلى تفجيرات القدس الغربية أثناء وجود شارون فى الولايات المتحدة وأثناء وجود وسيطين من الادارة الأمريكية فى المنطقة فنسفت هذه التفجيرات كل الجهود التى قامت بها السلطة الفلسطينية! ووجدت هذه نفسها أمام اختيارين كلاهما مر: إما اعتقال زعامات الفصائل الأخرى لمنعها من عرقلة جهودها التفاوضية، وإما تركها تدمر جهودها التفاوضية بأعمالها الاستشهادية فتكون كمن يحرث فى البحر!

والمشكلة أن معظم حكام المنطقة العربية يؤمنون بأنه لاغنى للنضال الوطنى الفلسطينى عن الوسيلتين، بشرط التنسيق بينهما، ولكن فصائل النضال الوطنى الفلسطينى لاتؤمن بالتنسيق فزعاماتها لاتؤمن بالخضوع لزعامة واحدة، ولاتؤمن بالجمع بين الوسيلتين النضاليتين بمعنى أنها لاتؤمن بفائدة أن تترك للوسيلة التفاوضية أن تستنفد أغراضها، ثم تلجأ إلى الوسيلة الثانية، وهى وسيلة النضال المسلح! فتكون النتيجة أنها تعطل بعضها بعضا. والمستفيد هو إسرائيل!

(٥٤)
أزمة القيادة الفلسطينية(٢)

قلنا فى مقالنا السابق إن أحد أكبر سلبيات الحركة الوطنية الفلسطينية هى كثرة زعاماتها، بل ازدحامها بالزعامات. وهو أمر طبيعى يولده استمرار النضال الوطنى على مدى عشرات السنين. وهذه السمة تكون إيجابية إذا كان هناك تنسيق بين تكتيك الزعامات، وخضوعها جميعا لأوامر قيادة واحدة تدين جميعا لها بالولاء ولكنه يصبح ظاهرة سلبية إذا افتقدت إلى هذين العنصرين.

وهذا الكلام يفرضه فى علم الادارة قاعدة أساسية تسمى «وحدة القيادة والأمر» إذ يستحيل إدارة أى عمل إدارى ناجح بدون هذه القاعدة كما تفرضه القيادة فى الجيوش، وتفرضه القيادة فى الشعوب، فإذا تعدد الحكام ضاعت الشعوب!

ولكننا فى الحركة الوطنية الفلسطينية وفى الانتفاضة الأخيرة بوجه عام، نلاحظ أنه لايكاد السيد ياسر عرفات يصدر أمرا بوقف العنف، حتى تسارع حماس أو الجهاد، أو أى فصيلة أخرى، إلى إعلان أنه لن يلتزم بهذا الأمر! ولايمضى قليل من الوقت حتى تتم عملية استشهادية تنسف أمر ياسر عرفات وتعيد عملية المفاوضات إلى البداية!

وفى البداية نحن نوافق تماما بأن العمليات الاستشهادية هى ضرورة قصوى لأية حركة وطنية فى بلد محتل أعزل من السلاح، ولكن بشرط التنسيق مع القيادة السياسية! فإذا أعلنت القيادة السياسية أنها استنفدت أغراضها ووسائلها دون جدوى، انطلقت حركة النضال المسلح، لأن المحتل فى حاجة دائمة لمن يذكره بأنه ليس وحده الذى يستطيع إلحاق الضرر بالشعوب المحتلة، بل إن الشعوب المحتلة تستطيع أيضا أن تلحق به الضرر.

وهذا الكلام يصدق أكثر فى حالة فلسطين المحتلة! فالشعب الفلسطينى يعيش مع عدوه الإسرائيلى على أرض واحدة لاتفصلهما حدود سياسية، ومن حق الشعب الفلسطينى أن يشعر الشعب الإسرائيلى بأنه لن يعيش فى أمن وسلام إذا أصرت قيادته السياسية على تعنتها وعدم استجابتها للمطالب الوطنية للشعب الفلسطينى. وهذا ماتحققه العمليات الاستشهادية النبيلة التى يقوم بها الشباب الفلسطينى.

ولكن بشرط التنسيق، حتى لاتحبط العمليات الاستشهادية عمل الجهود التفاوضية التى تشترك فيها البلاد العربية، وعلى رأسها مصر، وتقوم بها أيضا الدول الأخرى، لأن عدم التنسيق يخرج الانتفاضة من حيز السيطرة السياسية! وهو أمر خطير لأنه إذا عجزت القيادة السياسية عن السيطرة، فقدت أهليتها للتعاقد، وهو ماتفعله الأعمال الفدائية تحديا للقيادة السياسية للأسف الشديد.

(٥٥)

فليطمئن عملاء النظام العراقى!

أستطيع أن أطمئن عملاء النظام العراقى، الذين يظهرون الجزع من حين لآخر خشية أن تضرب الولايات المتحدة العراق، أن الإدارة الأمريكية أذكى بكثير من أن تنقل فى العراق مافعلته فى أفغانستان، فتسقط النظام العراقى كما أسقطت طالبان فى أفغانستان السبب بسيط، هو أن وجود النظام العراقى الحالى هو الضمان الأكيد لبقاء القوات الأمريكية فى الخليج! فهو «خيال المآتة» الذى تخوف به الولايات المتحدة دول الخليج، فلا يجدون أمامهم من مفر إلا التمسك ببقاء القوات الأمريكية فى المنطقة لحمايتهم من هذا الشر المستطير!

ففى كل الأحوال فإن خطر النظام العراقى هو أشد بكثير من الخطر الأمريكى! فالخطر الذى يمثله النظام العراقى يلغى الوجود السياسى للدولة التى تحيلها كلية! فيزعم أنها إحدى محافظات العراق فى عصر مضى! كما فعل تماما مع الكويت، ولكن الخطر الأمريكى يقتصر على الاستنزاف الاقتصادى فقط، ولكنه يحافظ على الوجود السياسى.

وفى الوقت نفسه كان خطر النظام العراقى خطرا بربريا أعمى ومجنونا وأهوج! فلم يتردد أثناء احتلاله الكويت فى ضخ بترول الكويت

فى مياه الخليج بمعدل ٤ ملايين جالون يوميا! من غير أن يكون لذلك ضرورة عسكرية! الأمر الذى شكل كارثة بيئية أثرت على مياه الشرب والنباتات العائمة والأسماك والطيور والحياة البحرية التى كانت تزخر بها المنطقة!

ثم اختتم هذا العمل الإجرامى بإشعال النيران فى أكثر من ٦٣٠ بئرا للبترول شكلت كارثة بيئية أخرى لاتقل ضررا، وكلفت الكويت نحو ٧٥ مليار دولار! بدون أن يكون لهذا العمل أى مبرر عسكرى سوى الانتقام الأعمى، وتدمير القدرة الاقتصادية لدولة عربية مسلمة جارة وهى الكويت لرفضها الخضوع للادعاءات الكاذبة لصدام حسين!

ومن هنا نلاحظ أن الغارات الأمريكية على العراق طوال الفترة السابقة. لم تمس النظام العراقى. ولم يتهدد وجوده! وعلى العكس من ذلك فإنها كانت تدعم وجوده! لأنها كانت تصيب الشعب العراقى وحده، فتهب البلاد العربية لمناصرة النظام العراقى بدلا من مناصرة الشعب العراقى!

ومن هنا فإذا نفذت الولايات المتحدة وعيدها بضرب العراق، فلن يتعدى هذا الضرب الشعب العراقى إلى النظام العراقى - كما حدث فى أفغانستان - فالوجود الأمريكى فى الخليج مرتبط بوجود صدام حسين ونظامه فى الحكم.

ومن هنا فليطمئن عملاء النظام العراقى فى مصر وفى البلاد العربية، فالعلاقة بين الولايات المتحدة والنظام العراقى علاقة وجود لاينفك واحد منهما عن الآخر.

(٥٦)
الدبلوماسية الإسرائيلية والدبلوماسية العربية فى الميزان

استطاعت الدبلوماسية الإسرائيلية أن تحقق نصرا كبيرا بانحياز الهند إلى إسرائيل فى النظرة إلى الارهاب، وهى النظرة التى تعتبر نضال الشعب الفلسطينى من أجل الاستقلال والحرية والانعتاق من العبودية الإسرائيلية ارهابا!!

لم يسبق فى تاريخ حركات التحرر الوطنى أن اعتبر نضال الشعوب من أجل الاستقلال والحرية إرهابا حتى جاء يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ المشئوم لتفرض الولايات المتحدة على العالم هذا المفهوم المريض! وبذلك أصبح من حق إسرائيل أن تفرض احتلالها على الشعب الفلسطينى، وتنكل به وفصائله النضالية تنكيلا! فإذا دافع الشعب الفلسطينى عن أرضه وعن شرفه وعرضه، وواجه الاحتلال الإسرائيلى بالقوة اعتبر العالم هذا القوة ارهابا كأن المفروض فى مقاومة الشعوب للاحتلال الأجنبى أن تكون هذه المقاوقة بكل رقة وعذوبة وكياسة!

ولو كان الأمر كذلك لما تحرر اليوم أى شعب من شعوب العالم الثالث! ولا قامت ثورة فى بلد من البلاد!

وهذا يوضح أن الاستعمار القديم على يد انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا كان أرحم بكثير من الأستعمار الأمريكى الحالى، منذ أن كان استعمارا منفردا ومتصارعا بحكم التنافس الاستعمارى! - على سبيل المثال - ففى مصر كان مصطفى كامل يستعين بفرنسا ضد الاحتلال البريطانى وفى عهد عبد الناصر كان يستعين بالاتحاد السوفيتى ضد الولايات المتحدة واسرائيل، ولكن الاستعمار الأمريكى اليوم استعمار عالمى لاتقف ضده أية دولة وهو يحبذ خلفه العالم أجمع! ففى يده الأمم المتحدة وهو يسيطر على قرارات مجلس الأمن!

وبالتالى فلا منقذ منه إلا الله! فإذا حكمت الولايات المتحدة على أية دولة بأنها ترعى الارهاب، لاتستطيع أية دولة أن تخالفها فى هذا الرأى وإلا تعرضت للعقوبات التى فرضتها الولايات المتحدة باسم مجلس الأمن! وإذا قالت الولايات المتحدة إن حركتى حماس والجهاد حركتان إرهابيتان فلا يمكن لدولة أن تتعامل مع احداهما بوصفها حركة تحرر وطنى أو أنها حركة استقلالية! وإذا قالت الولايات المتحدة إن إسرائيل تمارس قمعها الوحشى للمقاومة الفلسطينية دفاعا عن نفسها وعن شعبها فلا تملك أية دولة مخالفتها فى هذا الرأى أو المنصرف على غير هذا الأساس!

إنها هجمة استعمارية غربية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية، كما أنها تخالف كل المواثيق الدولية والقانون الدولى التى أرستها الحضارة البشرية!

وبحكم سيطرة إسرائيل على الاعلام الغربى والأمريكى، استطاعت أن تصور العمليات الاستشهادية الشريفة للعالم فى شكل عمليات ارهابية وأنها لاتفترق عن عمليات يوم الحادى عشر من سبتمبر، وقد لعبت الدبلوماسية الاسرائيلية دورها فى تحويل هذه الصورة الزائفة إلى سياسة تغزو بها العالم، وتحبذ لها شعوب العالم وحكوماته!

وهو مايعنى تضييق الخناق على المقاومة الفلسطينية، ومحاولة خفقها دوليا باعتبارها حركة ارهابية! وهو ماتفلح فيه اسرائيل اليوم فى ظل غياب دبلوماسية عربية نشطة!

(٥٧)
الأزمة العربية بين الأبطال والخونة!

فى حوار طريف دار بينى وبين حفيدتى الصغيرة هايدى (أربع سنوات)، سألتها عما إذا كانت تفضل أداء فريضة الحج مع جدتها، أو الذهاب إلى محل السندويتشات الأمريكى المشهور؟ فأجابت بعد تفكير بأنها تفضل الذهاب إلى محل السندويتشات!

لم أتهمها بالعمالة لأمريكا كما يفعل الشيوعيون أو خرق قرارات المقاطعة التى تصدر تباعا فى عالمنا العربى ضد المحلات الأمريكية ولكنى سألتها عن السبب؟ فأجابت بأنها تفضل الذهاب إلى هذا المحل للعب فى الألعاب التى يوفرها للأطفال، من تزحلق وغوص فى بحر الكور الملونة الصغيرة وغيرها.

وعندئذ أدركت لماذا تكسب الولايات المتحدة ويخسر الآخرون! ولماذا تنتصر وينهزم الآخرون! إن الولايات المتحدة تكسب لأن الأمريكيين شعب مبتكر خلاق، يصنع من الفسيخ شربات حسب مثلنا الدارج ويخسر الآخرون لأنهم يصنعون من الشربات فسيخا!

فالمطاعم منذ القدم كانت مطاعم لتناول الطعام فقط، وفى المطاعم الراقية يلحق بها صالون لأحاديث الكبار ولكن أحدا لم يفكر

فى الأطفال غير الأمريكيين! وبذلك أضافوا إلى زبائنهم الأطفال وذويهم، وتحولت هذه المطاعم من مجرد مطاعم إلى مطاعم وملاهٍ للأطفال.

وقد كان تأثير ذلك فى المجتمع المصرى كبيرا، فبعد أن كانت هذه المطاعم مطاعم للكبار فقط، أصبحت مطاعم للكبار والأطفال، بل أصبحت مطاعم للأطفال قبل الكبار! واتسعت دائرة الرواد الاجتماعية! فبعد أن كان رواد هذه المطاعم من البورجوازية الصغيرة فقط، اتسعت لتشمل الطبقة التى هى أقل دخلا، وشملت الشباب والأطفال إلى جانب الكبار أى أصبحت مطاعم اجتماعية!

والغريب أنه على الرغم من أن هذه المطاعم وغيرها من المحلات الأمريكية تحظى بأكبر قدر من الطوب فى المظاهرات ضد العولمة وضد أمريكا التى تقوم فى مدن أوروبا، فإن الإقبال عليها لايقل! وقد كنت فى لندن فى عيد العمال فى العام السابق، وشاهدت هلع أصحاب المحلات الأمريكية من هذه المظاهرات وكيف غطوا فاترينات المحلات الزجاجية بألواح الخشب ولكن فى اليوم التالى كانت هذه المحلات ذاتها تفتح أبوابها للرواد الذين يقبلون عليها كما لو لم يكن قد قذفوها بالحجارة بالأمس!

فالأصل فى العقلية الأمريكية هو «المنفعة المتبادلة، فالمنفعة المتبادلة تجبر الأصدقاء والأعداء على التعامل وقد كانت مشكلة عالمنا العربى أنه يجهل هذه اللغة! فكان يطالب الولايات المتحدة بمقاطعة

إسرائيل، والانحياز للقضية الفلسطينية وللعرب. فى الوقت نفسه الذى يهاجم الولايات المتحدة ويناصبها العداء، وينحاز إلى جانب الاتحاد السوفيتى! وكانت إسرائيل تفعل العكس، وتشعر الولايات المتحدة بأن مصالحهما مشتركة.

وعندما اختط الرئيس الراحل السادات سياسة جديدة، بعد حرب أكتوبر، تقوم على المصالح المتبادلة مع الولايات المتحدة، ومحاولة إيجاد أرضية عربية أمريكية مشتركة توازى الأرضية الاسرائيلية الأمريكية المشتركة، تلقى ضربات دول جبهة الرفض، الذين هاجموا هذه السياسة دون أن يقدموا بديلا غير الحرب الكلامية التى يشنونها على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة! حتى دون أن يعدوا العدة لمواجهة عسكرية محتملة مع إسرائيل!

وبذلك تباعدت المصالح بين العرب والولايات المتحدة عن الوقت الذى كانت تتقارب بين إسرائيل والولايات المتحدة!

فلما وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كانت العلاقات بين العرب والولايات المتحدة قد وصلت إلى المرحلة التى بدأ فيها هجوم أسامة بن لادن للادارة الأمريكية فى شكل قمة المواجهة بين العالم العربى والإسلامى وبين الولايات المتحدة وخصوصا بعد أن حرصت قناة الجزيرة على اظهار فرح الشارع العربى للكارثة الأمريكية، وأظهرت أحد الشبان العرب فى العراق وهو يتحدث مبدعا عن الهدية التى قدمها أسامة بن لادن للعرب!

ولابأس كثيرا بأن تسير السياسة العربية على هذا المنوال - ولكن بشرط إعداد القوة الكافية للمواجهة! ولكن من سوء الحظ أن أعلى الأصوات القربية المطالبة بالنضال ضد الولايات المتحدة، هى أقلها إعدادا لهذه المواجهة!

ينطبق عليها قول الشاعر:

بغاث الطين أطوالها رقابا، وأقصرها البوازى والصقور

ضعاف الأسد أعلاها زئيرا، وأقواها اللواتى لاتزير!

وقد سبق لكوسيجن أنه قال: إن ثورية الكلام إذا لم تسندها قوة فعلية تكون خيانة!

ومن سوء الحظ أن الكثيرين فى عالمنا العربى خونة ولكن يعتبرهم العالم العربى أبطالا!

(٥٨)

شـارون عدو إسـرائيـل رقـم ١ ..!!

نزيف الدم الذى يحدث فى فلسطين المحتلة بين العرب واليهود، يتحمل وزره أمام التاريخ أرييل شارون رئيس الحكومة الإسرائيلية ويكفى أن نصفه بأنه لا مبرر له على الإطلاق! فوق أنه لاجدوى منه لليهود ولايحقق هدفا!

فالدولة اليهودية قد تحققت بالفعل، واعتراف العرب والفلسطينين بها قد حصل بالفعل! ومعنى ذلك أن أهم هدفين سعت إليهما الحركة اليهودية العالمية قد تحققا. وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يبغى شارون؟

إن الاعتراف بدولة فلسطينية مستقلة فى فلسطين هو أمر لمصلحة الدولة الإسرائيلية بالتأكيد، فهو يتيح لليهود المقيمين فى سلام، ويتيح للدولة الإسرائيلية أن تستمر وتفيد إسرائيل اقتصاديا ويتيح لإسرائيل أن تبدو أمام العالم الخارجى فى صورة دولة ديموقراطية وسط عالم عربى تحكم معظمه نظم سياسية مستبدة، بدلا من صورة القمع الوحشى الذى تقوم به حاليا ضد الفلسطينين.

ثم إن العرب أبدوا بالفعل رغبتهم فى العيش فى سلام مع إسرائيل بدليل ماأطلق عليه اسم «الهرولة» بعد اتفاق أوسلو، وأبدى الاسرائيليون هذه الرغبة عندما طردوا حكومة الليكود، ودفع اسحق

رابين حياته ثمنا للسلام مع العرب! وكل ذلك بشر بعصر جديد فى هذه المنطقة العربية قد تحقق تنبؤ الكاتب الكبير فكرى أباظة بأن تكون اسرائيل يوما ما عضوا فى جامعة الدول العربية إذا تحقق السلام بينها وبين العرب!

وبطبيعة الحال فإن السلام لايتحقق فى احتلال اسرائيل الأرض العربية! فهذا محال!

ثم إن هذا السلام يحقق رغبة جزء كبير من الشعب الإسرائيلى تعبر عنه «جماعات السلام الآن.. ولقد قال لى أحدهم، وهو الجنرال شلومو جازيت» أنه يفضل قيام دولة فلسطينية بأى ثمن حتى تكون اسرائيل دولة يهودية خالصة بالفعل، كما أنه لايفضل ضم القسم الفلسطينى إلى إسرائيل، لأن كل منها دولة عنصرية مثل جنوب أفريقيا، ولأن اعطاء الفلسطينين حق المواطنة الكاملة فى هذه الحالة سوف ينهى خصوصية الدولة اليهودية!

لم يكن الجنرال شلومو جازيت وكان حاكم عام الضفة الغربية اسرائيليا خائنا، وإنما كان وطنيا قحا، وبعيد النظر، وكذلك جماعات السلام الآن التى تنظم المظاهرات منذ سياسة شارون الحالية

لقد وصلت سياسة شارون بالصراع الإسرائيلى الفلسطينى إلى الذروة، فى حين كانت الآمال معقودة بعد أوسلو على قيام عهد جديد من السلام بين اليهود والفلسطينيين.

وقد كان خطأ شارون الأكبر أنه تصور أنه سوف يكسر شوكة الشعب الفلسطينى ويخضعه للحكم الإسرائيلى إلى الأبد! ولكن

النتيجة التى أسفرت عن هذه السياسة هى أنها أقنعت الشعب الفلسطينى بأن الحياة لن تكون لها قيمة فى ظل الاحتلال الإسرائيلى، وأن الموت أفضل بكثير!

ومن هنا جاءت ثورة الشهداء الحالية، التى بلغت ذروتها باستشهاد الفتاة وفاء إدريس فى عملية انتحارية، ودخول المرأة الفلسطينية هذه العمليات الاستشهادية! ومعنى ذلك اتساع نطاق المواجهة ليشمل كل فئات الشعب الفلسطينى منذ سبق دخول الأطفال! ثم كانت عملية تفجير الدبابة الإسرائيلية الأخيرة مما يعنى أن عزم الفلسطينين على النضال إلى أقصى مدى لن يثنيه دبابات اسرائيل ولا طائرات الأباتشى.

بل يعنى أننا أمام حرب فعلية عقد فيها الفلسطينيون العزم على النصر حتى ولو فنوا جميعا! وأن دماء اليهود سوف تنزف أكثر فأكثر مع نزيف الدم الفلسطينى!

وإذا ساءلنا أنفسنا: وماذا بعد؟ وأى هدف سوف يحققه شارون من سياسته كان الجواب إنه لن يحقق شيئا، لأنه ينسى أن الفلسطينيين ليسوا أكثر من رأس رمح للأمة العربية التى تعيش اسرائيل فى قلبها كما ينسى أن الأمة العربية ليست من قبيل الأمم البدائية، وإنما هى أمة ذات حضارة عريقة امتدت آلاف السنين، ولن يستطيع طاغية قمئ مثل شارون أن يخضعها وكل مايحققه حاليا للشعب الإسرائيلى هو سفك المزيد من دمائه، وتأجيج نار العداوة والحقد بين العرب واليهود بما يغلق الباب ضد أية «هرولة» جديدة فى المستقبل!

(٥٩)
القراءة الصحيحة لخطاب السفاح!

أراد السفاح الإسرائيلى شارون أن يتشبه بونستون تشرشل فى خطابه الشهير أثناء الحرب العالمية الثانية، فألقى خطابا يدعو فيه الشعب الإسرائيلى إلى الصمود ضد ماأسماه بالإرهاب! ونسى أن الشعب الإسرائيلى نفسه يعرف أنه يواجه حركة تحرر وطنى وليست حركة إرهاب! وإن هناك داخل الشعب الإسرائيلى قسم كبير جدا يطلق على نفسه اسم «حركة السلام الآن» يعرف الطريق الوحيد للسلام والأمن، وهو الدولة الفلسطينية المستقلة التى تعيش فى سلام مع الشعب الإسرائيلى.

كذلك ينسى السفاح شارون أن العالم كله يعرف أن مايجرى فى فلسطين المحتلة إنما هو حركة تحرر وطنى وليس حركة إرهاب وأنه حتى بالنسبة للحليف الاستراتيجى لإسرائيل وهو الولايات المتحدة، كأنها تفرق بين حق الشعب الفلسطينى فى قيام دولة مستقلة، ووجود فريق من الشعب الفلسطينى يرى أن النضال المسلح هو الطريق الوحيد لتحقيق الاستقلال، وهو مايسميه بالجناح الإرهابى! ولكن الأساس الذى تعرفه الدولة الأمريكية ويعرفه العالم أن مايواجه

إسرائيل إنما هو حركة تحرير وطنى تريد إنهاء الاحتلال الإسرائيلى وإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

ومعنى هذا الكلام أنه لايوجد خلاف على الإطلاق فى العالم الخارجى - وحتى داخل اسرائيل - حول حق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة، بل لايوجد خلاف داخل الإدارة الأمريكية حول هذا الحق!

وبالتالى فإذا أراد السفاح شارون أن يصور فى خطابه الهزيل المضلل الصراع بين الشعب الإسرائيلى والشعب الفلسطينى على أنه صراع بين الشعب الإسرائيلى والإرهاب، فإنه يقوم بمحاولة فاشلة لاتقنع أحدا، ولايقدم للشعب الإسرائيلى أملا!

وكل ما يمكن أن يخرج به المحلل السياسى من قراءة خطاب شارون، أنه لاأمل للشعب الفلسطينى فى الحصول على أى قدر من الاستقلال مادام حكم هذا السفاح قائما!

وبالتالى - ومايترتب على ذلك - فان الأمل الوحيد الباقى للشعب الفلسطنى فى تحقيق أهدافه الوطنية فى ظل حكومة شارون هو الكفاح المسلح، وهو ثورة الشهداء!

كما يترتب عليه أيضا أنه يجب على عرفات أن يكف عن تقديم تنازلات لشارون فلن يقبل هذا السفاح بأقل من رأس عرفات، ورأس كل فلسطينى لكى يوفر لشعبه الأمان،

أنه صراع حياة أو موت! فالسفاح الإسرائيلى يعتقد أن وجود الشعب الفلسطينى هو نفى لوجود الشعب الإسرائيلى!

وهو تصور مجنون من سفاح مجنون! ولكنه يؤدى إلى عدة نتائج أهمها ضرورة تضافر الجهود الفلسطينية والعربية والخارجية لإنهاء حكم السفاح شارون!

وفى الوقت نفسه فإنه يجب أن تنتهى سياسة التنازلات التى يقدمها ياسر عرفات لشارون، وآخرها التنازل المذهل المتمثل فى تسليم المناضلين الفلسطينيين الذين اغتالوا السفاح وزير السياحة الإسرائيلى، فقد كان أكثر تطرفا من شارون نفسه!

إنه يجب ألا تتكرر منه هذه التنازلات مع حكومة السفاح شارون، لسبب بسيط هو أنها تشجع التطرف الإسرائيلى! وتحبط أنصار السلام الإسرائيلى، وهو مايغلق الباب فى وجه أنصار السلام للنضال من أجل سلام حقيقى! فمادامت سياسة السفاح شارون تؤتى ثمارها، فلماذا يغير الشعب الإسرائيلى حكومة شارون؟

أما النتيجة الثالثة فهى أن الأمل الحقيقى فى أن ينال الشعب الفلسطينى حقوقه يتمثل فى ثورة الشهداء، وفى المزيد من عمليات الاستشهاد!

أقول ذلك وأنا أعلم أن من بين ضحايا عمليات الاستشهاد أنصار للسلام! وهو ماأوضحته «يائيل دايان ولكن دماء هؤلاء الضحايا تقع على رأس شارون، والحروب تحفل بضحايا لا حصر لهم من الأبرياء!

إننى لاأقول ذلك وقد أمضيت شطرا كبيرا من عمرى فى العمل من أجل السلام، ودفعت ثمنا باهظا لهذا العمل على صناع هزيمة يونيو! ولكن سياسة شارون لاتدع مجالا آخر غير الاستشهاد! فهو نضال عادل، يفقد فيه الشهيد حياته، قبل أن يدفع الضحايا من الإسرائيليين! وفى النهاية فإن مستقبل حكومة شارون فى يد الإسرائيليين، فعليهم أن يتخلصوا من هذا السفاح فى أقرب فرصة حتى يتوقف نزيف الدم من الطرفين!

(٦٠)

شارون.. نيرون إسرائيل

مايفعله شارون فى إسرائيل، هو نفس مافعله نيرون فى روما! إنه يحرق إسرائيل بحقده الأعمى على العرب وعلى الإسلام!

والمؤسف فى ذلك كله، أنه يحدث بدون أى مبرر! فقد اعترف العرب بإسرائيل ولم تعد توجد دولة ترفع شعار رمى إسرائيل فى البحر. كما اعترف أصحاب القضية الأصليون وهم الفلسطينيون وكان اتفاق أوسلو هو الإعلان عن ذلك! واعترف الإسرائيليون بالسلطة الفلسطينية، وهم يتفاوضون معها! ومن هنا فما يفعله شارون فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، أمر يفقد كل مبرر، بل إنه لامعنى له!

فماذا يريد شارون تماما؟ إنه يقول إنه يريد أمن إسرائيل، ولكن مايفعله يعرض أمن الإسرائيليين للخطر فى كل وقت، بل فى كل يوم وكل لحظة!

لقد ظن شارون أن القوة العسكرية الطاغية لاسرائيل، سوف تدخل الفلسطينيين فى الشقوق، ولكنهم واجهوه بأقوى من كل سلاح على وجه الأرض، وهو الاستغناء عن الحياة! لقد واجهوه بالاستشهاد،

وبذلك جردوا السلاح الاسرائيلى من كل قدرة على بث الخوف فى قلوبهم، أى جردوا السلاح الإسرائيلى من أى تأثير؛ فالحياة والموت يتساويان فى نظر الفلسطينيين!

بل ربما كان الموت أفضل! فالموت فى سبيل الوطن يعنى الحياة الأبدية فى نعيم الله وجنته وللآخرة خير وأبقى..! وإن هى إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة!

وهذا: هو المأزق الحقيقى الذى تواجهه اسرائيل! فهى لاتواجه شعبا مقبلا على الحياة، وإنما هى تواجه شعبا مقبلا على الموت!

لقد أراد شارون بعملياته الإجرامية أن يدخل الرعب فى قلوب الفلسطينيين، فإذا به يفعل العكس تماما. لقد نزع من قلوب الفلسطينيين الخوف من الموت، بل فعل ماهو أكثر، وهو أنه زرع فى قلوب الفلسطينيين الرغبة فى الموت، الذى أصبح يعنى فى نظرهم حياة أفضل من حياة الدنيا، إنها حياة وعدهم الله تعالى بأنها تكون خيرا وأبقى!

فى هذا الضوء فإن مايفعله، السفاح بطائراته ودباباته فى الأرض الفلسطينية، لن يحقق إلا نتيجة واحدة، هى سفك المزيد من دماء الإسرائيليين، وهى بث الرعب فى قلوب الإسرائيليين من حيث تواجدوا وراحوا أو غدوا!

لقد هاجر اليهود إلى إسرائيل لكى يعيشوا، لا لكى يموتوا! ولكى يأمنوا لا لكى يخافوا! ولكن شارون يقلب حياتهم موتا، وأمنهم فزعا

وخوفا. فلا يأمن الواحد منهم حين يخرج من بيته أن يعود أو حين يأوى إلى فراشه أن يستيقظ!

إن شارون يحرق اسرائيل كما فعل نيرون بروما! وفى الوقت نفسه يحرق المستقبل! إذ كيف يطمع فى أن يكون لاسرائيل مكان آمن فى المنطقة العربية، وهو يذبح الفلسطينين فى كل يوم! ويهين الشعوب العربية والإسلامية فى كل وقت؟

لو درس تاريخ المنطقة العربية جيدا لعرف أن مايفعله عبث فى عبث وأنه قصير نظر، أو أنه يضرب رأسه فى صخر الحضارة العربية العريقة وأنه يحرم إسرائيل من فرصة الحياة فى المنطقة العربية فى أمان وسلام!

(٦١)

تمثيلية ضرب العراق!

سوف أكون أكبر المنافقين إذا أبديت أى جزع على النظام العراقى من أية ضربة أمريكية بريطانية تصيبيه! فجزعى الوحيد على الشعب العراقى الذى أخشى أن تصيبه وحده الضربة! كما جرت العادة فى كل الضربات السابقة! وأكثر من ذلك فإنى أشك كثيرا فى إخلاص الولايات المتحدة فى التخلص من النظام العراقى! حتى لو كان يصنع القنبلة الذرية! فقد علمنا هذا النظام أنه يوجه ضرباته إلى الداخل ـ أى إلى أهله وعشيرته، أى إلى الأمة الإسلامية والأمة العربية! ولن ننسى أن صواريخ «سكود» التى كان يطلقها أيام حرب الخليج، كان يوزعها بالعدل القطاعى بين اسرائيل والرياض المسلمة! وفى حين ألحقت أضرار بالرياض فان الأضرار التى ألحقتها باسرائيل لاتذكر! وقد استهزأ بها الشعب الإسرائيلى!

إننى أريد أن أنبه الرؤساء العرب إلى أن غارة شنتها الطائرات الأمريكية على العراق فى الماضى، استفاد منها النظام العراقى فى تشديد قبضته على عنق الشعب العراقى، وفى كسب التعاطف معه من الشعوب العربية، وفى إعلان النظم العربية مساندته، وأكثر من ذلك

مساندة بعض الدول الأوربية، التى لها مصالح اقتصادية مع هذا النظام، مثل فرنسا وروسيا!

ومعنى ذلك أن النظام العراقى يكسب دائما، والشعب العراقى يخسر دائما وتضيق فرص إنقاذه من قبضة هذا النظام! فالتهديد الأمريكى كان على الدوام خيرا وبركة ودعما للنظام العراقى يخسر دائما وتضيق فرص إنقاذه من قبضة هذا النظام!

فالتهديد الأمريكى كان على الدوام خيرا وبركة ودعما للنظام العراقى، وخسارة محققة للشعب العراقى! لقد كان على الدوام مجرد تمثيلية!

ولست أدرى إلى متى تسكت النظم العربية على مايعانيه شعب العراق تحت حكم هذا الطاغية؟

أما آن الأوان لأن تتخذ الدول العربية موقفا اشتراطيا، بأن تشترط الوقوف إلى جانب النظام العراقى أن يفك أسر الشعب العراقى السجين، وينهى هذا الحكم الدكتاتورى الدموى الذى حول شعب العراق من أغنى شعب فى المنطقة العربية إلى أفقر شعب. وقضى على حيوية هذا الشعب العظيم وعلى خصوبته بنظامه الجهنمى الذى جعل من كل ابن جاسوسا على أبيه، ومن كل أخ جاسوسا على أخيه من كل أب جاسوسا على ابنه.. إلى آخره!

هذا النظام الفاشى الذى يتخذه الغرب عنوانا على فساد المنطقة العربية! بل يتخذه وسيلة لمهاجمة الإسلام والطعن عليه أما آن الأوان

لوقفة معه من الدول العربية تعيده إلى صوابه لحساب الشعب العراقى بعد أن ضاعت هذه الفرصة عند ارتكاب هذا النظام جريمة اجتياح الكويت وتشريد شعبه!

لقد كان موقف الكثير من النظم العربية مخزيا، لايتفق مع الإسلام ولا مع مارسمه الإسلام لمواجهة هذه الأحداث! لقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم! «وإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله»

ولو اتبعت النظم العربية هذا الأمر الإلهى، وأطفأت بنفسها النار، لما أتيح لأمريكا ودول الغرب التصدى لإطفائها بالثمن الغالى، وهو ثروة الخليج البترولية

ولو أنها تكاتفت للقضاء على هذا النظام، لما بقيت ذريعة لبقاء الطائرات الأمريكية والبريطانية لحراسة أمن ودول الخليج! على حساب ميزانيات دول الخليج!

كان الرئيس محمد حسنى مبارك وحده فى ذلك الحين ينبه إلى الخطر! وقد حدثت مهازل كثيرة من حكام عرب، أتاحت لأمريكا تزعم حملة تحرير الكويت. ولم يخرج الغازى العراقى من الكويت إلا بعد أن أشعل النار فى مئات من آبار بترول الكويت، تحت أعين الدول العربية وسمعها، فما تحركت! بل إن الكثير منها صدقت أكاذيب هذا النظام العراقى المشئوم عند انسحابه مهزوما من الكويت، فأعلنت لشعوبها أنه انتصر على قوات ٣٣ دولة!!

إن الوضع المخزى الحالى للدول العربية وهى تواجه صلف شارون، وتراقب وهى عاجزة تنكيله بالشعب الفلسطينى، يرجع جزء كبير منه لهذا النظام الذى وجه حرابه للمسلمين وللعرب، ولكن منهم الأعداء الاستعماريين!

ومن هنا لعل الوقت قد حان لوقفة عربية تزيح هذا الكابوس عن الشعب العراقى وعن شعوب الخليج وعن شعوب الأمة العربية! وعلينا أن نصدق كلام الله تعالى: إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!» صدق الله العظيم.

(٦٢)

الهمجى وفرص السلام الضائعة!

كنت أظن أن «بنيامين نتنياهو هو أغبى رئيس وزراء اسرائيلى» حتى جاء شارون ليثبت أنه الأغبى! وهذا الكلام ليس كلامى وحدى، وإنما هو كلام جميع الاسرائيليين الذين ينتمون إلى حركة «السلام الآن» التى ظهرت بعض مبادرة القدس.

ومعنى هذا الكلام أن اسرائيل أصبحت تنافس العالم فى عدد الزعماء الأغبياء الذين يعملون ضد مصالح أمتهم! وأكثر من ذلك أن اسرائيل أصبحت تتفوق على العرب فى عدد الفرص الضائعة للسلام!

وإذا كنا لانلوم العرب على كثرة عدد الزعماء الذين ضيعوا بحماقاتهم مصالح شعوبهم لما هو معروف من غياب دور الشعوب العربية فى اختيارهم، فما هو عذر الشعب الإسرائيلى؟

إن الشعب الإسرائيلى يتمتع بنظام ديمقراطى يتيح له اختيار زعمائه ورؤساء وزرائه. وقد اختار الشعب الإسرائيلى شارون بمحض إرادته الحرة الطليقة، بعد أن صدق مامناه به شارون من الأمن! واليوم بعد أن أصبح كل اسرائيلى لايأمن على حياته فى أى مكان يتواجد

فيه، سواء فى الشارع أو النادى أو الملهى أو فى البيت أو سيارته الخاصة أوالأوتوبيس العام - فإن سؤالى الذى يطرح نفسه! هل أنجز شارون ماوعد؟ وهل حقق الأمان للإسرائيليين؟ أليست الفترة الحالية التى يحكم فيها شارون هى الفترة التى تدهور فيها الأمن فى اسرائيل بما لم يسبق له مثيل فى تاريخ إسرائيل كله؟

أليس من الغريب أن شعبا ذكيا مثل الشعب الإسرائيلى يتصور أنه يستطيع أن يحقق لنفسه الأمن عن طريق القوة والعنف والبطش واحتلال أرض الغير بالقوة المسلحة؟

لقد تصور الشعب الاسرائيلى ذلك بعد حرب يونيه ١٩٦٧، واعتقد أن احتلاله لسيناء سوف يضمن له الأمن من جانب أقوى دولة فى المنطقة العربية وهى مصر وزاد فى تأمين نفسه عن طريق بناء خط بارليف الذى أعلن موشى ديان أنه لو اجتمع سلاحا المهندسين الأمريكى والسوفيتى على تدميره فلن يستطيعا ثم فوجئ الشعب الإسرائيلى بالقوات المسلحة المصرية تدمر خط بارليف فى ست ساعات، وتتقدم فى سيناء! وتهاوت نظرية الأمن الاسرائيلى!

وفى الواقع أن الأمن لم يتحقق بالفعل الاسرائيلى من جانب مصر الا بعد جلاء قواتها عن كل شبر من أراضى سيناء، وعقد معاهدة سلام بينها وبين مصر، فمنذ ذلك الحين تحقق أمن اسرائيل من جانب مصر.

ومعنى هذا الكلام أن لدى الشعب الاسرائيلى تجربة فعلية كبيرة حصل بها على الأمن الحقيقى والسلام الحقيقى، فإذا جاء شارون يريد أن يفرض الأمن بالقوة والبطش واحتلال الأرض كأنه يكون فى أحسن الأحوال سياسيا فاشلا، وفشله منطلق من غباء سياسى عظيم! وإذا رفض المبادرة السعودية للسلام فإنه يكون قد أثبت همجية تتجاهل ظروف العصر الحاضر! ولئن كان ذلك مفهوما فى الزمن الماضى عندما كانت الدول العربية تريد أن ترمى باسرائيل فى البحر، أما اليوم بعد التطورات الهائلة فى العقلية العربية بقبول اسرائيل والاعتراف بها فى مقابل جلائها عن الأرض المحتلة، وبعد أن اعترف الفلسطينيون أنفسهم وعقدوا معها اتفاق أوسلو فلا يدرى أحد مايريد شارون من هذه السياسة الدموية الفاشلة؟ إنه إذا ظن أن اسرائيل يمكن أن تبقى فى هذه المنطقة العربية العريقة ذات الحضارة العظيمة بالقوات المسلحة إلى أبد الدهر، عن طريق احتلال الأرض، فإنه يكون مخطئا فى حق الشعب الإسرائيلى قبل أن يكون مخطئا فى حق الشعب الفلسطينى لأنه يفقد اسرائيل فرصة للسلام حقيقية مع العرب لم تسنح لها من قبل. فإسرائيل دخيل فى المنطقة العربية وليس امامها من بديل غير تسليم الأرض مقابل الأمن والسلام!

(٦٣)
الحقد الذى يزرعه شارون!

كان ياسر عرفات فى منتهى الذكاء عندما أعلن أنه يفضل أن يكون شهيدا! أى أن يموت فى هذه المعركة فلو قتله شارون فسيصبح قديسا، وسيكون شارون قد قدم له خدمة العمر، وهى خدمة يتمناها كل مناضل وهى أن يموت فى ميدان القتال.

ونذكر فى هذا الصدد أن خالد بن الوليد كان يتوجع وهو على فراش الموت أن جسده به مائة طعنة وطعنة، ولكن واحدة منها لم تنله الشهادة التى كان يطمع فيها فى ميدان القتال!

ومن يتابع مايحدث فى الأرض الفلسطينية المحتلة سوف يلاحظ أن كل مايجرى من عمليات يقوم بها شارون، إنما يخدم القضية الفلسطينينة عالميا، ويسىء إلى اسرائيل عالميا أيضا!

وفى الوقت نفسه فإنه يكلف الشعب الإسرائيلى غاليا من دم أبنائه لأن عدد طالبى الشهادة من أبناء الشعب الفلطسينى يتزايد مع كل غارة إسرائيلية ولم يعد الأمر مقصورا على الشبان الفلسطينيين، وإنما انضم إليهم الشابات الصغيرات! وكل زيادة فى عدد طالبى الشهادة

يعنى زيادة فى عدد الضحايا من الاسرائيليين والاسرائيليات! فكل شهيد أو شهيدة يساوى عددا من القتلى الاسرائيليين، الذين يروحون ضحية سياسة شارون وعصابته!

وكل ذلك مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحركات الوطنية.

والمؤسف فى ذلك بالنسبة للاسرائيليين أن لكل فلسطينى يستشهد سببا للاستشهاده، وهو الدفاع عن الأرض والشرف والعرض، ولكن لايوجد سبب واحد لموت أى إسرائيلى غير سياسة شارون الدموية الحمقاء! فالفلسطينيون لايهدرون الوجود الإسرائيلى فى فلسطين! فهم يعترفون بالدولة الاسرائيلية، وكل مايطالبون به أن يكون لهم نفس الحقوق التى للاسرائيليين، أى دولة مستقلة ذات سيادة يمارسون فيها حياتهم الطبيعية كما يمارسها الاسرائيليون!

فإذا جاء شارون، وعصابته، يريدون حرمان الشعب الفلسطينى من قيمة الحياة الحرة على الأرض التى ولدوا بها وترعرعواوشبوا فيها، فانهم يدفعونهم دفعا إلى هذا الاختيار الرهيب بين الموت والحياة.

وهو مايحدث حاليا! فماذا ينتظر من شاب فلسطينى يرى أبواب المستقبل أمامه موصدة، غير الموت.. الموت بشرف وكرامة وكبرياء!

ومن سوء حظ اسرائيل أن التقدم العالمى الكبير الذى قطعته البشرية فى ميدان أدوات الدمار، قد أتاح لفرد واحد أن يخفى فوق جلده من المتفجرات مايقتل به عشرات ومئات من الأعداء.

ولقد كان هذا السلاح فى الماضى قليل الأهمية، لأنه يكلف حياة الفرد الذى عمله، وكانت الحياة على الدوام أعلى من كل قضية، حتى جاء شارون بسياسته الانتحارية العمياء التى لاتفرق بين مصلحة فلسطين، ومصلحة اسرائيل، فكسر الحاجز الانسانى الموروث والمزروع فى قلب كل إنسان، بين الموت والحياة، ولأول مرة فقدت الحياة كل قيمة لها فى عين كل فلسطينى، وأصبح الموت عنده بشرف أكرم وأعظم من حياة ذليلة تحت أقدام شارون وعصابته.

وعلى هذا النحو تحول الشعب الفلسطينى إلى شعب يعتنق كلمة الإمام على الخالدة: أقبل على الموت توهب لك الحياة إذ تزايد عدد طالبى الشهادة من الشباب الفلسطينى بدرجة سوف تؤثر على مستقبل الشعب الاسرائيلى مدى الحياة! فلن يهنأ للشعب الإسرائيلى عيش تحت هذه السياسة الخرقاء لشارون. وما لم يسارع الشعب الاسرائيلى بالتخلص منه، فانه سوف يدفع ثمنا غاليا من حياته ورضائه وتقدمه وأمنه واستقراره! فلن يترك الفلسطينيون ثأرهم، وسينتقمون من كل اسرائيلى، ليس فقط داخل اسرائيل، وإنما فى أقصى الأرض!

إن شارون يزرع الحقد، وسيجنى الشعب الاسرائيلى الثمار!

(٦٤)
انتبهوا إلى هذا السيناريو!!

سبق أن أطلقت على القضية الفلسطينية اسم القضية المشئومة! فقد دخلت مصر بسببها أربع حروب، كلفتها نحو خمسة مليارات من الدولارات، فضلا عن استشهاد ألوف المصريين، وعطلت بذلك تقدم مصر.

وفى الوقت نفسه اتخذت هذه القضية ذريعة فى بعض البلاد العربية لسيطرة نظم عسكرية عليها تاجرت بالقضية الفلسطينية وأخرت تقدم شعوبها، وكانت كما وصفها المرحوم الملك الحسن ملك المغرب أشبه بشجرة ضخمة، أخفت وراءها مايدور داخل الغابة من صراع وحوش وزواحف وغيرها!

والمتتبع لسير الأحداث فى هذه الأيام، سوف يكتشف أن البلاد العربية مسوقة إلى كارثة جديدة!.. كارثة تصدها الأقدار! أو تعدها قوى أخرى ترى من مصلحتها تصاعد شعور الإحباط العربى إلى درجة الانفجار وإلى درجة دفع الدول العربية إلى اتخاذ خطوات مقهورة بدون أى استعداد عسكرى لمواجهة عواقبها!

فالسيناريو الذى يجرى حاليا يسير على النحو الآتى: عمليات استشهادية مشروعة، يترتب عليها عمليات قمع اسرائيلى وحشى وغزو بربرى لمدن السلطة الفلسطينية وانتقام بشع من المدنيين الفلسطينيين، فيثور الشارع العربى، ويطالب حكامه باتخاذ إجراءات رادعة ضد اسرائيل وضد الولايات المتحدة! ثم يعقب ذلك عمليات استشهادية مشروعة أخرى تواجهها اسرائيل بالقمع الوحشى بما يشعل النار فى الشارع المصرى لدفع حكامه إلى اتخاذ اجراءات تردع اسرائيل. ويتبع ذلك عمليات استشهادية أخرى، تتلوها الاجراءات الاسرائيلية الوحشية المعهودة، فثورة الشارع العربى.. إلى آخره!

سلسلة لا نهاية لها من الفعل ورد الفعل، يتابعها العرب والإدارة الأمريكية من وجهتى نظر متناقضة! فالعرب ينظرون إلى العمليات الاستشهادية باعتبارها مقاومة وطنية مشروعة، وهم محقون فى ذلك، لأنها كذلك بالفعل، والادارة الأمريكية تنظر إلى هذه العمليات باعتبارها ارهابا! وتعطى لاسرائيل الحق فى قمعها! وهذا الموقف الأمريكى يثير الشارع العربى ضد السياسة الأمريكية والمصالح الأمريكية، ويحرك ضغوطا شعبية هائلة على اتساع رقعة الوطن العربى، ومطالبة ملحة للنظم العربية القائمة باتخاذ اجراءات رادعة ضد اسرائيل! واسرائيل لايسعدها شئ قدر أن يتخذ الحكومات العربية ضدها اجراءات غير محسوبة ضدها أو ضد الولايات المتحدة، فتحقق ماعجزت عن تحقيقه منذ انشائها إلى اليوم فى ظروف مساندة أمريكية لم يسبق لها مثيل!

واسرائيل تفهم الموقف العربى جيداً! فهى تعلم أن هناك بعض الرؤساء العرب يهزلون ويقترحون مقترحات فارغة للاستهلاك المحلى، مثل مقترحات فتح الحدود مع اسرائيل لتنطلق فيها الجماهير العربية لتحرير الفلسطينيين! وهو تماما ماطالبت به الجماهير الباكستانية لنجده الشعب الأفغانى! فخرج عشرات الألوف إلى أفغانستان ولم يعودوا إلى اليوم!

وهناك حكام آخرون يتقنون اطلاق المقترحات الخيالية للاستهلاك المحلى، واكتساب بطولات على حساب الكوارث التى تكمن بالفلسطينيين!

والآن، وبعد كل ردود الفعل الجماهيرية الغاضبة الواسعة النطاق احتجاجا على حصار الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات، والتى شملت المدن المصرية، فإن السؤال الذى يطرح نفسه:

ترى ماذا سوف يكون عليه رد الفعل لو قتلت اسرائيل ياسر عرفات! وإذا كان حصاره قد أدى إلى كل هذه الثورة الجماهيرية الشاملة التى هى تعبير أمين عن شعور حقيقى بالغضب والاحباط؟

أليس السيناريو الذى يجرى اليوم يتجه نحو اعلان بعض الدول العربية الحرب على اسرائيل؟ فإذا لم تفعل لقيت الادانة من الجماهير العربية التى تحكمها عواطفها!

إن الملاحظ أن الضغوط اليوم تتركز على مصر والأردن بسبب المعاهدات التى تربطها بإسرائيل، فهى ترى فى فخ هذه المعاهدات

تحريراً للفلسطينيين ولا تتركز حول البلاد التى تحتل إسرائيل جزءا كبيرا من أرضها! أو بلاد تتعرض لتهديدات أمريكية.

وبالتالى فمن الضرورى التنبه إلى السيناريو الذى يجرى حاليا، فهو يقود الأمة العربية إلى كارثة!

(٦٥)

الدجل السياسى وفتح الحدود

بعض حكامنا العرب يستخفون بعقل جماهيرنا، فلا يجدون من وسيلة لمواجهة إجراءات لقمع الإسرائيلية الوحشية، غير شعار فتح الحدود إلى إسرائيل! وبطبيعة الحال فهى دعوة موجهة بالذات إلى مصر والأردن اللتين تربطهما بإسرائيل حدود مشتركة، وتربطهما فى الوقت نفسه معاهدات سلام!

ويتصور هؤلاء الحكام أننا فى زمن الفتوحات الإسلامية حيث الحروب بالسيف والرماح، والنصر بكثرة عدد المهاجمين!

كما يتصورون أنه لاتكاد تفتح مصر والأردن الحدود حتى يركب كل عربى ناقته أو حصانه ويطلق له العنان ممتشقا سيفه، منقضا على الإسرائيليين فى مواقعهم، فلا يلبثون أن يقعوا منهزمين! هذا هو مفهوم الحدود المفتوحة يضلل به بعض الحكام العرب الشعوب العربية.

وقد سبق للرئيس مبارك أن أعلن أنه يرحب بكل حاكم عربى يريد أن يقاتل إسرائيل، فما رأينا فارسا واحدا قادما بخوذته وسيفه ينهب الأرض نهبا ليخترق الحدود المصرية الإسرائيلية مع قبيلته ليحرر الفلسطينيين من النير الإسرائيلى!

ولقد كان أحدث سلاح اخترعه أحد الحكام لإلحاق الهزيمة بإسرائيل، هو الامتناع عن الإدلاء بتصريحات للصحافة أو مقابلة الصحفيين!

فهل هذا معقول؟ إن الحاكم إياه يتصور أنه بهذا السلاح الماضى سوف يصيب الإسرائيليين بالهلع، وسوف يجبرهم على وقف اعتداءاتهم على الفلسطينيين!

وحاكم مناضل آخر يرى الحل فى عقد اجتماع قمة عربية أخرى تسحب المبادرة السعودية، ناسيا أن إسرائيل رفضت هذه المبادرة، ولم يعد يخشى منها شيئا!

وليتصور القارئ أن هذه هى أسلحة بعض الحكام العرب لوقف عدوان إسرائيل على الفلسطينيين، وإنهاء حصارهم لياسر عرفات، وليقارن بين هذا الهزل ومايقوم به الفلسطينيون من نضال جاد يشترك فيه الرجال والنساء!

لقد كانت مصيبة القضية الفلسطينية الحقيقية هى هؤلاء الحكام وأمثالهم ممن ضيعوا الفرص على الفلسطينيين تحت زعم الصمود والتصدى، فكان الصمود هو استمرار احتلال إسرائيل للأراضى إلى اليوم، وكان التصدى تصديا ورقيا وكلاميا، وظل الأمر كذلك إلى اليوم!

(٦٦)

عيب يا قناة الجزيـرة!

تحرص قناة الجزيرة على أن تنتقى من أخبار الصحف العربية مايسىء إلى مصر، وإلى رئيسها حتى ولو كانت هذه الصحف من الصحف المغمورة والصفراء التى لايقرؤها أحد.

ومن هنا فهى تحرص على أن تنقل على محطتها الواسعة الانتشار ماتكتبه جريدة مغمورة لايدرى بها أحد، ولم يسمع بها المصريون، تتمسح فى اسم القدس للتضليل، وتدعى القدس العربى، ويرأسها فلسطينى عراقى، أو لعله عراقى فلسطينى يعمل لحساب النظام العراقى، يدعى عبد البارى عطوان.

وعبد البارى عطوان هذا ذيل من أذيال النظام العراقى، وبوق من أبواقه. وبفضل اتفاقات خاصة مع النظام العراقى فان قناة الجزيرة تحرص على استدعاء هذا العبد بارى عطوان فى حواراتها وبرامجها وندواتها حتى أصبح اسما معروفا لمن يشاهد قناة الجزيرة. وهذه إحدى غرائب العصر. فقد جرت العادة على أن يشتهر الكتاب العرب من خلال كتاباتهم فى الصحف الواسعة الانتشار، ولكن فى هذه الحالة

نشاهد ظاهرة اشتهار كتاب مغمورين ليس لهم رصيد وطنى أو ثقافى عن طريق القنوات الفضائية، ومن هؤلاء السيد عبدالبارى عطوان.

فمنذ عدة أيام فاجأتنا قناة الجزيرة بنقل مقتبسات من جريدة القدس العربى التى يرأس تحريرها السيد عبد البارى عطوان ينفث فيها حقده وحقد سادته على الرئيس حسنى مبارك، ففى الوقت الذى يرسل الرئيس مبارك رسالته التحذيرية للرئيس الأمريكى جورج بوش، ويبذل جهودا متواصلة لوقف الاعتداءات الإسرائيلية الغاشمة على الشعب الفلسطينى، يفاجئنا السيد عبد البارى عطوان بخبر ملفق يدعى أنه من مصدر مقرب من الرئاسة يزعم فيه أن الرئيس فى حالة عزلة بسبب تهميش دور مصر فى الأحداث الجارية.

ومثل هذا الهذر الفارغ حين تنشره جريدة عبد البارى عطوان فإنه لايلتفت إليه أحد، ولكن حين تتبناه قناة فضائية مثل الجزيرة فلا يكون له من معنى إلا الرغبة فى نشر هذا الهراء وتعميمه لتسمعه الجماهير العربية. وبذلك يكف هذا الرأى عن أن يكون رأى عبد البارى عطوان ويصبح رأى قناة الجزيرة

فالسؤال الذى يتطلب ردا ماالذى أعجب قناة الجزيرة فى هذا الهراء الذى نقلته من جريدة القدس العربى، فى الوقت الذى تتجاهل فيه كل مايكتب فى الصحف المصرية واسعة الانتشار مثل الأهرام والجمهورية والأخبار، وحتى صحف المعارضة مثل الوفد..

وحـين يقــارن المرء هذا الموقف للقنـاة من الرئيس مــبـــارك، من مـواقف أخرى تظهر فـيـهـا القناة كـامل احـتـرامـهـا وتـوقـيـرها لـبـعض الزعماء العرب الذين يتاجرون بالقضية الفلسطينية علنا أمام شعوبهم ولايخدمونها إلا بالكلام والخطب الرنانة، فإن المرء ليعجب ويأسف.

(٦٧)
الوحـوش

أعـتـقـد أن مـافـعلتـه حكومـة شـارون فى هذه الأيام، من تنكيل بالفلسطينيين، وهدم لبيوتهم، واعتقال وسجن وقتل، بما لم يسبق له مثيل، إنما هو نقطة فارقه فى علاقات إسرائيل بهذه المنطقة العربية.

لقد كشفت إسرائيل فى هذه العمليات عن وجه قبيح جداً، وعدو لدود للعرب وحقود، بحيث أصبح على العرب أن يضعوا ذلك فى حسبانهم فى مستقبل علاقاتهم بالمنطقة العربية وبإسرائيل!

لم يكن للعمليات الوحشية التى قامت بها حكومة شارون أى مبرر على الإطلاق! فلم يطالب الفلسطينيون بإلغاء الدولة العبرية، أو إلقائها فى البحر كما كان الحال من قبل، وإنما كانوا يطالبون بحق الوجود والحياة إلى جانب الدولة العبرية. وفى الوقت نفسه فإن العمليات الاستشهادية التى قام بها المناضلون الفلسطينيون، لم تكن عمليات عدوانية، وإنما كانت عمليات دفاع عن النفس! فإذا كان الخصم يحتل بيتى ويرفض الخروج منه، فإن من حقى أن أفعل كل شىء لحمله على الخروج ولو أن هذه العمليات الاستشهادية كانت

لإلقاء إسرائيل فى البحر، لكان من حق الإسرائيليين أن يواجهوها بكل ماالديهم من قوة.

لن يغفر التاريخ للإسرائيليين ماقاموا به فى المدن الفلسطينية فى هذه الأيام، ولن يجدوا محاميا يدافع عنهم أمام التاريخ. فحتى لو كان مافعلوه ردا على العمليات الاستشهادية التى قام بها الفلسطينيون، فإن هذه العمليات ماكانت تستدعى للرد عليها كل هذا البطش والوحشية التى تجاوزت حدود رد الفعل.

فمن المسلم به أن رد الفعل يجب أن يساوى الفعل، ولايتجاوزه. فإذا صفع أحد الآخر على وجهه ورد هذا الآخر بقتل من صفعه، فإنه يدان ويقبض عليه ويحكم عليه بالسجن كقاتل.

قبل هذه العمليات الوحشية التى قامت بها حكومة شارون، كان مايزال هناك بصيص من أمل فى تعايش سلمى بين العرب والإسرائيليين، إذا تغيرت حكومة شارون وحلت محلها حكومة سلامية. ولكن مافعلته حكومة شارون أطفأت هذا البصيص من الأمل، وأنذرت بمستقبل أسود بين العرب وإسرائيل.

وفى رأيى الشخصى أنه على الحكومات العربية ألا تستبعد قيام صدام مسلح بينها وبين إسرائيل فى المستقبل، وألا تركن إلى أية أقوال تصدر من هؤلاء، وإذا فعلت ذلك الدول العربية فعليها أن تستوعب دروس الماضى، فلا ترتكب الأخطاء البشعة التى ارتكبتها فى الحروب

السابقة والتى أتاحت لإسرائيل الانتصار عليها. وعليها أن تدرس أسباب النكسات التى أصابت الأمة العربية على يد إسرائيل. وسوف تكتشف أن السبب الأساسى فى كل هذه النكسات إنما هو غياب الديموقراطية وحكم العسكر.

لقد كان حكم العسكر شؤما على الأمة العربية. فقد ارتكب من الحماقات العسكرية ما لم يسبق له مثيل من قبل. وعلى يديه منيت الأمة العربية بهزائم عسكرية شنيعة. ولم يخدم هذا الحكم الأمة العربية بحال من الأحوال، وإنما كان الحرب عليها. لقد آن الأوان لأن تتخلص الأمة العربية من بقايا هذا الحكم العسكرى الباطش، وتدع لشعوبها حرية القرار فى مصائره.

تريد الأمة العربية حكاما يخدعونها ببزتهم العسكرية، يخوفون بها شعوبهم، ويتشدقون بتهديدات عسكرية، لايملكون قوة تنفيذها.

فإذا ظلت الأمة العربية أسيرة هذا اللون من الحكم العسكرى فكيف ينتظر منها أن تخلص الوطن العربى من هؤلاء الوحوش.

(٦٨)

المرور فى رمضان يا وزير الداخلية!

رمضان شهر عبادة، ولكن المصريين حولوه إلى شهر ترفيه وسهر ومآدب واحتفالات! وأما العبادة فقد خضعت لظروف الحياة الاقتصادية والتكالب على المادة، فاختفى جوهرها، ولم يبق إلا شكلها المتمثل فى الناحية الطقسية، أى الصلاة والصوم!

وحتى بالنسبة للصلاة، فقد اقتصرت بالنسبة للكثيرين على صلاة الظهر، لما فيها من فوائد التهرب من العمل فى أماكن العمل، التى لايخلو دور فى كل مبنى من مصلى واسع، ومؤذن متخصص، وإمام متخصص! وأما بقية الصلوات فينتفع فيها برخصة تأخيرها وعدم الالتزام بأدائها وقت الأذان كما يحدث فى أماكن العمل!

عندما كنت صغيرا كنت أعرف صلاة اسمها صلاة التراويح، وهى صلاة تؤدى بعد صلاة العشاء وليست فرضا، وإنما هى سنة غير مؤكدة. وعدد ركعاتها عشرون ركعة، وكنت أتبارى مع أقرانى، فتزيد حتى تصل إلى أربعين!

ولست أدرى هل تسمح ظروف العصر من العمل الشاق طول النهار فضلا عن العمل الإضافى، بالإقبال على أداء هذه السنة فى القاهرة،

أولا؟ ولكنها كانت رياضة يحتاجها الجسم بعد تناول طعام الإفطار الدسم!

وعلى كل حال، فإذا كان المصريون قد أحالوا شهر رمضان من شهر عبادة إلى شهر طعام وشراب ومآدب، فإن وزارة الداخلية المصرية أحالت هذا الشهر الكريم إلى شهر عناء وعذاب مرورى يمتد من مطلع النهار إلى آخر الليل، ويتحول إلى إرهاق فظيع فى الساعتين السابقتين على أذان المغرب!

والغريب فى الأمر أن هذا يحدث فى كل رمضان أى فى كل عام - دون أن تفكر الداخلية المصرية فى إيجاد وسيلة للتغلب على هذه التراجيديا الغريبة!

ويبدو أنها رأت ألا تقطع عادة مستقرة للمرور عبر سنوات طوال، ولا نجد سببا لقطع هذه العادة! فمن المحقق أن الداخلية المصرية عندما تريد أن تقطع هذه العادة، فإنها تقطعها ولكنه بشرط أن يكون هناك مؤتمر عالمى فى القاهرة، فعندئذ يفاجأ المصريون القاهريون بأن الداخلية المصرية تملك من الكفاءة والمقدرة مايمكنها من تنظيم المرور على أكمل وجه، فتختفى الاختناقات، ويلتقط الناس أنفاسهم! حتى إذا انتهى المؤتمر، عادت ريمة إلى عادتها القديمة، ولكن بشكل أسوأ، كتعويض عن أيام انتظام المرور!

والأمر الذى أريد أن أؤكده فى هذا المقال هذه الحقيقة، التى يعرفها العالم المتقدم فى الخارج وتغفل عنها الداخلية المصرية، وهى

أن انتظام المرور فى أى بلد مرتبط بتقدمها الاقتصادى، ومصالح المواطنين.!

وكذلك عندما كنت أعيش فى لندن كانت هناك اذاعة محلية خاصة بلندن، تذيع نشرتها كل ربع ساعة! مهمتها اعلام سكان لندن بحالة الجو وبحالة المرور فى أنحاء المدينة، وبأى تعطيل يحدث لأحد خطوط المترو، وبأى اختناقات تحدث فى منطقة من المناطق حتى يتجنبها الجمهور.

ومن هنا فلعل الداخلية المصرية تجند كامل قدراتها هذا العام، وتخرج على عادتها السنوية حتى يستريح الجمهور من عذاب المرور فى كل رمضان! ولتكن هذه هى هديتها للجمهور القاهرى الذى تستحق عليه كل ثناء!

(٦٩)
تنقلات الرئيس وأزمة العدالة فى مصر

لايوجد فى هذا البلد مواطن لايحرص على حياة الرئيس مبارك وحمايته من أى أذى، بسبب بسيط هو أن هذا الرئيس هو صمام الأمن فى مصر، وهو ضمان التقدم، ومبعث الثقة فى مستقبل يسوده السلام ويبعد عن المغامرات السياسية والعسكرية التى عانت منها مصر منذ عام ١٩٥٢

على أن رؤساء الدول فى العالم ينتقلون من مكان إلى مكان، فى ظل حماية أمنية كاملة تحافظ على حياتهم من كل خطر. ولكن لايحدث أبدا أن تصيب إدارت المرور فى تلك الدول المرور بالشلل التام كما تفعل إدارة المرور فى مصر لسببين:

الأول، أن إدارت المرور فى العالم المتقدم تدرك ارتباط سيولة المرور بالاقتصاد الوطنى، وبمصالح المواطنين، وتعرف أن أى اختناق مرورى يكلف الاقتصاد الوطنى غاليا!

أما السبب الثانى، فهو أن ادرات المرور فى العالم تملك من الكفاءة ماتوفر الحماية اللازمة لحياة الرؤساء أثناء تنقلاتهم، دون أن تحدث

شللا فى المرور من أقصى البلاد الى أقصاها، كما يفعل مرور القاهرة وهناك سبب ثالث تعرفه ادرات المرور فى تلك البلاد، ولاتعرفه إدارة المرور - فى مصر، وهو مايعرفه علم العلاقات العامة بتوثيق العلاقة بين الحاكم والمحكومين!

فمن المحقق أن مايعمد إليه المرور فى القاهرة من إحداث شلل عام فى المدينة كلما انتقل رئيس الدول من مكان إلى مكان، بما يترتب على ذلك من تعطيل مصالح المواطنين، ليس فى صالح توطيد العلاقة بين الحاكم والمحكومين! بل أنه يفعل العكس تماما، إذ يثير السخط والغضب!

ومن حسن الحظ أن جماهيرنا تدرك جيدا أن الرئيس مبارك ليس هو الذى يعطى التعليمات بهذه الاختناقات المرورية، وإنما تفعل ذلك ادارة لاتعرف كيف توفق بين توفير الحماية لموكب الرئيس وتوفير السيولة اللازمة لمصالح المواطنين - كما تفعل إدارات المرور فى العالم!

وهذا مايلاحظه كل منكوب بإدارة المرور فى بلدنا! فمعظم التصرفات التى يشهدها المواطنون لامبرر لها على الاطلاق، ويقوم بتنفيذها رجال تعوزهم القدرة على التمييز بين تحقيق هدف سليم وهو توفير الحماية لرئيس الدولة، وتحقيق مصالح المواطنين وخدمة الاقتصاد الوطنى!

انهم ينفذون حرفيا ماتأمر به القيادة المسئولة فى مكاتبها دون النزول إلى الميدان! ويترتب على ذلك أن الرئيس مبارك قد يكون

مايزال فى القصر الجمهورى ويكون رجال المرور قد قطعوا الطريق من قبل تحركه بساعتين! ويشمل قطع المرور جهات بعيدة كل البعد عن موكب الرئيس! فيحدث الشلل على الفور فى المدنية من أقصاها إلى أقصاها!

هذا بالاضافة إلى التصرفات الفردية التى يلجأ إليها بعض ضباط المرور، من بابا الاجتهاد - فتزيد الطين بلة، وتثير غضب الجماهير التى لاتجد مبرر لها!

والسؤال الذى يجب أن يبحث له عن جواب هو! كيف يمكن التوفيق بين حماية موكب الرئيس، وبين حماية مصالح المواطنين وعدم إحداث شلل فى الحياة الاقتصادية؟

ولماذا تنفرد إدارة المرور فى مصر. دون إدارات المرور فى العالم، بإحداث شلل عام فى البلد كلما انتقل رئيس الدولة من مكان لمكان!؟

(٧٠)
رسالة إلى وزيرة البيئة

وزيرة البيئة فى بلدنا فى محنة حقيقية، فشعبنا من الشعوب القليلة التى تعودت - على مدى مئات السنين - على التحايل على القانون، لسبب بسيط هو أن القانون لم يكن غالبا فى مصلحتها! وقد ظل هذا موقفها بعد أن تغيرت علاقات الانتاج الاقطاعية والرأسمالية الظالمة، وأصبح القانون يظلل الجميع!

فقد سادت شريعة الغاب اليوم، وأخذ القوى يطبق قانونه الخاص ويفرض شريعته المنتقاة من قوته الاقتصادية، ففى طريق رشوة بعض المنحرفين فى الأحياء، يمكن مخالفة القوانين المرعية، وتحدى الجمهور والدولة، فيغمض المسئولون أعينهم، ويسدون آذانهم عن سماع صرخات المضارين من مخالفة القانون!

وإلا كيف نفسر هذه الرسالة التى وصلتنى من سكان مناطق الامام الشافعى والتونسى والأباجية، وفيها يستغيثون بالدكتورة نادية مكرم عبيد، لكى «ترحم هؤلاء السكان من الرائحة الكريهة التى تنبعث من المجزر الآلى بالبساتين والذى يقال إنه يتبعه مصنع للعلف يقوم على

مخلفات هذا المجزر «وهى رائحة تنبعث منذ أكثر من عامين، مما يصيبنا نحن وأولادنا بالقىء والغثيان ويعرضنا للأمراض فى الجهاز التنفسى.

وتقول الرسالة إن هؤلاء السكان سبق أن تقدموا بعدة شكاوى إلى المسئولين وإلى السادة أعضاء مجلس الشعب عن هذه المناطق، ولكنهم اكتفوا بالقول بأن هناك قرارا بنقل كل مايؤدى إلى التلوث خارج القاهرة، لحماية السكان من أخطار التلوث! ولكنهم لم يشهدوا تنفيذا! ويتساءلون «هل سننتظر إلى أن نصاب جميعا بالأمراض نحن وأطفالنا، فضلا عن الأرق وقلة النوم بسبب تلك الرائحة الكريهة، والتى تبدأ مع بداية دخول الليل وتتزايد حتى صباح اليوم التالى؟

نرجوكم أن تنقذونا وتنقذوا فلذات أكبادنا، فنحن «بنى أدميين» ومواطنين ولنا على الدولة الحق فى أن نتنفس هواء نقيا مثل باقى أفراد الشعب»

ومعنى هذه الرسالة أنه إلى جانب السحابة السوداء التى أصابت أولادنا بأمراض الجهاز التنفسى الخطيرة وعلى رأسها الربو والدرن، فإن هناك من أصحاب المجازر الآلية من ينتهزون فرصة التسيب الإدارى، وانعدام الرقابة، وفساد الأحياء، فى تحقيق مصالحهم الخاصة على حساب مصالح المواطنين، عن طريق عدم اتخاذ الاجراءات الصحية اللازمة للحيلولة دون انبعاث الرائحة الكريهة من مخلفاتهم!

ولكن السؤال يبقى: ماهى الجهة المسئولة التى أعطت هؤلاء المخالفين التصاريح لبناء مجازرهم دون اتخاذ الاعتبارات اللازمة لمنع انبعاث الروائح الكريهة؟ وماهى الجهة المسئولة فى الإدارة الحكومية التى تفحص عينها عن هذه المخالفات؟ وماهو الثمن الذى يتقاضاه لقاء هذا التغاضى؟

إن رائحة الفساد التى تنبعث من هذه القضية لاتقل، إن لم تزد - على الرائحة الكريهة التى تنبعث من هذا المجازر الآلية؟

(٧١)
البيت يأتى أولا! (١)

فى اعتقادى الراسخ أن سوء التربية هو المسئول الأول عن الانحرافات التى تحدث فى مجتمعنا! والتربية ـ كما هو معروف تبدأ فى المنزل، ثم يأتى دور المدرسة!

ففى المنزل يعلم الوالدان الطفل ماهو حلال وماهو حرام، وماهو صحيح وماهو خطأ، ويقومانه كلما انحرف بحكم الغريزة إلى عمل يظنه صوابا. فإذا لم يفعلا، شب الطفل منحرفا!

عندما كنت طفلا عنّ لى أن أزيد دخلى الذى هو مصروفى من والدى! وكان خمسة مليمات، بثلاثة مليمات! اختلستها من جيب والدى. وعندما اكتشف الأمر سألنى فأنكرت! فطلب من والدتى أن تفتش جيوبى! فاعتقدت أنها سوف تتستر علىّ! ولكنها أخرجت المليمات الثلاثة وعلى وجهها علامات الاستنكار! دب الرعب فى قلبى، وأمسك والدى بيدىّ، وانهال عليهما ضربا حتى تورمتا! ومنذ ذلك الحين، وعلى مدى سبعين عاما، لم أسرق مهما كانت إغراءات السرقة والانحراف. ومن هنا فإنى أدين لوالدتى ولوالدى بأنى أصبحت رجلا شريفا.

ولكن فى بيوت أخرى تتغلب العاطفة فى معاملة الطفل، وتتغلب الرحمة على العقاب، ويتستر الوالدان على الانحراف ـ ولايوجد طفل فى العالم لم يرتكب خطأ ـ فيشب منحرفا، يتصور الخطأ صوابا، والحرام حلالا، وعندما يكبر يتوهم أن الدولة سوف تتستر على انحرافاته كما تستر والداه! ولكن الدولة لاتتستر، بل تفضح، فهى تطبق القانون، والقانون لايرحم، وهو يحيل الأعزة من المنحرفين إلى أذلة وفى السجن متسع لجميع المنحرفين!

عندما كان والدى يعاقبنى وأنا طفل صغير علمنى درسا لم أنسه طول حياتى، وهو أن فى الكون إلها يرى كل شىء دون أن نراه، وأنه يعلم السر وأخفى، وأن مانظنه مستورا لأن أحدا من البشر لايراه، هو مفضوح عند الله! وأن هناك ملكان خفيان على كتفى يسجلان كل ماأفعله كبر أو صغر وبالتالى فعلى أن أرقب الله فى تصرفاتى ولا أراقب البشر.

وعندما كبرت، فهمت لماذا كان الشيخ محمد عبده يرفض الإستجابة للخديو عباس الثانى فى محاولاته نهب أموال الأوقاف! فقد كانت عبارة الشيخ محمد عبده «إن مراقبتى لله تعالى تمنعنى من الموافقة»! فقد كان الشيخ محمد عبده يتعامل مع الله وليس مع البشر!

وهذا هو مايجب على كل أسرة أن تعلمه لأطفالها، وهو التعامل مع تلك القوة الخفية الجبارة التى ترى كل شىء دون أن نراها وتحاسب على كل شىء، دون أن نحاسبها، وهى الله، الذى إليه مصير كل حى.

وفى تصورى أن الأم هى أساس التربية، وعليها يقع الجزء الأكبر من المسئولية! ومن هنا ضرورة اختيار الأم الصالحة، والرسول عليه السلام يقول «اظفر بذات الدين تربت يداك..» ويقول: «اتقوا خضراء الدمن» وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء! فمن الأم يرضع الطفل الأخلاق مع اللبن! وقد عرفت بيوتا انهارت لأن الأم كانت غير صالحة! وعرفت رجالاً ذوى مقامات عالية سقطوا لأن الأم لم تعلمهم الأدب!

(٧٢)
التربيـة تأتـى أولا (٢)

يبدو أننى بسطت الأمور كثيرا عندما قلت فى مقالى السابق إن البيت هو أساس تكوين الفرد الخلقى! فعندما كنت طالبا فى كلية الآداب جامعة القاهرة، كنت مغرما بحضور مناقشات الرسائل العلمية حتى ولو كانت خارج تخصصى وهو التاريخ!

ومازلت أذكر مناقشة علمية فى علم النفس كان يرأس المناقشة فيها أستاذ علم النفس الشهير الدكتور يوسف مراد وكان محورها العنصر الذى هو أكثر تأثيرا فى تكوين الفرد الخلقى هل هو عامل البيئة أو هو عامل الوراثة؟ وبمعنى آخر هل هو البيت أو الجينات؟

وكان من أبرز ماقيل فى هذا الصدد أنه قد يوجد أخوان شقيقان تربيا فى بيت واحد، وعاشا فى بيئة واحدة، ثم يتعرضا لتجربة واحدة، فإذا بأحدهما ينحرف، والآخر لاينحرف! أو شقيقتان تربتا على يد أسرة واحدة، فإذا بإحداهن تسقط فى أول تجربة، والأخرى لاتسقط!

كان التفسير الذى قدم هو أن الذى انحرف من الشقيقين قد ورث جينات جد فاسد لم يرثها الشقيق الصالح! وكذلك الأمر بالنسبة

للشقيقتين، فتلك التى سقطت ، ورثت جينات جدة فاسدة، وأما التى لم تسقط فقد أخطأتها هذه الجينات الفاسدة!

الأمر إذن خارج عن نطاق البيت أو التربية، وإنما هو متعلق بعوامل لادخل للمرء فيها ولاتحكم له فيها! وكذلك لادخل لتربية الأسرة فيها!

فلا يعقل أن يربى الوالدان أحد الشقيقين على الأخلاق الفاضلة، ويربيان الشقيق الآخر على المبادئ الفاسدة!

ثم إن الأمر له جانب آخر يتعلق بالذكاء والمهارة، فقد يكون أحد الشقيقين متفوقا، والآخر فاشلا! وقد يكون لأحد الشقيقين ميول فنية، والآخر له ميول رياضية!

ويقول هذا الرأى إن جميع العظماء - أو معظمهم على الأقل - كان لهم أشقاء وشقيقات، وقد تربوا جميعا فى بيت واحد وتعرضوا لبيئة وظروف واحدة، ومع ذلك تفرد أحدهم بمواهب قادته إلى أن يكون عظيما، وافتقد الأخرون هذه المواهب، فأخطأتهم العظمة!

وحتى بالنسبة للموهوبين من الأشقاء، فقد تنوعت مواهبهم! فلم نسمع عن شقيقين حصلا على جائزة نوبل فى تخصص واحد مثل الكيمياء! وقد كانت سعاد حسنى ونجاة الصغيرة فنانتين موهوبتين ولكن تعددت مواهبهما، فنبغت الأولى فى التمثيل، ونبغت الثانية فى الغناء!

على أن هذا كله لاينكر التأثير الهائل للبيت فى التربية، فهو الأساس! كما أنه لاينكر تأثير الأم الطاغى فى التربية! ففى كل

الظروف والأحوال تكون الأم هى الفيصل فى التربية! وهو مايتضح إذا تزوج الأب زوجتين من بيئتين مختلفتين وأنجب منهما. فهنا يبدو تأثير الأم حاكما فى تربية الأولاد، وفقا لتربية كل أم وثقافتها وميولها الفنية وغيرها، فكل أم منهما تطبع الأولاد بطابعها وسلوكها الاجتماعى ومستوى الطموح عندها.

ومن هنا تركيزنا على البيت فى مقالنا السابق، فهو منبع الفساد ومنبع الإصلاح! ومن سوء الحظ أن الأم لم تعد اليوم متفرغة لتربية أولادها فى خضم عملها وواجباتها المنزلية والاجتماعية والثمن يدفعه الأبناء، ويدفعه المجتمع!

(٧٣)

رسالة لمحافظ القاهرة: مصاعد أم نعوش؟

ربما كان من أهم الفروق التى تفصل بيننا وبين المجتمعات الصناعية فى الغرب، الصيانة! فى البلاد الصناعية تعتبر الصيانة جزءا لايتجزأ من سعر السلعة! فالعميل يشترى السلعة، ويرتب معها أمر صيانتها الدورية، لأنه يعلم جيدا أن السلعة التى اشتراها ليست سلعة أبدية! وإنما هى قابلة للتعطل لأى سبب، وللاصلاح. ولذلك فهو لايعتبر الثمن الذى اشترى به السلعة ثمنا نهائيا ولكنه يعلم أنه ثمن مبدئى، سوف يضاف إليه ماينفق لصيانة السلعة على مدى بقائها! ومن هنا فمراكز الصيانة فى المجتمع الصناعى تقوم بعمل دورى، ولاتعمل حسب الطلب وفقا لتعطل السلعة!

والأمر فى مجتمعنا المصرى مختلف، فالعميل يشترى السلعة وينسى تماما أمر صيانتها! اعتقادا بأنها سوف تدوم إلى الأبد. فإذا تعطلت تبرم، واعتبر مايدفعه فى اصلاحها غرما باهظا أصابه على غير انتظار!

ومن هنا كثرة الكوارث فى مجتمعنا المصرى بسبب انعدام الصيانة. وتعتبر كوارث سقوط المصاعد من الكوارث المعتادة التى

يتقبلها شعبنا باعتبارها أمرا واقعا وليست حدثا منشؤه الإهمال كان يمكن تجنبه!

وقد كتب لى المستشار محمد سعيد العشماوى، رئيس محكمة الاستئناف السابق، قصة مثيرة فى هذا الصدد تستحق عناية السيد محافظ القاهرة الدكتور عبد الرحيم شحاته!

وفيها يذكر أن مصعد العمارة التى يقطن فيها، وهى رقم ٩ شارع الجزيرة الوسطى، بالزمالك، قد تهالك وأصبح يشكل خطرا على حياة السكان على نحو دعاه لأن يحرر محضرا بالواقعة، ولما طلب من الشركة المنوطة بأمر الصيانة، إجراء الإصلاحات الضرورية، أبدت رأيها بأن أى اصلاح فى مصعد مستهلك لن يجدى، وأيدها فى ذلك بعض الخبراء، وأن من الأفضل تركيب مصعد جديد حرصا على حياة السكان

على أنه بدلا من انصياع ملاك العمارة لهذه النتيجة لجئوا إلى اجراء سطحى، فقد استأجروا عاملا لإصلاح المصعد اصلاحا سطحيا، دون أن يكون لديه ترخيص ولا مكان إقامة ولا محل وطلبوا من السكان استخدام المصعد بعد هذا الإصلاح الشكلى! ونظرا للخطر الذى يمكن أن يتعرض له السكان من استخدام هذا المصعد، فقد حررت الشرطة للمالك؛ المحضرين رقمى ٢٨، ٤٨ أحوال فى ٢٠٠١/١٠/٢١، كما حرر حى غرب القاهرة للمالك محضر الجنحة رقم ١٦ لسنة ٢٠٠١ ثم أصدر رئيس الحى القرار رقم ٢ لسنة ٢٠٠١ بوقف تشغيل المصعد وتشميعه.

على أن الوساطات لم تلبث أن تدخلت! فلم يتم تنفيذ هذا القرار من وقت صدوره فى ٢٠٠١/١٠/٣١ الى ٢٠٠١/١١/١٩، حتى تم اصطناع أوراق مزورة تم بناء عليها وقف تنفيذ القرار، والترخيص لشركة تقوم بدور المحلل حتى يمكن ذلك العامل غير المؤهل من القيام بإصلاحاته، السطحية فى المصعد! وشرع المالك بالفعل فى تشغيل المصعد معدا لأن يكون نعشا لأى راكب يستعمله!

ثم يقول المستشار سعيد العشماوى! أليس عجيبا ياصديقى أنه كلما أراد المواطنون الشرفاء تطبيق القانون فوجئوا بأن القانون لايفيد! وأن العملة السائدة هى البلطجة، التى تساعد عليها بعض الأجهزة الإدارية؟

إننا نطلب من السيد الدكتور المحافظ التدخل لتنفيذ قرار رئيس حى غرب القاهرة بتشميع المصعد، وألا يتم تشغيله دون ترخيص يضمن استيفاء شروط السلامة والأمن فهل هذا كثير؟!

(٧٤)

أزمة العدالة (١)

العدل فى مصر فى حاجة إلى مراجعة! فمن المحقق أن هناك تسيبا فى كثير من الميادين أدى إلى شعور عام لدى المواطنين بعدم جدوى اللجوء إلى العدالة، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة خرجت بالتنظيم القضائى المصرى عن أهدافه! فبالإضافة إلى بطء التقاضى القاتل، فإنه لاينفذ من الأحكام بواسطة الأحكام الجنائية للسلطة التنفيذية، فالسارق يؤخذ إلى السجن لتنفيذ العقوبة، والقاتل يؤخذ إلى غرفة الإعدام.

أما القضايا المدنية، فإن تنفيذ الأحكام فيها يدخل فى باب المستحيل فى كثير من الأحيان! وقد شرح لى مواطن اكتوى بنار المنازعات والقضايا والأحكام طويلة كيف أن التقاضى فى مصر يحتاج إلى شروط لابد أن تتوافر فى التقاضى قبل أن يفكر فى رفع قضية على خصمه، وإلا ضاعت كل جهوده فى التقاضى سدى!

وأول هذه الشروط أن يكون المتقاضى مقيما فى الموقع الذى تقع فيه مصلحته، سواء كانت أرضا أو تجارة أو عقارا! ثانياً، أن تكون له

«عزوة» وبكسر العين! أى يكون له أقارب ذوو قوة وبأس، أو أصدقاء مهابون! ثالثا، أن يكون صاحب ثروة، لكى يستطيع الانفاق منها بلا حساب على قضيته، التى تستغرق عادة، سنوات تطول إلى عشرين عاما أو أكثر!

رابعا، أن يكون له علاقات بذوى النفوذ فى الموقع تمكنه من تجنيدهم لصفه، والتدخل عند اللزوم لصالحه!

خامسا ـ أن يكون على علاقة طيبة بقلم المحضرين، وأن يحصل على رضاء المحضر المختص، إذ فى إمكانه أن يضيع مصلحته!

سادسا ـ أن يكون على علاقة طيبة مع قسم الشرطة المكلف بتنفيذ الأحكام، وإلا فان عبارة بسيطة مكونة من ثلاث كلمات فقط يمكن أن توقف تنفيذ الحكم عدة سنوات! وهذه العبارة هى: «تحت الفحص والبحث»! ـ فعلى أساس هذه العبارة يوقف التنفيذ حتى يتم الفحص والتحرى، والذى قد يستغرق سنة أو سنتين أو ثلاث، حتى يجأر صاحب الحكم، أو ينتحر بأسا!

هذا كله إذا كان لدى صاحب الحق محام شاطر وأمين! ومن سوء الحظ أن هذين الشرطين قلما يتوافران معا فى هذه الأيام!!

وللتدليل على ذلك لما روى لى مواطن أنه عندما بحث عن محام كفء ليتولى قضيته، قال له صديق: عندى لك محاميان: أحدهما أمين ولكنه غير شاطر! والآخر شاطر ولكنه غير أمين! وعندما لجأ إلى

أصدقاء آخرين يساعدونه فى البحث، تلقى نفس الجواب! ولم ييأس حتى عثر على المحامى الذى يجمع بين صفتى الأمانة والكفاءة وقد تمكن هذا المحامى من الحصول له بعد عدة سنوات ـ على حكم لصالحه. فتنفس الصعداء، وتصور أنه كسب المعركة. ولكنه مالبث أن اكتشف أن هذا الحكم إنما هو حبر على ورق، وأنه غير قابل للتنفيذ!

فلقد كان هذا المواطن يفتقر إلى الشروط الضرورية التى أوردناها فى صدر هذا المقال لضمان التنفيذ! واكتشف أنه انتقل من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر! أى من الجهاد فى المحاكم إلى الجهاد لتنفيذ الحكم الصادر لصالحه!

وقد حزنت لحديث هذا المواطن لما آلت إليه أخلاقيات بعض المحامين. فقد كنت نفس ضحية لبعضهم عندما كتبت مقالا فى جريدة الوفد أناصر فيه. بحق ـ حملة رئيس تحرير الوفد السابق الأستاذ جمال بدوى على الذين يتصدون لكتابة التاريخ من ذوى التخصصات الأخرى من الأساتذة. وقد تصور الأستاذ الذى هاجمته أننى أهاجمه لشخصه وليس للموضوع، فرفع على قضية تعويض ولم يكن الأمر يتطلب من المحامى الذى كلمته جريدة الوفد للدفاع عنى أكثر من توضيح انتفاء القصد الجنائى فى مقالى لهيئة المحكمة، فتنتهى القضية، ولكن هذا المحامى لم يحضر الجلسات المتعاقبة، مما ترتب عليه الحكم بإدانتى! فكنت ضحية إهمال المحامى وعدم التزامه بشرف مهنته!

(٧٥)

أزمة العدالة (٢)

المجتمعات الناضجة لاتخجل من كشف فضائحها، وإظهار سلبياتها، لأنها تعلم أن إخفاء الفضائح والسلبيات يشجع على استفحالها بالضرورة، فإذا ظهرت عورة المجتمع سارع إلى إخفائها، وإذا ظهر الداء ظهر الدواء.

وقضية العدالة فى بلدنا هى قضية حياتية، ينبنى عليها صلاح المجتمع وفساده، وينبنى عليها استقرار نظام الحكم، فقديما ظهرت حكمة «العدل أساس الملك».

ولكن من الطبيعى أنه لايخلو مجتمع من الانحراف. ولكن إذا سكت المجتمع على الانحراف فى ميدان العدالة فإن هذا السكوت يدفع ثمنه المجتمع إن آجلا أو عاجلا.

ولذلك فقد كان من الظواهر الإيجابية التى برزت فى مجتمعنا مؤخرا، أن نشرت الصحف أسماء بعض القضاة الذين نسبت إليهم تهم فساد. ولم يكن لذلك سابقة من قبل، ومن المعروف أن المجتمع الأمريكى يتناول هذه القضايا فى الأفلام السينمائية باعتبارها من أمور الحياة الطبيعية التى لايخجل منها أى مجتمع، ولايجدى إخفاؤها.

وقد تناولت فى مقالى السابق ما آلت اليه أخلاق بعض المحامين من خيانة لموكليهم واتفاق مع الخصوم، وإهمال فى حضور الجلسات على نحو يؤدى إلى إلحاق الضرر بالموكلين. وقلت إننى أنا نفسى كنت ضحية لإهمال أحد المحامين وعدم التزامه بشرف المهنة.

وقد روى لى صديق أثق فى روايته أنه وكل أحد المحامين للدفاع عنه فى قضية نزاع على قطعة أرض مملوكة له، وفوجئ بأن هذا المحامى لم يحضر جلسة واحدة من الجلسات. ولم يقدم أية مذكرة، ومع ذلك طالبه بدفع ثلاثة آلاف جنيه، تكاليف تنقلاته ذهابا وإيابا من مقره إلى المحكمة! وهدد بالاحتفاظ بالمستندات لديه حتى يتم دفع هذا المبلغ!

ومعنى ذلك أن مهنة المحاماة الشريفة توشك أن تعود إلى ما بدأت به قبل أن يتولاها سعد زغلول! فقد كانت هذه المهنة قبل سعد زغلول مهنة مزورة ولم تكن مهنة محترمة فى نظر القضاء، أو فى نظر المجتمع، الذى كان ينظر إليها كعمل من أعمال الاحتيال والمراوغة!

لذلك عندما امتهن سعد زغلول هذه المهنة، وكان مضطراً، كتب يقول إن الخجل كان يستر وجهه، لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها»! حتى إنه أخفى ذلك عن أهله وأصحابه، «وكلما سألنى سائل: هل صرت محاميا؟ أقول: «معاذ الله أن أكون كقوم خاسرين! وكنت أجتهد ألا يعرفنى إلا أرباب القضايا، وإن كنت أجهل ماذا تكون العاقبة»!

وقد ارتفع سعد زغلول بمهنة المحاماة إلى أرفع الدرجات أيما كان يتحلى به من شرف وعزة نفس وكفاءة وأمانة. فلم يقبل قط الدفاع عن باطل، ولم يرفض الدفاع عن حق!

وبذلك، وبدلا من أن تهبط مهنة المحاماة بسعد زغلول إلى مرضع الإزدراء ارتفع بها إلى موضع العزة والشرف، حتى أنتخب عضوا فى اللجنة التى شكلتها محكمة الاستئناف لإصلاح قانون العقوبات.

ومن هنا فإن التصرفات التى تحدث حاليا من بعض المحامين، توشك أن تهبط بالمهنة إلى العهد السابق على سعد زغلول! وهو أمر يجدر بنقابة المحامين أن تتصدى له بكل حزم، وتنقى صفوفها ممن هم ليسوا جديرين بشرف المهنة!

ولكن الأوضاع السائدة كلها فى ميدان العدالة توضح فى جلاء أن العدالة فى مصر تعيش فى أزمة!

(٧٦)

أزمة العدالة (٣)

قلت فى مقالى السابق إن العدالة فى مصر فى أزمة! وكنت أعنى أن العدالة لها عناصر كثيرة اذا غاب منها عنصر واحد، تتطلب بقية الأجزاء! وفى هذا المقال نتناول أحد هذه العناصر التى يتوقف عليها تحقيق العدل، وهو المتمثل فيمن يعرفون باسم خبراء وزارة العدل!

يقول صاحب الرسالة، واسمه إبراهيم صبرى معوض، وقد وصلتنى رسالته متأخرة، إنه وقع فى يد من أسماهم البلطجية والمزورين، الذين يستغلون تحويل المحاكم القضايا إلى خبراء وزارة العدل! وعلى حد قوله: «إننا نلتجئ إلى القاضى الطبيعى، وليس إلى أجزاء يسلموننا وأملاكنا وأموالنا إلى المزورين!

وقال إنه لأول مرة فى تاريخ القضاء المصرى يقوم المزورون بتزوير مستندات سبق أن طعن عليها بالتزوير أمام محكمة الاستئناف العالى، ومع ذلك اعتمدتها الخبيرة ضمن تقريرها إلى محكمة شمال القاهرة . واستغل ذلك المزورون فى سرقة أموالى من شقتى وقدرها ربع مليون جنيه، وعفش إبنى الجديد الخاص بزواجه ، ومستنداتى كما هو مبين بالمستندات التى قدمت للمحكمة المختصة!

ويقـول صـاحب الرسـاله إن الحكم صـدر لصـالحـه. ولم يسـتـأنف، فكان ضـربة قـاصمـة لخبـراء وزرة العـدل. وبناء على ذلك قـدم شكوى للسـيد المستشار مـحمـد فتحى نجيب، مدير التفتيش القضـائى مرفقا بهما المستندات اللازمة.

ولكن بقى أن يسـتـرد أمـواله وعـفـشـه وعـفش أولاده أو مـحـاكمـة المزورين مـحـاكمـة عـادلة، ولكن يقـف فى وجـه ذلك تسـيب الموظفـين المسئولين.

ويشـرح صـاحب الـرسـالة مـا حـدث لـه، مما لايمكن أن يحـدث فى بلد أخـر غـيـر مـصـر فـيـقـول إنه فـوجئ أثناء مـرضـه بسـرطان الدم وعـلاجـه بمستـشـفى قصـر العينى الجديد منذ عـام ١٩٩٦ بأربعـة من جيرانه انتهـزوا مرضـه ونسبـوا له توقيـعـات مـزورة على بعض «أوراق» (ثبت تزويرهـا عـن طريق مـصلحـة الطب الشـرعى) وأقـامـوا دعـوى رقم ٦٢٠٢ لسنة ١٩٩٦ إيجـارات لإخلائه من شقتـه المملوكة له بالعقـار رقم ٧ بالدور الثـالث بشارع الشهيد مـصطفى حافظ بعـزبة النخل الشرقـية قسم السـلام سابقا ـ المرج حاليا، بحجة أنه مقيم بالشقة (المملوكة له!) بصـفـة اسـتـضـافـة! وأنه يتـعين تسليم الشـقـة وطرده منها كمـغـتصب. وتمكينهم من وضع يدهم على الشقه.

وزوروا اتفاقا محررا فى ٢٥ مارس ١٩٩٦.

وفى الوقت نفسـه كان مـحامى المغتصبين يستـعين بمجـمـوعـة من البلطجـيـة لمنع صـاحب الشـقـة وأولاده من دخـولهـا وأغلقـوها بحـاجـز

حديدى! واستغل ثقافته القانونيه فى رفع قضايا كيديه ضده بلغت حوالى ٥٢ قضية !!

وعندما أحالت المحكمة الأمر إلى الخبيرة، قدمت تقريرا لصالح المزورين المغتصبين! مما أدى إلى الحكم لصالحه، وسهل دخول المغتصبين الشقه والاستيلاء على ما فيها.

ولثقة صاحب الرسالة فى القضاء المصرى فإنه استأنف الحكم الذى صدر بأحقيته فى شقته واعتبار ما حدث من الخبيرة واقتحام شقته بدون سند القانون جناية.

وبذلك استرد كاتب الرسالة شقته ، ولكنه لم يسترد أمواله وعفشه! ولكن كيف السبيل لذلك؟ هذا هو السؤال؟ ولست أدرى هل فى القانون المصرى ما يمكن هذا الشاكى من استرداد ما ضاع منه بسبب الفساد؟ أو ماضاع ضاع، ويبقى الفاسدون والمزورون بدون عقاب؟.

(٧٧)
معاملة مرفوضة من شركة سيارات

مصر أم الدنيا! ولأن مصر أم الدنيا فإن كثيرا مما يحدث فيها ليس له مثيل فى البلاد الأخرى التى لم تتمتع بهذا اللقب! وأعتقد أن ما حدث لصاحب هذه الرسالة التى وصلتنى، وهو محاسب ابراهيم حافظ، لم يحدث لأحد آخر فى أية بقعة من بقاع العالم، لدرجة أننى لم أصدقه لأول وهلة، وأطلب تأكيدا أو تكذيبا لما ورد فيه!

يقول صاحب الرسالة: إنه قرأ إعلانا فى جريدة الأهرام يوم ٢٠٠١/٣/١٨، عن افتتاح معرض سيارات اوتوماتيك بأرض المعارض بمدينة نصر تعرض فيه لأول مرة سيارات موديل فابيا، بسعر استثنائى قدره ٣٣,٥٠٠، وذلك خلال مدة المعرض فقط، وهى ثلاثة أيام! كان والإعلان من توكيل سيارات سكودا (أرتوك أوتو) وبناء على ذلك فقد توجه الكثيرون فى أول أيام المعرض لمشاهدة السيارة الجديدة، وطلبوا حجز السيارة، فطلب إليهم دفع مبلغ حجز قدره خمسة آلاف جنيه، فدفعوها.

على أنهم لم يلبثوا أن فوجئوا بالشركة تعلنهم بأن السعر قد زاد بمقدار ألفين من الجنيهات ! وأصبح ثمن السيارة ٣٥,٥٠٠ ! ولم يجد

الذين دفعوا قبلا مفرا من أن يدفعوا الزيادة الكبيرة، ليحصلوا على السيارة. وقيل لهم أن الاستلام سيكون فى شهر يونيه ٢٠٠١.

وفى أول يوليو أجرى التوكيل مع المشترين اتصالا يطالبهم بتسديد باقى المبلغ وهو ٣٠,٥٠٠ حتى يتم تسلم السيارة. فقاموا على الفور بالدفع، وهم يعتقدون أنهم سوف يتسلمون السيارة.على أنهم ما لبثوا أن فوجئوا بالتوكيل يماطلهم فى التسليم بشتى الحجج . وكان مما قيل لهم إن هناك مشكلة مع الجمارك ، وأنها فى سبيل الحل

ثم جاءت الصدمة الكبرى عندما عاد التوكيل فى شهر أكتوبر ٢٠٠١ يبلغهم بأن سعر السيارة زاد مرة ثانية إلى ٤٢,٥٠٠ - أى بزيادة سبعة آلاف جنيه فوق الألفين اللذين سبق دفعها!

وهنا رفض المشترون دفع هذه الزيادة الضخمة، وطالبوا باسترداد ما دفعوه على أنهم فوجئوا بالتوكيل يبلغهم بأنه مستعد لرد المبلغ ولكن على أن يخصم منه ٣,٥ فى المائه من المبلغ المسدد - أى حوالى - ١٢٤٢ جنيه

ومعنى ذلك أن كل فرد من المشترين سوف يتبرع للتوكيل بمبلغ ١٢٤٢ جنيها، دون أن يحصل فى مقابل ذلك على أى شىء ، وانما هى مصيبة نزلت على رأس الجميع من حيث لايحتسبون!

لذلك يتساءل صاحب الرسالة عما إذا كانوا قد تعرضوا لعملية نصب واحتيال من التوكيل فقد تعاقدوا مع توكيل شركة معترف بها،

ولديهم منها إيصالات بالمبالغ التى دفعوها ومواعيد التسليم، ومع ذلك فقد تعرضوا لهذه المعاملة!

وبالنسبة لى فلا أستطيع أن أجزم بشىء وإنما أتوقع أن يصلنى رد من التوكيل على هذا الكلام وأتعهد بنشره ، لتكون الصورة مكتملة أمام الجهات الحكومية المسئولة!

(٧٨)

شركة السيارات تلقى باللوم على الجمارك!

سبق أن أوضحنا أن ما ننشره على صفحات الجمهورية من رسائل بعض القراء، لا ننحاز فيها لجانب ضد الآخر، وإنما نستهدف رفع صرخات من يتضررون من ظلم يحيق بهم، لإلزام الجهة المشكو في حقها أدبيا بالدفاع عن نفسها وإبداء وجهة نظرها.

لذلك فإننا ننشر هذا الرد الذى وصلنا من شركة «أرتوك أوتو» على مقالنا بعنوان: «تصرف مرفوض من شركة سيارات.

بالإشارة إلى مقالتكم بجريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠٠١/١٣/١٠ بعامود «خواطر مؤرخ» نود أن نوضح لسيادتكم بعض الحقائق ردا لما أوردتموه بالمقال. قامت شركة ارتوك أوتو بفتح باب الحجز للسيارة فابيا ١٠٠٠ سى سى موديل ٢٠٠١ وذلك خلال معرض أوتوماك بتاريخ ٢٠٠١/٣/١٦ وبالأسعار المعلنة بالصحف ومنها صحيفتكم الموقرة إلى أن وصل عدد الحاجزين إلى ٢٥٣ حاجزا وطبقا لأولوية الحجز تم تحديد مواعيد استلام هذه السيارات خلال أشهر مايو ويونيو ويوليو ٢٠٠١ وطبقا لأعداد السيارات . التى سترد خلال هذه الشهور.

وبالفعل قامت الشركة بتسليم عدد ٣٠٠ سيارة وردت إلى مصر بشحنتين بتاريخ ٦/١٣ و ٦/٢٣ وسلمت للحاجزين طبقا لأولوية الحجز فى ٦/١٦ و٦/٢٦ أى بعد ٣ أيام فقط من وصولها للأسكندرية وبالرغم من أن المتفق عليه مع السادة الحاجزين أن السيارات موديل ٢٠٠١ وبمواصفات محددة لهم عند الحجز فقد تم تسليم الحاجزين سيارات موديل ٢٠٠٣ وبمواصفات أعلى بما اتفق عليه سابقا وتحمل الشركة تكلفة زائدة لهذه المواصفات حرصا منها على الالتزام مع عملائها دون طلب أى زيادة فى الأسعار التى تم الحجز بها.

وفى ٧/٧ وصلت لميناء الإسكندرية شحنة أخرى بعدد ٥٤ سيارة لباقى الحاجزين وتقدمت الشركة لمجتمع السيارات بالإسكندرية بالشهادة ٧٩٤ فى ١٠/ ٣ للإفراج عن الشحنة بالكامل إضافة إلى بعض الطرازات الأخرى لتسليمها لباقى الحاجزين. ومن هنا بدات المشكلة حيث رفضت مصلحة الجمارك الإفراج عنها من قبل ٧/١ وتقدير قيمة جمركية اعلى من القيم المثبتة بالفواتير الواردة من المورد بالخارج والموثقة من الغرفة التجارية وسفارة جمهورية مصر العربية بجمهورية التشيك والتى هى نفس قيمة الفواتير التى أفرج بها عن السيارات قبل ٢٠٠١/٧/١ وذلك لأنه صدرت اللائحة التفيذية لتطبيق قواعد التقييم الجمركى فى ظل اتفاقية الجات بالقرار رقم ٧٦٥ بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٥ والعمل به من ٢٠٠/٧/١ على موديلات ٢٠٠٢ واستثناء موديلات ٢٠٠١ من إجراءات هذه اللائحة حتى نهاية ٢٠٠١.

استمرت المراسلات والاجتماعات وعقد اللجان بين الشركة ومصلحة الجمارك ووزارة المالية، وذلك لرفض الشركة تطبيق القيمة الجمركية الجديدة لما يتبعها من زيادة فى تكلفة السيارات ورغبة من الشركة فى تسليم السيارات لباقى الحاجزين بنفس الأسعار التى تم الحجز بها وإلى الآن لم يتم الوصول لنتيجة إيجابية مما كبد الشركة خسائر كبيرة مع العلم بأن السيارات موجودة بالجمرك من ٢٠٠١/٧/٧ وفى النهاية أرجو توضيح الحقائق الاتية:

١. لم نقم بزيادة الأسعار من ١٠/١ حيث أننا لم نقم بعد بتحديد سعر بيع للسيارات التى سيفرج عنها والذى سيحدد بناء على تكلفة السيارات والرسوم الجمركية التى سنسددها.

٢ . لم نقم بخصم أى مبلغ من الراغبين فى استرداد ما سددوه والدليل على ذلك قيام ١٨ حاجزا باسترداد كامل قيمة حجزهم دون خصم أى مبلغ.

٣. بمراجعة أسماء الحاجزين ليس لدنيا حجز باسم المحاسب إبراهيم حافظ.

٤. شركة أرتوك أوتو هى التى قدمت السيارة سكودا للمستهلك بسعر منافس وبمواصفات عالية.

وبعد أن نشرنا هذا الرد فإننا نتوقع أن يصلنا من ادارة الجمارك ردا مفيدا، فقد سبق أن حذرنا من تطبيق القرارات بأثر رجعى، لما يسببه ذلك من أضرار تلحق بالمواطنين الذين تفاجئهم هذه القرارات دون أن يكونوا قد استعدوا لها!

(٧٩)

الإسكندرية وعصا المحجوب السحرية!(٢)

ربما كان أهم الفروق بين البلاد الغربية، التى استقرت نظمها، وبلادنا التى مازالت فى مرحلة الانتقال، هو دور الفرد ودور المؤسسة! ففى البلاد الغربية يتضاءل دور الفرد وينتظم دور المؤسسة، وفى بلادنا ينتظم دور الفرد ويتضاءل دور المؤسسة!

وعلى سبيل المثال، ففى بلد كانجلترا ، لايهتم الناس كثيرا بما إذا كان المحافظ الذى يعين لمقاطعة ما زيدا أو عبيدا، لأن الأمور فى هذه المقاطعة قد استقرت منذ قرون، وكل دوره هو إدارة دولاب العمل.

ولكن فى مصر فان الأمر يختلف ! فيمكن للمحافظ أن يرفع شأن محافظته إلى أعلى عليين، ويمكن لمحافظ آخر أن ينزل بمحافظته إلى أسفل الأسفلين! فقد كان فى الجيزة محافظ يدعى عبدالحميد حسن، وقد انهارت الجيزة فى عهده حتى نزلت إلى مستوى قرية من قرى الصعيد النائية! ويوجد فى الجيزة اليوم محافظ آخر هو المستشار محمود أبو الليل، وقد ارتقت المرافق فى عهده بقدرة قادر ، وكان مشروعه لتحويل مصرف اللبينى من مصرف يزكم الأنوف برائحته إلى شارع رئيسى ونفق تحت شارع الهرم نقله كبيرة للمحافظة!

كذلك الأمر فى مدينة الإسكندرية فإن الفرق بين محافظها السابق - رغم اجتهاداته - ومحافظها الحالى اللواء عبدالسلام المحجوب، هو الفرق بين مدينة الإسكندرية فى عهد المحافظ السابق، وهذه المدينة فى عهدها الحالى! وهو فرق هائل! منذ زرت مدينة الإسكندرية فى عيدالفطر السابق، فخيل إلى أننى لم أزرها منذ بداية هذا القرن! فالتطور الذى حدث تطور هائل يحتاج إلى نصف قرن من الزمان ، ولكن المحافظ الحالى أتمه فى بضعة أعوام! كيف حدث ذلك؟ إنه الفرق بين محافظ فى بلدنا أوفى بلاد العالم الثالث أو بين محافظ يدير أمور محافظته كما كانت تدار من قبله عشرات السنين، ومحافظ ذى رؤية، وصاحب فلسفة فى التطوير ، وصاحب طموح لترقية بلده لايحده حد، ولايقف دونه عائق. إنه محافظ لايعرف المستحيل ولايعترف بالمستحيل!

وما حدث فى الإسكندرية يبرهن على أن اللواء عبدالسلام المحجوب لم يسمع فى حياته بكلمة المستحيل لأن ما حدث كا مستحيل الوقوع بكل المعايير قبل مجيئه!

وقد كان من حسن حظ الإسكندرية أن جاءها عبدالسلام المحجوب فى هذا الوقت بالذات ، والمدينة توشك على الاختناق من شارع الكورنيش، الذى اكتظ بالسيارات القادمة والذاهبة حتى أصبح يبشر بالانسداد الكامل فى وقت قصيروعندما مررت بسيارتى فى شارع الكورنيش منذ أيام لم أعرف هذا الشارع وظننت أنى انتقلت إلى

مدينة أوروبية، بعد أن تحول من الضيق إلى الإتساع وكأن عصا سحرية قد مسته! لقد كانت عصا اللواء عبدالسلام المحجوب! وتعجبت لما يمكن أن يحدثه خيال محافظ طموح ذى رؤية من تطوير وتقدم فى بلدنا، وأدركت أننى كنت محقا عندما قلت منذ سنوات طويلة إن مشكلة بلدنا ليست مشكلة أيديولوجية! أى نظام اشتراكى أو رأسمالى، وإنما هى مشكلة إدارة فيمكن لإدارة فاسدة أن تحول مدينة جميلة إلى قرية خربة مقطعة الأوصال ، ويمكن لإدارة صالحة أن تحول قرية خربة إلى مدينة جميلة.ولقد شاهدت الإصلاحات التى تجرى فى منطقة طابية قايتباى. وكانت تفوق خيالى عندما دعوت منذ سنتين إلى العناية بها باعتبارها من أجمل البقاع فى مدينة الإسكندرية! فخيال اللواء عبدالسلام محجوب أخصب من خيالى على وجه التحقيق!

كم تمنيت لو كان فى مصر أكثر من عبدالسلام المحجوب إذن لتغير وجه مصر فى بضع سنوات، كما تغير وجه مدينة الإسكندرية.

(٨٠)
لغـز محضرى المحاكم!

فى كل التـجـديدات التى يقـوم بهـا السـيـد المستشـار فـاروق سـيف النصـر وزير العدل، لسـهـولة التـقـاضـى، وفك عـقـدة الروتين القـضـائى، بقى أن تلمس عـصـاه الأجهـزة المعـاونة للقـضـاء، وعلـى رأسـهـا أقـلام المحضـرين! فـرغم كل مـا طرأ على العـالم من تقـدم وتحـضـر ومـا طرأ على أدوات الكتـابة من تقـدم، انتقل بهـا من «الأقـلام البسط» و«الريشـة ودواة الحـبـر، والآلة الكاتبـة ـ أو الراقنة تسـمى فى بلادنـا العـربيـة، والكومـبـيـوتر فـإنه مـازال المحـضـرون فـى بلدنا يكتـبـون اخطاراتهم للمتقـاضين بخط اليد، وبطرق تشـعـرنا بأنا مـازلنا فى القـرن التـاسع عشر!

فـمن المسـتـحـيل على أى مـواطن مـصـرى أن يفك رمـوز أى أخطار يصل إليه من قلم المحضـرين بأى محكمة! فمع أن الأخطار يكون عـادة مطبوعا تحت عنوان! «إخطار غلق ـ امتناع فإن خانات الإخطار البيضاء التى يملؤها المحضرون تكون مكتوبة بالرموز أى خط لايقرأ! كأن يتقيد المحضـر لكتـاتبـه على هـذا النحو الغـامض لإرهـاب الموجـه إليه، وحـتى «يلوص» فى البحث عن محام يقرأ له الإخطار ويفك رموزه!

ففى يدى إخطار من محضر محكمة الهرم عجزت عن فك رموزه! وفيه الأتى: «نخطركم بأن المحضر قد توجه لاعلانكم (هذا الكلام مطبوع) وما بعده بخط المحضر لايقرأ! وبالتالى يتعذر معرفة سبب الإخطار! وبعدها عبارة «بناء على طلب» وهى عبارة مطبوعة، وبعدها عبارة غير مقروءة بخط المحضر: وبالتالى يتعذر معرفة اسم المحكمة الطالبة ! وبعدها عبارة يتعذر سكنكم محلكم مغلقا ولم نجد من يتسلم عنكم قانونًا، نظر لامتناع » ، وهى عبارة مطبوعة وبعدها «شخبطة» ثم عبارة «عن الاستلام وهى مطبوعة» لذلك سلمت الصورة الخاصة بكم بقسم شرطة « وهى عبارة مطبوعة وأما قسم الشرطة، فقد ميزته بصعوبة وهو «الهرم» إلى آخره!

فهل هذا معقول؟ وهل ينطبق على مثل هذا الإخطار معنى الاخطار؟ وهل يعنى بالغرض المقصود منه، وهو توصيل معلومة إلى المتقاضى ألا يدعونا ذلك إلى المطالبة بعودة نظام «شيخ الحارة كصلة بين الدولة والمواطن بدلا من هذه الرموز التى يكتب بها المحضرون إخطاراتهم؟

ثم أنه يجب تغيير نظام عمل المحضرين من وردية الصباح إلى وردية المساء! فما هو معنى وصول المحضر إلى مقر المعلن إليه فى وقت يعلم هو قبل غيره أنه فى مكان عمله؟ أليس الأجدى أن يمر المحضر على مكان المعلن إليهم فى الوقت الذى يكونون فيه قد عادوا من العمل؟ اللهم إلا إذا كانت الدولة تتعامل مع مجموعة من العواطلية أو الذين يزوغون من أعمالهم!

لهذا السبب أراح المحضرون أنفسهم ، فهم يزعمون أنهم قاموا بالمرور على المقار ولم يجدوا أحدا وهو كذب! وعلى سبيل المثال فأمام بيتى حرس رسمى ، ولم يخطرنى أحد بمرور أحد المحضرين الذين يزعمون المرور على مقرى ولم يجدوا أحدا!

والقضية تحتاج إلى متابعة!

(٨١)

لنبدأ بتحديث موظفى الحكومة

فى مقالنا السابق تحدثنا عن أحد الأجهزة المعاونة للقضاء فى مصر ، وهو جهاز المحضرين ، وقلنا إن الطريقة التى يكتبون بها الإخطارات الموجهة إلى المتقاضين تحتاج إلى متخصصين فى فك الرموز، إذ لايمكن للمواطن المصرى العادى أن يقرأها ويعرف ما هو المقصود منها، بسبب رداءة الخط.

وطالبنا بتحديث هذا الجهاز، وتحديث «الإخطارات» بالتالى مع تحديث أدوات الكتابة فى مصر وفى العالم، وانتقالها من قلم البسط ودواية الحبر إلى الكومبيوتر!.

وأستطيع أن أؤكد أن بلادا عربية سبقناها فى مضمار الحداثة منذ عشرات السنين أصبحت تستخدم الآلة الكاتبة فى كل مكاتباتها الرسمية ! بما يعنى أن كل من يعمل فى هذه الأجهزة الرسمية يعرف الكتابة على الآلة الكاتبة!

فعندما كنت أستاذا زائر فى جامعة قسنطنية بالجزائر فى سنتى ١٩٧٣/ ١٩٧٤ حدث أن ضاعت بطاقتى الشخصية ورخصة القيادة ،

وكان على بطبيعة الحال أن أحرر محضرا فى قسم البوليس، وفوجئت بأرجل البوليس الذى يكتب المحضر، يجلس إلى الآلة الكاتبة، ويكتب الأسئلة التى يوجهها إلى ، والأجوبة بنفسه! ثم طلب منى فى آخر الأمر التوقيع، فوقعت تحت اسمى ، ووقع هو تحت اسمه!.

وقد أثار هذا فى ذهنى قضية التوقيعات الرسمية فى المحررات الرسمية فى مصر، فهى عبارة عن «شخبطة» لامعنى لها يتعذر على أى فرد، أوجهة معرفة شخصية الكاتب. أذا تطلب الأمر ذلك؛ فالمواطن المصرى يتعامل مع مسئولين مجهولين بطريقة الشخبطة مع أن المنطق يقول بضرورة أن يكتب المسئول اسمه بخط واضح جدًا ثم يوقع تحته.

وهو ما تفعله البنوك! فلكل عميل نموذج معروف لتوقيعه مقترن باسمه ومعروف للمسئول فإذا لاحظ المسئول أى اختلاف طلب من العميل إعادة التوقيع!

ولكن فى مصر يتهرب المسئولون من التوقيع بخط واضح ، دون أن يكون لدى الإدارة نموذج باسمائهم وتوقيعاتهم للرجوع إليها عند الضرورة!

وفى أوروبا أصبحت الكتابة بخط اليد من مخلفات الماضى! وأصبحت معرفته بالكتابة بالآلة الكاتبة ضرورة من ضرورات التوظيف. إذ لايتصور المجتمع الأوروبى موظفا يكتب المحررات بخط يده لأنه لايعرف الكتابة على الآلة الكاتبة!

ومن هنا فإذا كان الرئيس مبارك يرفع شعار تحديث مصر، فمن الضرورى تحديث المحررات الرسمية عن طريق كتابتها بالآلة الكاتبة، وتوضيح أسماء المسئولين الذين يحررونها لتحديد المسئولية، فليس معقولاً فى القرن الواحد والعشرين أن تسير مكاتباتنا الرسمية بنفس أسلوب القرن التاسع عشر!!!

(٨٢)

رسالة عاجلة لوزير الداخلية!

فى ليلة رأس السنة، وفى أثناء عودتى من جلسة مجلس الشورى المسائية إلى الهرم من شارع كورنيش النيل، وأمام السفارة البريطانية، فوجئنا بسيارة حمراء ماركة دايو تكسر الطريق علينا وهى تسير بسرعة، ونجدنا منها بأعجوبة، كان يقود السيارة شاب، يقود بيد وفى اليد الأخرى زجاجة خمر! وكان فى السيارة ثلاثة من الشبان كل منهم فى يده زجاجة خمر، وأمرت سائق سيارتى أن يلحق بالسيارة فى أول إشارة مرور. وهو ما حدث والتقطت مع حارسى رقم السيارة وسجلته عندى، وهى ملاكى كفر الشيخ. ولوحظ أنه يثبت إلى لوحة رقم السيارة المعدنية «بادج» النسر! للإرهاب، وللإيهام بأن السيارة فوق القانون خصوصا وهى تحمل لوحة من أربعة أرقام فقط.

حمدنا الله على النجاة، وإن كان الحزن داخلنى لهذا المشهد الذى لم أشهده فى أى بلد متحضر، وهو مشهد سيارة يقودها شاب مخمور لايخفى فجوره، فهو يقود السيارة بيد ويحمل فى اليد الأخرى زجاجة خمر. ويشاركه فى السيارة ثلاثة شبان يحمل كل منهم زجاجة خمر، ويسير بسرعة جنونية ويعرض حياة الناس للخطر! وتعجبت كيف

اخترقت هذه السيارة شوارع القاهرة دون أن يلتفت إليها أحد رجال المرور، ودون أن يستوقفها أحد !!

دعوت الله ألا تتسبب هذه السيارة فى حادثة يروح ضحيتها أبرياء لا ذنب لهم إلا خروجهم فى تلك الليلة التى تحتفل بها شعوب العالم للترويح عن أنفسهم، فيفقدون حياتهم أو يتعرضون لإصابات بالغة على يد شاب أهوج مستهتر اقتنع بأنه يستطيع أن ينتهك حرمات قانون المرور بهذا الشكل السافل، ومعه أصدقاء من شاكلته ، محتميا «ببادج» النسر يثبته إلى لوحة سيارته المعدنية!

لم أصدق بطبيعة الحال أن السيارة مملوكة لمسئول مصرى يستطيع الحصول على لوحة معدنية تحمل ٤ أرقام وإلى جوارها بادج النسر فجميع من أعرفهم من المسئولين فى مصر، بلا استثناء ، يتصرفون بمسئولية ، ويربون أولادهم أحسن تربية لكى يرثوا مسئولياتهم . كما أننى أعرف أن وزراءنا لايحمون مخطئا، ووزير الداخلية اللواء حبيب العادلى أشدهم جميعا فى تطبيق القانون على الكبار قبل الصغار.

ومن هنا كان السؤال الذى يحيرنى: من هو صاحب السيارة الذى أعطى لنفسه ولابنه كل هذا السطو على حساب القانون وعلى حساب أمن المجتمع ؟! ألا يعلم أن ابنه سوف يكون هو أول ضحية لحادث تصادم يرتكبه وهو يقود بيد واحدة ويحمل فى اليد الأخرى زجاجة خمر يحتسيها؟

(٨٣)

مأساة امتحانات الجامعات فى فصل الأخطار

آمل ألا يعتقد الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالى أنى أهاجمه وأنا أكتب هذا المقال، فلايعطيه ما يستحق من الاهتمام! فالموضوع لايتعلق بمصلحة خاصة بى بعد أن أفلح فى إبعادى عن الجامعة بسبب موقفى من قانون الجامعات. ولم يعد هذا الموضوع يدخل فى اهتماماتى الشخصية ، وأنما هو يتعلق بمصلحة أبنائنا - أى يدخل فى إطار مستقبل شباب هذا البلد!

إن ما حدث يوم الخميس الأسود والسبت الأسود فى مخيمات الامتحانات فى جامعة عين شمس وغيرها، بسبب الأمطار الغزيرة، يثير قضية نظام «التيرمين» - أى الفصلين الدراسيين فى العام الدراسى الواحد!

فلم يعد يناسب أوضاع بلدنا عقد امتحان فى الشتاء بأى حال من الأحوال ، فى ظروف افتقار جامعاتنا للأماكن الكافية لاستيعاب الطلبة الممتحنين، واضطرار المسئولين عن الجامعات إلى الاستعانة بالمخيمات القماش.

إن الاستعانة بالمخيمات القماش فى الصيف لايسبب أية مشكلة ، ولكن الاستعانة بها فى الشتاء أى فى فصل الأمطار - هو مخاطرة جسيمة يدفع أبناؤنا الطلبة ثمنها غاليا!

وما حدث فى يومى المطر الغزير فى القاهرة فى بعض جامعاتها مما أتيح لى مشاهدة جانب منه بطريق الصدفة، - هو مأساة بكل المعايير ، بل فضيحة لو شاهدها مراسل أجنبى، لتحولت مصر فى نظره إلى دولة من الدرجة الرابعة!

لقد سقطت بعض الخيام أثناء أداء الطلبة امتحاناتهم ، وامتلأت جميع الخيام بمياه الأمطار لتسقط على رءوس الطلبة أثناء تأدية امتحاناتهم ، فيغرقون فى هذه المياه! فضلا عن البرد القارس الذى يجمد الأطراف والذى يتسلل من فتحات الخيام، والذى يشل تفكير الطلبة عن الإجابة الصحيحة ! يضاف إلى ذلك الشلل الذى تحدثه الأمطار فى مصر فى وسائل المواصلات والشوارع - مما يعوق الطلبة عن الوصول إلى مقار امتحاناتهم!

ناهيك عن الفوضى التى تدب فى الامتحانات عند سقوط إحدى الخيام ، وما يترتب على ذلك من إعادة ترتيب أماكن الجلوس فى أماكن أو خيم أخرى لم تكن معدة لاستقبال هؤلاء الطلبة!

ولقد شاهدت منظرا بطوليا لعميدة كلية بنات عين شمس ، الدكتورة حمدية زايد والدكتور أبو الخير بيومى ، وكيل الكلية لشئون الطلاب، وهما يقفان خارج الخيام فى البرد القارس الزمهرير

لاستقبال الطلبة الذين وصلوا إلى أماكن الامتحان. لارشادهم إلى الأماكن البديلة التى أعدت لهم بجهود خارقة فى وقت وجيز بسبب فساد الخيام. وفى حالات أخرى بسبب الأمطار، لم يصل إلى مخيمات الامتحان ـ فى الوقت المناسب أكثر من ربع عدد الطلبة الممتحنين!

هذا الذى حدث هذا العام يمكن أن يحدث مثيله كل شتاء تقريبا فى جامعة عين شمس وفى جامعات أخرى فى أنحاء مصر، مع كل الاضرار التى يسببها للطلبة وللأساتذة وللعمداء ولرؤساء الجامعات، على نحو أصبح يحتم إعادة النظر فى عقد امتحانات فى فصل الشتاء ـ فصل الأمطار ـ اذا كنا جادين، فى العملية التعليمية ، وهو مالايمكن أن يتم إلا بالعدول عن نظام التيرمين وهو ما نناقشه فى مقال آخر!

(٨٤)

رد يستحق التقدير من وزير الداخلية

الرسالة التى وصلتنى من السيد اللواء شريف جلال، مدير الإدارة العامة للإعلام والعلاقات بوزارة الداخلية تستحق النشر كاملة لسببين أولهما أنها توضح اهتماما مشكورًا من اللواء حبيب العادلى، وزير الداخلية، بما ينشر فى الصحافة خاصا بوزارته ـ وقد عودنا على ذلك دائما! ـ كما أنها تكشف عن كفاءة أجهزة الأمن وسرعتها فى الكشف عن المخالفين وهو ما يمثل عنصر ردع مطلوبا لاستتباب الأمن والنظام.

أما السبب الثانى فإن الرسالة تكشف عن ظاهرة باتت تؤرق مجتمعنا المصرى ، وهى ظاهرة الشباب «المنفلت » الذى سكرته الثروة، وتصور أنها تبيح له الاعتداء على المجتمع المصرى وعلى قيمه وآدابه، وتهديد أمنه وحياة أفراده.

وتمضى الرسالة على النحو الآتى بعد المقدمة:

«إلحاقا لما نشر من سيادتكم بصحيفة الجمهورية بتاريخ ٢٠٠٢/١/٤، والمتضمن واقعة قيام قائد السيارة رقم ٥٩٤٢ ملاكى كفر

الشيخ، بكسر الطريق على سيارة سيادتكم أمام السفارة البريطانية بالقاهرة ، وبيده زجاجة خمر ، ويصحبته مجموعة من الشباب.

«تود الإدارة العامة للإعلام والعلاقات أن تحيط سيادتكم علما بقيام إدارة مرور كفر الشيخ بضبط السيارة المنوه عنها حيث تبين أنها كانت بقيادة المدعو محمد إسماعيل إبراهيم الفرابلى، ٢٨ سنة، مندوب مبيعات بدولة الامارات، ومقيم بكفر الشيخ

«وقد أقر بقيادة السيارة فى هذه الواقعة مع أصدقائه.«وقد تم إتخاذ الإجراءات القانونية ضده، كما تم سحب أرقام السيارة المذكورة وتفضلوا سيادتكم بقبول وافر الاحترام،

التوقيع: لواء شريف جلال ، مدير الإدارة العامة للإعلام والعلاقات»وأنى وأنا أتوجه بالشكر للواء حبيب العادلى وزير الداخلية لهذا الاهتمام ، وإلى اللواء شريف جلال، وإلى إدارة مرور كفر الشيخ، ولكل من ساهم فى ضبط السيارة المذكورة وضبط سائقها - أود أن أوضح أننى حين كتبت مقالى سالف الذكر ، كنت أريد أن يقرأ الشباب الأرعن المستهتر- أو يقرأ له ذووه ! - هذ المقال، ويعرفوا - أن إفلاتهم من رقابة رجال المرور، لاتعنى افلاتهم من قبضة رجال الأمن!

فجميعنا رجال أمن! وجميع من يمر بالطريق رجال أمن . لأن الأمن هو مصلحتنا جميعًا ، وما يهدد الأمن يهددنا جميعنا!

فعلى الرغم من أننى أفلت بسيارتى ومن معى من صدام كاد يلحقه ذلك الشاب المخمور بسيارتى فيوردنا مورد التهلكة فإنى ظللت طوال

الليل قلقا على أبرياء غيرى قد يكونون ضحية فى تلك الليلة لذلك الشاب المستهتر ، الذى يقود سيارته بيد، وفى يده الأخرى زجاجة خمر يحتسيها!

ولكن بعد أن تبين من رسالة اللواء شريف جلال أن هذا الشاب يعمل مندوب مبيعات بدولة الإمارات ، فإن السؤال الذى طرأ على ذهنى وأحزننى كثيرا : «هل كان يجرؤ هذا الشاب على قيادة سيارة فى دولة الإمارات على هذا النحو؟ - أى يقود بيد ويحتسى الخمر بيده الأخرى؟!

(٨٥)
يوم الخميس الأسود

ما حدث فى القاهرة فى يوم الخميس ١٠ يناير ٢٠٠٢ الممطر، هو - بصراحة تامة - دليل دامغ على فشل إدارى ذريع تعانيه الإدارة المصرية فى القاهرة - ناهيك عن المحافظات الأخرى! لم يأت فصل الشتاء فجأة دون انتظار، بل نحن بالفعل فى فصل الشتاء ! وصحيح أ سقوط الأمطار نادر فى مصر، ولكن لدينا - كما هو معروف «أرصاد جوية» تستطيع أن تتنبأ بسقوط الأمطار!

وفى بلاد أقل منا بكثير تمدنا وتحضرا، فإن الإدارة تهب فى الحال لتسليك بالوعات الصرف وتنظيفها، حتى لاتتراكم المياه فى الشوارع وتسبب شللا فى حركة المرور والمواصلات ، وتعطل مصالح الناس.

وحتى لو كانت محافظة القاهرة مفتقرة إلى الأيدى العاملة الكافية لتسليك وتنظيف البالوعات فى محيط القاهرة كله، فإن الإدارة الذكية القادرة تستطيع أن تعرف الأماكن التى يمكن أن تتجمع وتتراكم فيها مياه الأمطار ، فتركز جهودها على العمل فيها، لتخفيف الأضرار ما أمكن.

ولكن الإدارة المصرية إدارة تتمتع بقدر غير محدود من الغباء، وعدم الكفاءة ، والبلادة، والتسيب ! فهى لا تجد من يحاسبها، لأن من يحاسبها لايقل عنها غباء وعدم كفاءة وبلادة! ولذلك ففى كل عام من الأعوام، وفى كل شتاء ، تحدث هذه الكارثة التى حدثت يوم الخميس ١٠ يناير، فتتحول الشوارع إلى بحار، وتتعطل المواصلات ، ويتبهدل المواطنون بهدلة لامثيل لها فى ذهابهم وإيابهم إلى أماكن عملهم ، وبعضهم لايصل إليها!

وأما الطلبة، وغالبيتهم العظمى من الفقراء الذين يحصلون على مصروف يدهم من ذويهم بما لايكاد يكفى مطالبهم المتواضعة، فلايجدون أمامهم من وسيلة للمواصلات للوصول إلى أماكن امتحاناتهم إلا الجرى فى الطرقات فى جنون لكى يصلوا فى الوقت المحدد!

على شريط المترو الموصل إلى جامعة عين شمس، وقد تعطل المترو بسبب انقطاع الحرارة ، كنت تشاهد الطلبة يعدون على شريط المتر وفى أيديهم كتبهم وكراساتهم ، وقد بلل المطر أجسادهم ووجوههم ! فلا يملك واحد منهم - ما يمكنه من استقلال تاكسى لتوصيله إلو الكلية!

وفى الطرق إذا تعطلت سيارة فى وسط بحور المياه، استحال على قائدها أو قائدتها الخروج منها ، فيبقى أو تبقى حبيسه إلى آخر النهار!

والقضية كلها تبعث على اليأس من الإصلاح ! فما حدث يحدث كل شتاء دون تغيير! ومعاناة شعبنا من هذه الإدارة الفاشلة لاتنحسن ! فالكل نائم فى العسل! صغارا وكبارا ! ثم يفيق فجأة بعد فوات الأوان ! والاقتصاد المصرى يدفع الثمن ، وجمهورنا المصرى يدفع الثمن!

(٨٦)

الدكتور سلام والصحة بين التعليم والتدريب!

منذ وقت طويل، وبسبب الرسائل التى تصل إلىّ من القراء الذين يشكون من الأطباء ومن المستشفيات ومن الاستغلال كان قد تكون لدى اقتناع بأن مشكلة أطبائنا لاتتمثل فى الدرجات العلمية، وإنما تتمثل فى عدم القدرة على التشخيص السليم ! وهو ما يؤدى إلى الهلاك، لأن التشخيص السليم هو أساس العلاج السليم، فإذا كان التشخيص خاطئا كان العلاج خاطئا!

ثم حدث أن دخلت بنفسى فى التجربة، عندما أصبت بغيبوبة سكر عندما انخفض مستوى السكر فى دمى إلى درجة تهدد بدمار المخ! وعندما اصطحبتنى زوجتى إلى مستشفى الهرم، جاء تشخيص الطبيب بأنى مصاب بجلطة فى المخ»! وكان الطبيب مدرسا فى جامعة الأزهر ، وبالتالى لاتنقصه الدرجات العلمية الرفيعة وأصبح العلاج قائما عل أساس هذا التشخيص الخاطئ ، ولوحدث ذلك لما كان هذا القلم يسطر هذه الكلمات الآن، ولأصبحت فى خبر كان! ولكن تحرك زوجتى السريع واتصالاتها بالدكتور إبراهيم فوزى وزير الصناعة وقتذاك والدكتور مصطفى كمال حلمى والدكتور ماهر مهران وزير السكان،

أدت إلى نقلى إلى مستشفى عين شمس التخصصى، الذى شخص الحالة على الفور التشخيص السليم وبعد ساعة واحدة من الزمان كنت قد استعدت وعيى وحالتى الصحية كاملة! فلم يكن الشفاء من الغيبوبة السكرية المنخفضة يتطلب أكثر من حقنى ببعض الكلوكوز لايتجاوز سعره بضعة جنيهات ! ولوجرى العلاج على أساس التشخيص الخاطئ، وهو «الجلطة فى المخ»، لتطلب ألوفا مؤلفة من الجنيهات ولكن بدون جدوى!

وقد كان بعد ذلك أن دار حوار بينى وبين الدكتور إسماعيل سلام فى مجلس الشورى ، ولم يكن قد أصبح وزيرا بعد ، وإنما كانت له رؤية وفلسفة سطرها فى تقارير مجلس الشورى، بوصفه رئيس لجنة الصحة والسكان والبيئة . وكان مما قلته له ماذا يستفيد المريض المصرى من الدرجات العلمية التى يحملها الطبيب المعالج، إذا كان عاجزا عن التشخيص السليم لحالة المريض؟

من هنا فقد سعدت كثيرا عندما عرفت أن الدكتور إسماعيل سلام، بعد أن أصبح وزيرا للصحة، أدخل نظام التدريب فى وزارة الصحة، وأصبح التدريب هو الأساس فى الترقية ! وتقوم بالامتحان لجنة على مستوى عال من أطباء عالميين من أوروبا وأمريكا ومصر، وتعطى شهادة زمالة مصرية.

عندئذ أدركت أن مصر قد أصبحت على الطريق السليم الذى يوصل إلى خدمة شعبنا ! فضلا عن أن رفع مستوى أطبائنا لايخدم

مرضانا فقط ، بل يخدم أيضا الأطباء المصريين الذين يحصلون على شهادة الزمالة المصرية، ويرفع مرتباتهم فى البلاد العربية

ومن هنا لا أملك إلا أن أوجه الشكر للأستاذ الدكتور إسماعيل سلام على ما يحدثه من تطوير فى مستوى الخدمة الطبية منذ تولى وزارة الصحة ، والله هو المجازى أولا واخيرا!

(٨٧)

الدور المفقود للقطاع الخاص

منذ أن حدث التغيير الراديكالى فى الاقتصاد المصرى بالاتجاه إلى الاقتصاد الرأسمالى، والعفو عن القطاع الخاص، الذى كان مغضوبا عليه فى عصر عبدالناصر، وكان محروما من الاشتراك فى التنمية الاقتصادية - تحول الاعتماد من القطاع العام إلى القطاع الخاص فى التنمية، وبالتالى فى التوظيف! وتحول اهتمام الجماهير المصرية من العمل فى القطاع الحكومى والقطاع العام إلى العمل فى القطاع الخاص، بسبب الفروق الشاسعة بين المرتبات فى القطاع العام عن القطاع الخاص، واختفت المقولة الشهيرة: إن فاتك الميرى، اتمرغ فى ترابه! فقد «أصبح التمرغ اليوم فى القطاع الخاص»!!

على هذا النحو أصبح الأمل فى القضاء على البطالة معقودًا على القطاع الخاص، الذى وقعت فى يده اليوم غالبية وسائل الإنتاج

والسؤال الآن: هل يقوم القطاع الخاص بدوره كاملا فى القضاء على البطالة؟

إن فى الرسالة التى وصلتنى من السيد محمد هانى عبدالعظيم قد تجيب عن هذا السؤال!

يقول السيد محمد هانى إن القطاع الخاص يتحايل فى سوق العمل بمالايساعد على حل مشكلة البطالة!

فعلى الرغم من أن قانون العمل يحدد ساعات العمل بثمانى ساعات فى اليوم فإن العامل فى معظم منشآت القطاع الخاص يعمل لمدة ١٢ ساعة ! خاصة فى المنشآت الصناعية الجديدة التى توجد بجميع المدن الصناعية والتى يستمر العمل فيها ٢٤ ساعة على ورديتين، كل وردية ١٢ ساعة (من ٨ صباحا إلى ٨ مساء، ومن ٨ مساء إلى ٨ صباحا) ففى ذلك ظلم لحق العامل وحق الدولة! ويضاعف من مشكلة البطالة! فلو أن المنشآت التى يعمل بها فى الوردية الواحدة ٢٠٠ عامل ، طبقت قانون العمل ٨ ساعات، لاحتاجت فى الورديات الثلاث إلى ٦٠٠ عامل، ولكنها اليوم لاتحتاج لأكثر من ٤٠٠ عامل فقط لأنها تعمل بنظام ١٢ ساعة عمل فى اليوم! ولو أن عدد الشركات التى تعمل ٢٤ ساعة فى اليوم يعمل بها ٣ ملايين عامل فى الوردية الواحدة، لاحتاجت إلى ٣ ملايين عامل جديدة لكى تعمل ثلاث ورديات.

ولو نظرنا إلى المسألة من الناحية الاجتماعية، فإن العامل الذى يعمل ١٢ ساعة فى اليوم يحتاج عادة لتحضير نفسه للعمل والوصول إليه إلى ساعتين صباحا، ومثلهما للعودة مساء ومثل هذا العامل الذى يكرس ١٦ ساعة للعمل يوميا لايستطيع أن يقوم بواجباته الاجتماعية نحو أسرته ومجتمعه !

صحيح أن العامل الذى يعمل ١٢ ساعة يحصل على أجر إضافى عن هذا العمل الاضافى ، ولكن أليس من الأفضل إعطاء هذا

الإضافى لعامل آخر للتخفيف من مشكلة البطالة ولكن الكثير من أصحاب الأعمال اليوم يتعاقدون مع العامل على الأجر على أساس أن المبلغ المحدد فى العقد هو العمل ١٢ ساعة لعلى كل حال فأعتقد أن هذه الرسالة جديرة بنظر المسئولين حفظًا لحقوق جميع الأطراف!

(٨٨)

حول مركز الفحص الطبى الشامل!!

ربما كان الفارق الحضارى الذى يميز المجتمع الغربى عن المجتمع المصرى، هو ما يتمثل فى ميدان الصحة! فالفرد المصرى يفاجأ بالمرض فى مراحله المتقدمة، أما الفرد الغربى فيكتشفه فى مراحله المبكرة من قبل أن يتحول إلى مرض خطير يصعب علاجه، فيبادر إلى علاجه بأبسط التكاليف.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المريض المصرى لايذهب إلى الدكتور إلا عندما يدهمه المرض، أما المريض الغربى، فقد نظم المجتمع المتحضر له ما عرف باسم «نظام الفحص الطبى الشامل»! وهو يجرى على الأشخاص الأصحاء الذين لايعانون من أية أمراض، ولايشكون من أية أعراض، وقد تكمن فيهم أمراض لم تظهر أعراضها بعد، فتعالج فى الوقت المناسب، قبل أن تستفحل وتكلف صاحبها غاليا، أو تكلفه حياته.

لم يكن هذا النظام قد ظهر فى مصر، ومن ثم كان اكتشاف المرض عند أى فرد يتم متأخرا بعد فوات الأوان، ولذلك سعدت كثيرا عندما

عرفت أن إدارة معهد ناصر للبحوث والعلاج قد افتتحت وحدة للفحص الشامل ، بعد التطوير والتحديث فى التجهيزات الطبية وأسلوب العمل، بما يجعلها تضارع أحدث الوحدات التخصصية العالمية وقد أسندت إدارة هذه الوحدة للأستاذ الدكتور صلاح الغزالى حرب، أستاذ أمراض الباطنة والقلب بكلية طب جامعة القاهرة، واستشارى الغدد الصماء والسكر

وأعتقد أن افتتاح هذه الوحدة يعد خطوة عملاقة على طريق تحديث الطب فى مصر، وهى إحدى ثمار الجهود التى يبذلها الأستاذ الدكتور إسماعيل سلام وزير الصحة للنهوض بالخدمة الطبية، خصوصا وهو يتبع معهد ناصر له شخصيا ، ويتحدى به المستشفيات الاستثمارية الخاصة!

ولقد اتيحت لى الفرصة لزيارة هذه الوحدة منذ أيام، وشاهدت تفاخر الدكتور محمد شريف مدير المعهد بوجود هذه الوحدة فى معهده!

وقد علمت من الدكتور صلاح الغزالى حرب أن خدمة الفحص الشامل التى يقوم بها مركزه تقدم بأسعار رمزية لاتقارن بما تقدمه المراكز المثيلة فى الخارج، فتكاد لاتصل إلى ربع هذه الأسعار!

والمشكلة أن تحديث الخدمة الطبية الممتازة لم يصاحبه تحديث الإنسان المصرى!! فالإنسان المصرى يكره تقدير البلاء قبل نزوله» وهو

يفضل نزول البلاء أولا، ثم يتصرف وفق متطلباته! وقد يكون الأوان قد فات !

بالنسبة للمرض فإن المصرى يكره التنبؤ بالمرض قبل وقوعه، ويتشاءم من ذلك، مع أن نجاة المريض مرتبطة بالتنبؤ بالمرض قبل وقوعه! وهذه هى المفارقة!

(٨٩)
الدكتور شهاب وامتحانات الجامعات تحت الأمطار!

فى مقالى المنشور يوم الخميس الماضى ٢٠٠٢/٢/١٧ تحت عنوان «مأساة امتحانات الجامعات فى فصل الأمطار» كنت قد أثرت قضية ما يعانيه طلبة الجامعات من متاعب رهيبة للتوجه إلى أماكن امتحاناتهم فى فصل الشتاء عند سقوط الأمطار، وضربت المثل بما حدث يوم الخميس المطير الأسود ١ فبراير عندما تحالفت الأمطار مع البرد القارس على الطلبة فى أثناء توجههم إلى أماكن امتحاناتهم ، مع انقطاع المواصلات!!

كذلك أثرت ما يحدث للخيام التى يمتحن فيها الطلبة من امتلائها بالماء الذى يتساقط فوق رءوس الطلبة، وسقوط بعضها على رءوسهم لتغرقهم فى مياهها هذا فضلا عما يتخلل من فتحات الخيام من رياح قارسة تجمد الأطراف!!

كما أثرت العناء الكبير الذى يصيب العمداء والوكلاء عند نقل الطلبة المتحنين من خيامهم الساقطة إلى أماكن أخرى لم تكن معدة لاستقبالهم أصلا!

وقلت إن السبب فى ذلك هو نظام الفصلين الدراسيين (التيرمين) الذى يحتم عقد امتحانين فى العام الدراسى الواحد: الأول فى «التيرم الأول» والثانى فى «التيرم الثانى» وفى الوقت نفسه عدم استعداد جميع الكليات الجامعية فى مصر لاستيعاب أعداد الممتحنين من الطلبة، واضطرارها إلى الاستعانة بالخيام القماش التى لاتحمى من مطر ، ولاتصد ريحا باردة

هذا فضلا عن أن يوم الشتاء قصير ويستحيل فيه على الطالبة التى تعود إلى بلدتها البعيدة بالقطار، استكمال امتحاناتها فكثير منهن يضطررن إلى عدم إكمال الامتحان إلى نهايته، لابسبب عجزهن عن الإجابة وإنما بسبب ضرورة لحاقها بالقطار الذى يوصلها إلى بلدتها البعيدة قبل الظلام!

وهذا كله هو أحد الجوانب السلبية فى نظام «التيرمين »! ولكن هناك جوانب أخرى تتصل بالعملية التعليمية الناقصة والقاصرة التى يسببها نظام «التيرمين»

فمن المحقق أن الشهرين الدراسيين - اللذين يحتويهما الفصل الدراسى الواحد من الناحية الفعلية - غير كافيين ليؤدى فيهما الأستاذ واجبه كاملا! وفى الوقت نفسه غير كافيين لاستيعاب الطلبة الدروس والمقررات الدراسية المطلوبة أو إجراء الأبحاث المطلوبة!

فبسبب قصر المدة، وعجز المكتبات من استيعاب الطلبة الذين يعدون أبحاثهم . فإن الزحام يكون شديدًا، والطوابير طويلة والوقت

قصير جدا ويكاد يستحيل على الطالب إنجاز البحث المطلوب بالكفاءة اللازمة ، وبالتالى تخرج هذه الأبحاث «مسلوقة» تفتقر إلى الجدية اللازمة لهذه الأبحاث!

وإذا انتقلنا إلى الأساتذة فإن كل الظروف تنعكس عليهم سلبا ! كما تنعكس على الأبحاث التى يعدونها للترقية! إذ لايتبقى للأستاذ وقت ليعد أبحاثا جيدة بعد التدريس، والامتحانات والتصحيح ، وغير ذلك من الواجبات الجامعية

والنتيجة المحتومة هى صورية العملية التعليمية وسطحيتها ، وانهيار التعليم الجامعى، وضعف مستوى الخريجين ومن هنا فلعل الوزير يطرح قضية «التيرمين» فى مؤتمر عام يغطى أبعاد هذه المأساة!

(٩٠)
الغلطة التى وقع فيها السويركى

من المحقق أن الغلطة الوحيدة التى وقع فيها السويركى ، كانت غلطة حسابية! ولكنها كلفته سبع سنوات فى السجن! فلاأستطيع أن اتهمه بمخالفة الشرع عمدا، فلو كان كذلك بالفعل لما لجأ إلى هذا الأسلوب للمتعة وهو الزواج، ولفعل مثل غيره من الأثرياء الباحثين عن المتعة، والحصول عليها «بالتليفون» وهو متاح على قنوات التليفزيون التى تعرض الأفلام الجنسية، ففيها يرى عروضا عديدة مغرية، تتحدث بكل اللغات، ومنها العربية وعلى المشاهد الاتصال بها فورا على رقم التليفون الموضح على الشاشة، لقضاء وقت ممتع بأسعار أقل بكثير من الأسعار التى دفعها السويركى مهورا لفتيات نصف حسناوات، جاهلات بأساليب المتعة التى تتبعها فتيات الشاشة الحمراء!

كانت غلطة السويركى أنه لم يحسبها جيدا! فهو يعرف أن من حقه شرعا الزواج بأربع زوجات ولأنه ملتزم بالشرع، فقد احتفظ بالأولى والثانية ، وكان يبدل فى اثنتين، فيزوج ويطلق، فى حدود الشرع!

ثم حدثت الغلطة القاتلة عندما أخطأ الحساب، ونسى أن يطلق واحدة ليستبدل بها الأخرى ، فوقع فى المحظور وإذا به يحوز أكثر من أربع زوجات، ويقع تحت طائلة العقاب!

ولايعلم أحد من هو الذى أوقعه فى تلك الغلطة القاتلة! هل هو الموظف المكلف بالزوجات ، أو هى ذاكرة السويركى التى أعياها عدد الزيجات والطلاقات! أو هى مؤامرة مدبرة للرجل؟

ولكن الأمر المحقق هو إنتفاء القصد الجنائى، لسبب بسيط هو أن السويركى لو كان يقصد مخالفة الشرع، لخالفه كما يخالفه الأثرياء ذوو الخبرة والذكاء والعلم ولايستمتع بما لم يكن يحلم به هارون الرشيد نفسه، ولوجد فى احضانه كل ليلة غادة حسناء بيضاء، شقراء الشعر أو سوداء أو حمراء الشعر، بمجرد مكالمة تليفونية لا أكثر ولا أقل!

أما السبب الثانى فإن هدف السويركى لم يكن المتعة الجنسية كما يبدو فقد اعترفت إحدى الزوجات ، اللاتى استضافهن التليفزيون المصرى، أن السويركى لم يدخل بها!! وإذا كان الأمر كذلك فلأى غرض إذن حدث الزواج؟

من الواضح أن السويركى لم يكن يتمتع بمواهب الحاج متولى الذى كان يبدو لنا كالمنشار طالع يتزوج نازل يتزوج ! وانما كان هواية السويركى الوحيدة أن يدخل موسوعة «جينز» بوصفه صاحب أكبر عدد من الزيجات!

ولكن الرجل أخطأ فى الحساب ، على الرغم من أنه صاحب أكبر محلات ناجحة فى مصر ، يختفى فيها الاستغلال، وتتعامل مع العملاء بأخلاق إسلامية حقيقية! ولعل النقض سوف يكتشف اختفاء القصد الجنائى، فيعود الرجل إلى حريته، بعد أن يكون قد تعلم الدرس ! درس الحساب!

(٩١)
بورسعيد وفلسفة التظاهر

أدار الأستاذ مفيد فوزى حوارا مهما وشيقًا ـ كالعادة ـ مع اللواء حبيب العادلى وزير الداخلية تناول ـ فيما تناول ـ المظاهرات التى وقعت فى بور سعيد تعبيرا عن استياء من القانون الجديد وكانت إجابة الوزير أن رجال الأمن تعاملوا مع المتظاهرين بضبط النفس، فلما بدأ التخريب، تغير الموقف، واضطر رجال الأمن إلى مواجهة الموقف بما يستحق!

ولست هنا فى مجال الدفاع عن موقف المتظاهرين أو موقف رجال الأمن، وإنما أنا أتحدث عن فلسفة المتظاهرين فى العالم الحر، كما لمستها من حياتى فى لندن، وكما يعرفها كل من له إلمام بعلم النفس الصناعى وديناميكية الجماعة.

فالأصل فى التظاهر هو الاحتجاج والتعبير عن رفض قانون أخر أو إجراء حكومى يمس مصالح فئة ما من فئات المجتمع.

وبالتالى فهو يتخذ الشكل المناسب الذى يوصل رسالة الاحتجاج والرفض إلى الجهات المختصة وبطبيعة الحال فليس من هذه الأشكال

أعمال الشغب والتخريب فهى تقلب الغاية رأسا على عقب، وتعطى سلطات الأمن الذريعة للقمع والاعتداء على الجماهير بحجة حماية الجماهير.

فيعرف علماء الاجتماع أن المجتمع - أى مجتمع - فيه قوى اجتماعية «هامشية» - أى تعيش على هامش المجتمع، وتختلف بذلك عن القوى المنتجة من العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة - مثل فئات المتسولين والخدم وماسحى الأحذية وغيرهم - لاتكاد هذه الفئات تحرك القوى المنتجة للاحتجاج والتعبير، حتى نجد فى ذلك فرصتها للنهب والتخريب والسرقة والاعتداء ! وبطبيعة الحال لاتكاد قوات الأمن ترى أعمال التخريب تحدث حتى تحريك سلاح القمع والردع وتأخذ الصالح بالطالح، والملتزم بالتعبير والملتزم بالتخريب!

من هنا ففى ثورة ١٩١٩ كانت القوى الوطنية تدرك هذه الخصيصة من خصائص المظاهرات ، فألفت ما عرف بإسم الحرس الوطنى، التى كانت مهمته السير على جوانب المظاهرات، ومراقبة المخربين وتحذيرهم ، أو القبض عليهم وتسليمهم لسلطات الأمن، باعتبارهم أعداء الثورة!

ولقد كان من أعظم المشاهد التى تأثرت بها وأنا أعيش فى لندن، عندما كنت فى طريقى إلى مبنى الأرشيف البريطانى، وهو فى ضاحية «كيوجاردنز» الهادئة فى غرب لندن . فشاهدت مظاهرة مكونة من

خمسة أفراد فقط، وهم مسنون، وكانوا يسدون الطريق على رأس أحد الشوارع ، وفى يد كل منهم لافتة بمطالب الجماعة!

ظللت طول اليوم أفكر فى جدوى هذه المظاهرة! فالضاحية هادئة جدا والشارع هادئ لايمر به الا الباحثون المتجهون إلى الأرشيف البريطانى و هؤلاء مهمومون ببحوثهم ولا تهمهم مشاكل هذا الحى ! ولكنى شاهدت فى وجوه المتظاهرين الخمسة العلامات التى تميز المناضلين الأفذاذ ! ولعلهم عادوا إلى بيوتهم بروح من الرضاء إنهم استطاعوا التعبير عن احتجاجهم ورفضهم. وكنت على يقين بأن السلطات الإنجليزية قد وصلها صوتهم ، وأنها سوف تستمع إلى شكواهم ، وسوف تحل مشاكلهم. والا ما فائدة الديمقراطية وحرية التعبير !!

(٩٢)
التدخين والموت!!

من الألغاز التى أعيتنى كثيرا، غرام الكثير من البشر بالتدخين ! فلم أستطع طوال حياتى أن أستسيغ رائحة السجائر، وقد حدث أن قرأت مقالا فى مجلة «الريدز وايجت» فى شبابى يقول كاتبه: «جرب كل شىء ولو مرة»! وقد استمعت لنصيحته، فأقدمت على تجربة إحدى السجائر، لم أتذوق لها طعما ولا رائحة! وتخلصت منها قبل الانتهاء منها!

وبذلك بقى اللغز أمامى دون حل! وعندما حاول بعض رفاقى الصغار من الصبية إقناعى بتدخين السجائر، بحجة أنه من علامات الرجولة! استسخفت هذه الحجة، لأن الرجولة فى نظرى كانت شيئا آخر غير تدخين السجائر! ولكن الكثيرين من رفاقى الصغار اقتنعوا بهذه الحجة، وهم اليوم يندمون!

كان هذا قبل أن يكتشف العلم بصورة حاسمة، خطر السجائر على الصحة، وأنه سبب أساسى من أسباب السرطان ولكن السجائر كانت قد أصبحت جزءا من الاقتصاد العالمى ، وأصبحت شركات السجائر ذات سطوة ونفوذ اقتصادى جبار لايمكن مقاومته أو قهره!

وبذلك فشل المجتمع العالمى فى إغلاق أبواب هذه الشركات العملاقة، وإنقاذ البشرية منها! ولكنه أفلح فى حمل هذه الشركات على أن تكتب على جميع منتجاتها إنها ضارة بالصحة!

وعلى هذا النحو لم يعد خافيا على كل مدخن أن التدخين مضر بصحته! وكان الظن أن هذه الوسيلة سوف تكون كافية تماما لإقلاع المدخنين عن التدخين، وكانت المفاجأة أنهم فضلوا تدمير صحتهم وحياتهم ومستقبلهم ومستقبل أسرهم، عن الإقلاع عن التدخين!

والغريب فى الأمر حقًا أن التدخين ليس نوعا من المخدرات التى يعجز الإنسان عن الإقلاع عنها إلا عن طريق علاج طويل، وإنما التدخين مجرد عادة، لاتتطلب أكثر من قوة إرادة! وكثير من الناس يقلعون عنها بسهولة تامة إذا مستهم ظروف تجبرهم على ذلك!

فلقد كان المرحوم الدكتور عثمان الخولى مدخنا شرها، ثم أصيب بأزمة قلبية ، فأقلع عن التدخين فى الحال! وكان يتعجب من أنه لم يستطع الإقلاع عن هذه العادة المدمرة إلا بعد أن ساءت صحته وشعر بالخطر!

ولم يكن الدكتور عثمان الخولى شاذا فى تصرفه، فجميع المدخنين يفعلون نفس الشىء إنهم يفضلون السقوط أولا فريسة مرض قاتل - السرطان غالبا - ثم يقلعون عن التدخين بعدها!

أى بعد فوات الأوان مع أنهم يقرءون عبارة أن التدخين مضر بالصحة على كل علبة سجائر يشتريها الفرد منهم! فهل هى نزعة

خفية إلى الانتحار تعود هؤلاء الناس أو أنه أمل خادع فى النجاة من الخطر؟ مع أن كل الظواهر المحيطة بالمرض تؤكد أن الضرر لن يفلت منه مدخن، وأنه سيموت به إن عاجلا أو آجلا!!

أكتب ذلك وقريب عزيز لى مصاب بالداء الأسود بعد خمسين عاما من التدخين! وهو اليوم يعض بنان الندم، ولكن الندم من سوء الحظ لايفيد فى علاج المرض اللعين!

فبا لله على كل مدخن أن يعى الدرس! ويتعلم من تجربة الغير، إذ لن تتاح له ابدا الفرصة للتعلم من تجربته الشخصية! فهى التجربة الوحيدة التى لايتعلم منها أحد!!!

(٩٣)

تجربة من هتلر!

من المحقق أن المرحوم «أدولف هتلر» كان هو صاحب فكرة فحص راغبى الزواج قبل الزواج فقد كان يستعد لمعركة الثأر لهزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، وكان شديد الاهتمام بتكوين شباب ألمانى سليم البنية كامل الصحة لاتفترسه آفات الوراثة فاخترع فكرة الفحص قبل الزواج ولتنقية الجنس الآرى!

بل لقد شاعت أسطورة تقول إن هتلر يتخلص من الشباب المريض بأمراض غير قابلة للشفاء ويستبقى الشباب الألمانى الجدير بسمعة ألمانيا والموفور الصحة!

والمهم فى هذا الشأن هو أن مصر لم تكن بعيدة عن هذا المجال، فقد قامت الدعوة للفحص قبل الزواج منذ بعض الوقت، وتولاها مؤخرا الدكتور إسماعيل سلام بعد توليه منصبه، وأصبح مركز فحص راغبى الزواج أحد المراكز المهمة فى قسم الفحص الشامل الذى يرأسه الدكتور صلاح الغزالى حرب، بمعهد ناصر للبحوث والعلاج الذى يتولى إدارته الدكتور محمد شريف

على أن الإعلام بهذا المركز لم يكن كافيا ـ فيما يبدو ـ لكى يعرف الجمهور المصرى بأهمية هذا المركز، والدور الذى يلعبه فى وقاية الأزواج الجدد من أخطار يمكنهم تجنبها.

فالمركز بالتصميم الذى أعدّ له يستطيع الكشف بدقة عن أى خلل هرمونى ، سواء بالكشف الاكلينيكى أو بإجراء الفحوصات العملية وغيرها وهو يقوم بعمل برنامج شهرى للتوعية ، يشترك فيه أخصائى النساء والذكورة للتوعية بالوظائف الفسيولوجية والتشريحية ، ووسائل تنظيم الأسرة، والتوعية الجنسية والأمراض المعدية التى تحدث عن طريق الممارسة الجنسية

كما يحذر من الأسباب التى تؤثر فى الإنجاب بالإعاقة، وينبه إلى علاجهما قبل استفحالهما وبالتالى فهو يقوم بفحص اكلينيكى كامل للذكور، فضلا عن الفحوصات والاختبارات الأخرى خاصة الأمراض المعدية التى تحدث عن طريق الممارسة الجنسية

كما يقوم بتحليل كامل لكل وظائف الجسم وتحاليل الوراثة.

وقد خصص المركز لكل راغب فى الفحص غرفة درجة أولى ، مع وجبة إفطار وتستغرق الفحوصات خمس ساعات من الساعة ٩ صباحا حتى الساعة ٢ ظهرا يتم فى خلالها فحص الغدة النخامية القابعة فى قاع المخ، وحسن إفرازها للهرمونات الضرورية لسلامة الأداء الجنسى وعلى الانجاب.

والمهم أن هذه الخدمة الطبية ـ كما يقول الدكتور طارق خاطر مدير المركز ـ يقوم بها المركز بأسعار تصل إلى ربع الأسعار فى الخارج وهى مهمة فى هذا العصر الذى اختفى فيه تقريبا زواج الأقارب بفضل عمل المرأة واختلاطها بالرجل الغريب فى العمل، وأصبحت ترد على الأسرة أمراض لم يكن للأسرة عهد بها. فهذا الفحص يمثل مصفاة ضرورية للنوع!

(٩٤)

استغاثة بوزير شئون البيئة!

البيئة المصرية مصابة بانتهاكات خطيرة لاتحدث فى أى بلد فى العالم المتحضر! فبالإضافة إلى السحابات السوداء التى أصابت أطفالنا بأمراض الحساسية - (ومنهم حفيدى الذى يقطن فى مدينة نصر، واضطر والده إلى الانتقال إلى مصر الجديدة)!

ففى كثير من الأحياء تنبعث روائح كريهة لايتصورها عقل بسبب عادة ذبح الجزارين الماشية فى المنازل، للتهرب من الكشف الطبى فى المجازر المعتمدة، ثم فرض هذه المخالفة الخطيرة على السكان الذين يرون أنفسهم مهددين بالذبح مثل الماشية إذا رفعوا أصواتهم بالاحتجاج!!

وقد وصلنى خطاب بتوقيع «أهالى مربع عبدالمنعم زين ومصطفى كامل بحى الوراق» يطلبون منى رفع شكواهم إلى السيد وزير البيئة ، لكى يرفع عنهم البلاء الذي حل بالحى والمتمثل فى جزار بالحى يأتى بالماشية المريضة ويقوم بذبحها فى حى الوراق بشارع مصطفى كامل المتفرع من شارع الجزارين ويقولون إنه بنى داخل بيته «زريبة»

يستعملها كمجزر خاص به! فإذا احتج السكان واجههم بالسكاكين والشوم والسنج و«الكلام القذر» والشتائم القزعة؟

وبجواره تاجر ماشية يستخدم الشارع المربع مع مصطفى كامل وعبدالمنعم زين كزريبة أيضًا للماشية، ويستخدم بيتا مهجورا للسباخ!

ويقول الخطاب إن الذبح فى الشارع يجرى بشكل علنى ! فإذا أتى أحد من رجال الصحة، توقف حتى ينصرف ثم تعود ريمة لعادتها القديمة تحت الارهاب الذى يفرضه الجزار وصبيته على الحى! ويرد خطاب أهالى الحى أرقام المنازل ، وهى رقم ٨ و٢١ وأمامهما الماشية المريضة هذا أصل الخطاب الذى وصلنى من هؤلاء المتضررين ، أرجو أن يقرأه السيد وزير شئون البيئة، لكى يرفع هذه الوصمة عن هذا الحى، وينتهى عهد الإرهاب المسيطر على الأهالى!

والغريب فى الأمر حقا أن مثل هذه الجرائم تقع علنا وليس فى السر! وأمام مندوبى وزارة الصحة، الذين يغمضون أعينهم على نحو يثير الشبهة! فأهالى الحى يقولون إنهم يقبضون ثمن السكوت! والبعض الآخر يقول إنهم خائفون من أن يلقوا مصير الماشية المذبوحة! ولكن ماذا بشأن رجال الأمن؟ وأين تقع المسئولية؟ ومن هو المسئول عن استمرار هذه الفضائح التى لو رآها أحد السياح لما عاد إلى مصر مرة ثانية، ولقام بتصوير الجريمة جنبا إلى جنب مع صورة أبى الهول والأهرامات! فهذه هى مصر!

(٩٥)
أزمة التعليم الجامعى (٣)

هذه هى الصرخة الثالثة التى أطلقها من أجل إنقاذ التعليم الجامعى من نظام «التيرمين» (الفصلين الدراسيين)! أقول ذلك وفى ذهنى التقدم الذى تحققه إسرائيل فى حقل التعليم الجامعى خاصة وفى الحقل العلمى بصفة عامة.

فمن المحقق أن عضو هيئة التدريس فى جامعاتنا المصرية هو عاجز بالضرورة عن خدمة البحث العلمى أو تحقيق أى تقدم فيه، وهو مكبل بواجباته الجامعية التى لاتترك له فرصة لأداء أى عمل آخر!

فبالإضافة إلى المحاضرات التى يلقيها على طلبته وفقا لعدد المواد التى يدرسها، كأنه لايكاد ينتهى من أداء هذا الواجب ، حتى يواجه بواجب آخر هو قراءة مئات الأبحاث التى يقدمها الطلبة، وتصحيح التحريرى من هذه الأبحاث ويتلو ذلك مباشرة أعباء امتحانات الفصل الدراسى الأول التى تستغرق نحو الشهر بين مراقبة وملاحظة وأعمال امتحانات ويتلو ذلك تسلم مئات من أوراق الإجابة وتصحيحها! والأمر الذى يبعث على السخرية إن كل عضو هيئة تدريس يتلقى مع أوراق

الإجابة خطابا من الكونترول بضرورة إتمام التصحيح وإعادة الأوراق للكونترول فى خلال مدة أسبوعين!

وهو ما يجعل عملية التصحيح عملية عبثية! إذ كيف يتسنى لعضو هيئة التدريس إتمام تصحيح عدد من الكراسات يصل إلى تسعمائة كراسة فى بعض الأحيان، فى مدة أسبوعين فقط مع العلم أن عدد أوراق الكراسة الواحدة عشرون ورقة انها. كما قد يلاحظ القارئ - دعوة لأعضاء هيئة التدريس «لتصفح» أوراق الإجابة وليس لفحصها وتقييم الإجابة! فإذا أخلص المصحح فى التقييم واستغرق أكثر من أسبوعين فى هذه العملية القاتلة ، تعرض للتحقيق والمجازاة!

وبذلك يقضى عضو هيئة التدريس إجازة نصف السنة فى إجراء تصحيح أوراق الإجابة ، فى الوقت الذى يقوم بإعداد دروس الفصل الدراسى الثانى!

ويمضى التيرم الثانى على نفس المنوال الذى سار عليه «التيرم» الأول حتى نهاية العام الدراسى: أى فى تدريس وأبحاث وامتحانات وتصحيح!

فأين هو الوقت الذى يقضيه عضو هيئة التدريس فى عمل أبحاث ودراسات تقدم العلم إلى الأمام؟ أو ينافس بها الأبحاث والدراسات التى يقوم بها عضو هيئة التدريس فى جامعات إسرائيل؟

من الواضح أننا إزاء وضع يؤدى بالضرورة إلى صرف الأستاذ الجامعى عن البحث العلمى، وشغله بأعباء التدريس طوال العام

الدراسى! وحتى حرمانه من الاستفادة من إجازة نصف العام وإجازة آخر العام!

وبالتالى فهذا الوضع يجب ألا يدوم ، لأنه يؤدى إلى عزل الجامعة عن البحث العلمى بكل ما يترتب على ذلك من عزل مصر عن البحث العلمى! ويؤدى - أكثر من ذلك - إلى تخلفنا الحضارى فى هذا العصر الذى تتسابق فيه جميع الشعوب لإحراز مركز علمى متقدم!

«أما بخصوص الإمكانات العلمية التى توفرها الجامعة للبحث العلمى ، فهى من الناحية الفعلية لا تليق بجامعة من الدرجة الثالثة ! ويكفى أن الجامعة المصرية لاتملك الإمكانات التى تتيح للحاصلين على درجة الماجستير فى غير فروع العلوم الإنسانية الحصول على درجة الدكتوراه! فهؤلاء يحصلون عليها من جامعات أمريكا أو فرنسا أو انجلترا أو غيرها من جامعات الخارج!

وتلك فى حد ذاتها مأساة كبيرة ومخزية لاأظن أن إسرائيل تمر بها!

والأمر الذى يجهله كثيرون أن الصراع بيننا وبين إسرائيل بعد المعاهدة المصرية الإسرائيلية، إنما هو صراع حضارى بالدرجة الأولى، فإذا تخلفنا حضاريا عن إسرائيل نكون قد خسرنا المعركة!

(٩٦)
حول محاكمة الممثلة وفاء مكى!

أود أن أقرر فى البداية أننى لست من المتحمسين للممثلة وفاء مكى! ربما لأن الأدوار التى شاهدتها فيها لم تكن مما يثير إعجاب المشاهد بها! وربما من هنا حرص الكثيرات من الفنانات على عدم الظهور الا فى أدوار محببة إلى الجمهور، وعلى رأسهم الفنانة فاتن حمامة!

ويبدو أن هناك كثيرين كانوا يشاركوننى نفس الشعور ، بدليل السخط العام على هذه الممثلة عندما نشرت الصحف أخبارا تتهمها بتعذيبها لخادمتين تعملان عندها. وهو ما كان له دوره فى التعجيل بمحاكمتها أمام محكمة الجنايات، وفى إصدار المحكمة الحكم من الجلسة الأولى بعد أربعة أيام فقط من حجز الجناية للحكم!

وقد استلفت هذا الحكم نظر الكثيرين من القانونيين! فقد أصبح كل المحامين الذين استطلعت جريدة الجمهورية آراءهم فى الحكم على أنه حكم بالغ القسوة، أذ جرت الأحكام السابقة فى هذا الصدد على الا تزيد العقوبة على ثلاث سنوات فى حالة ثبوتها!

وبطبيعة الحال فلست من المعترضين على سرعة المحاكمات! فقد كتبت كثيرا منددًا ببطء التقاضى، ولكنى كثيرا ما استلفت نظرى - ككاتب سياسى - التفاوت فى الأحكام فى الجريمة الواحدة، على نحو يدعو إلى الدهشة!

وعلى سبيل المثال منذ عوقب قاتل الدكتور رفعت المحجوب بخمس سنوات وفى قضية أخرى قتل فيها الجناة فتاة ، وقطعوا أطرافها وحرقوا جثتها، حكم عليهم بالأشغال الشاقة لمدة اثنا عشر عامًا! وقد حكم على ذئب بشرى بالإعدام، وحكم على آخر بالسجن لمدة عامين - أى ما يشبه البراءةهذا التفاوت الكبير فى الأحكام له أسبابه ، ولكن من المحقق وجود تأثير للرأى العام فى الأحكام. فصدر حكم على حسين توفيق قاتل أمين عثمان باشا بما يشبه البراءة، بعد أن جندت صحافة القصر جهودها لإظهاره فى صورة بطل وطنى!

وهذا هو السبب فى أن القضاء الأنجليزى يحمى المتهم طوال فترة محاكمته ! فلا تنشر الصحف صوره بحال من الأحوال! وقد حضرت محاكمة سفاح فى لندن، فكان الصحفيون يتحايلون على نشر صورة له عن طريق رسم البورتريهات. وقد استغرقت محاكمته عدة أشهر.

ولقد أرضى الحكم على وفاء مكى الرأى العام، الذى تحركه العواطف الدينية، خصوصا بعد أن شهدت إحدى الخادمتين بأنهما شاهدتها فى أحضان عشيق لها، وأن ذلك كان سبب تعذيبها لهما؛ وهو

اتهام يقبله الجمهور المصرى الذى تنظر بعض فئاته إلى الفنانات نظرة لاتستبعد مثل هذا الاتهام!

وبطبيعة الحال فلسنا فى مقام الدفاع عن الممثلة وفاء مكى، فهى تملك الحافز على ذلك عاطفيا ، ولكن الملابسات التى أحاطت بالحكم وحرصنا على العدالة ، ومعرفتنا أن هذه الأحكام ليست مقدسة وإنما هى تتعرض للاستئناف ، ثم للنقض - يجعلنا نثير هذه الملاحظات من واقع متابعة القضية.

وعلى سبيل المثال ما كشفته التحقيقات من أن وفاء مكى بمفردها أضعف من أن تتغلب على خادمتيها ، وتحدث بهما الإصابات الحرقية، لأن احداثها لايكون إلا من شخصين فى حالة صحية وجثمانية أقوى من وفاء ووالدتها.

ثم أن والدة وفاء تبلغ من العمر ٥٧ عاما وقد أجريت لها ست عمليات جراحية، ومريضة بالسرطان (سرطان الأمعاء) ولاتقوى على السير ، وإنما تسير بعكاز!

(٩٧)
حول محاكمة الممثلة وفاء مكى(١)

قلت فيما سبق إننى لست من المتحمسين للممثلة وفاء مكى. ولكن إجماع المحامين على قسوة الحكم، وسرعة المحاكمة أو سرعة الحكم، استلفتت الأنظار! ولأن شعبنا تعود على التحامل على الفنانات فى مثل هذه الظروف خصوصا فى القضايا التى تمس السمعة، عندما يرى بعضهن يعدن إلى التمثيل وإلى الشهرة أكثر شهرة وأكثر ربحا! وقد لاقت الإشاعة التى نسبت قسوة الحكم إلى أن الممثلة المذكورة غير مسنودة ! قبولا من بعض الفئات التى تراقب هذه المفارقات فى المحاكم!

وفى كل الأحوال، وبعيدا عن العواطف التى لا تملكها الممثلة المذكورة فإن كاتبا مثلى لا يهمه إلا تحقيق العدل حتى بالنسبة لخصومه، وكما ذكرت فى مقالى السابق فإن الأحكام القضائية ليست مقدسة، فهى تتعرض للاستئناف كما تتعرض للنقض، وتنتقل من النقيض إلى النقيض، أى من الإعدام إلى البراءة، أو من التخفيف إلى التشديد.

فلقد تبين من التحقيقات أن وفاء مكى أضعف جسمانيا من أن تلحق بالخادمتين اللتين اتهمتهما بالسرقة تلك الإصابات الحرقية مع والدتها! وأن والدتها هى سيدة مريضة بالسرطان، وقد أجريت لها ست عمليات جراحية، ولا تقوى على السير، وإنما تسير بعكاز!

وإلى جانب ذلك فإن الواقعة حدثت وانتهت فى دائرة قسم الدقى - جيزة، ومع ذلك حققت وأحيلت للجنايات أمام محكمة شبين الكوم، رغم أن الاختصاص منعقد لمحكمة الجيزة.

وقد سمعت المحكمة المرافعة، وأصدرت الحكم من أول جلسة. ثم تبين أن المحكمة لم تودع أسباب الحكم عند النطق به بعد أربعة أيام من حجز الجناية للحكم!

وقد ثبت أن للمجنى عليها أربع روايات فى التحقيقات، وقد كشفت مواجهات النيابة لها أنها متناقضة! مع أن القاعدة فى التطبيقات القضائية، تقول إن الأدلة لابد أن تكون متساندة يشد بعضها بعضا. وهو يوضح أن الأدلة فاسدة متنافرة، وأن التنافر بينهما لا يستعصى على المواءمة والتوفيق!

وقد كانت التهم التى وجهت للممثلة وفاء مكى ووالدتها تتضمن جنايتى هتك عرض إحدى الخادمتين بالمساس بمواطن العفة - أى كيها فى منطقة العانة والثديين، واحتجازها وتعذيبها.

وقد تبين أن الخادمتين لم تذكرا فى التحقيقات أنهما احتجزتا! وفى الوقت نفسه فإن الدليل الجنائى فى هتك العرض يشترط فيه أن

يرتكب المتهم فعلا مخلا بالحياء مع المجنى عليها كرها. ولم تشر التحقيقات إلى أن وفاء مكى ووالدتها ارتكبتا هذا الفعل، لأن أنثى لا تهتك عرض أنثى إلا بتجريدها عن ملابسها فى مكان عام، والعبث بمواطن العفة فيها! ومن الثابت أن الفتاتين خلعتا ملابسهما للصحف وقدمتا الصور للنيابة!

هذه الملاحظات بالنسبة للقضية والمحاكمة بالإضافة إلى تغير المحكمة من الجيزة إلى شبين الكوم، وسرعة المحاكمة، مع سرعة إصدار الحكم، ثم قسوة الحكم مع تناقض الأدلة - كل ذلك، مع ما هو معروف من أن الأحكام القضائية ليست مقدسة، وأن أحكام الاستئناف والنقض تنقضها – هو ما دعانى إلى تسجيل هذه الملاحظات ثقة منى فى نزاهة قضائنا المصرى، والتزامه بتحقيق العدل.

(٩٨)
حديث عن العفاريت

عشت طفولتى وصباى وسط أساطير العفاريت والسحر! وكانت هذه الأساطير هى محور أحاديثنا ومسامراتنا المسائية ونحن أطفال ونحن نجلس على أعتاب أبواب منازل الحارة نتسامر، ثم يمضى كل منا إلى بيته وهو ممتلئ رعبا، ولكنه رعب لذيذ وفى أثناء هذا الرعب كان يخيل لكل منا أن كل هبة ريح تحرك أوراق الشجر هى نفثة عفريت! وكل ظل عمود نور ممتد على الأرض نتصوره ماردا جبارًا وكان يستهوينا البحث فى تحديد من هو العفريت ومن هو المارد ! ولكن المارد كان فى نظرنا أقوى وأعظم من العفريت، فهو أطول وأضخملوفى شارع الفاتح بالجيزة كنا نؤمن بوجود مارد طويل يتمدد على الأرض بالقرب من الجامع، فكنا نتحاشى الخطو فوقه حتى لايبتلعنا فى جوفه! وعندما قصصت ذلك على والدى، صحبنى مرة مساء لأريه هذا المارد، ولما وصلنا إليه قهقه والدى، فقد كان هذا المارد ظل عمود النور يقطع الطريق! ولم أصدق إلا عندما سار والدى فوقه ولم يبتلعه!

وكان الأشقياء من الصبية يستغلون هذه الأسطورة - أسطورة العفاريت - فى عمل المقالب للمارة فى الطرق الزراعية! فعندما كنت أمضى بعض أشهر الصيف فى «دقادوس»، وهى بلدتى ومسقط رأس الشيخ الشعراوى، الذى كانت جدته شقيقة جدة والدى - كان بعض فتيان العائلة يخرجون ليلا إلى الطريق الزراعى الموصل من ميت غمر إلى كوم النور، وفى أيديهم جلاليب محمولة على عصى! فإذا رأوا بعض المارة قادمين ليلا، رفعوا الجلاليب فوق العصى، وحركوها صعودا ونزولا، فيخيل للمارة أنهم أمام عفاريت تعلو وتهبط! وإذا بهؤلاء المارة يتملكهم الرعب، فيهربون هنا وهناك، حتى ينصرف العفاريت من المنطقة!

كان الظلام السائد، اللهم إلا من بعض النور المنبعث من المصابيح الكهربائية المعلقة على الطريق الزراعى الذى يمر وسط الحقول، وانعدام العمران، يهيئ الجو للإخراج الفنى لأساطير العفاريت، التى كانت تمتعنا وترعبنا صغارا! وقد اختفى ذلك اليوم، فلم تعد دقادوس، وغيرها من القرى - تختلف عن المدن من ناحية العمران والمبانى والشوارع ولم يعد سكان القرى يتميزون عن سكان المدن بملابس خاصة ، ولم يعد الفلاح هو الفلاح التقليدى الذى عرفه تاريخنا أو غرفه عبدالناصرلفقد لاحظت فى خطاب لى فى مجلس الشورى منذ عامين أو أكثر أن الفلاح اليوم، وفقا للمصطلح الذى حددته قوانين عبدالناصر وهو الذى يملك عشرة فدادين - يساوى مليونيرا!

ذلك أن سعر الفدان اليوم، أصبح يتراوح ما بين ٧٠ و١٠٠ ألف جنيه، ومعنى ذلك أن الفلاح اليوم هو من يملك مليون جنيه! وبطبيعة الحال فلم يدر هذا بخلد عبدالناصر، وإلا حدد تعريف الفلاح بأنه من يملك عشرة قراريط!!

على كل حال، وعودة إلى حديثنا عن العفاريت، فإننا فى معتقداتنا عن العفاريت لم نكن ننطلق من خيال ، فقد تحدث القرآن الكريم عن العفاريت، كما تحدث عن الجن، وتحدث عن الشياطين!

ففى الآيه الكريمة فى سورة النمل «قال عفريت من الجن»! وهو ما يعنى أن العفريت هو فرد من جنس الجن! وأن الجن هم جنس خارق القدرة! ففى نفس الآية الكريمة! «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك»؛ والحديث عن عرش بلقيس!

وفى كل الأحوال فالعفريت هو مخلوق آخر غير العفريت الذى تصورناه صغارا، إنه ينتمى لعالم لايعلمه إلا الله! ولا صلة له بالإنسان!

(٩٩)

حديث عن العفاريت (٢)

لاسبيل أمامنا إلا الاعتراف بالعفاريت، بعد أن تحدث عنهم القرآن الكريم! ولكن لاسبيل أمامنا أيضا إلا الاعتراف بأنة لاتوجد أيه صلة بين الإنسان والعفاريت! لنفس السبب، وهو أن القرآن الكريم لم يتحدث عن ذلك.

ولكن هذا الاعتراف من القرآن الكريم بوجود العفاريت، قد ألهم بعض النصابين من البشر على مدى العصور، اختلاق معتقدات عن وجود صلة بين البشر والعفاريت! وأنهم قادرون على قطع هذه الصلة عن طريق السحر!

ومن هنا وجد السحر فى حياة البشر منذ القدم . وكان هو المسيطر قبل الأديان! فالعقل البشرى يميل دائما إلى الخوارق والحيل التى تخدع الأبصار بدليل أن الكثير من العروض المسرحية الحديثة فى أرقى البلاد الغربية، تحتوى على فقرة لساحر، يشق فيها سيدة نصفين بسيفه» أو يقطع رأسها ! فيصفق الجمهور!

وبطبيعة الحال، وبالنسبة للشعوب البدائية والمتخلفة فإن السحرة كانوا يلقون التصديق التام من الجميع ومن هنا وقف القرآن الكريم فى

وجه السحر وقفة حاسمة، فقال الله تعالى فى كتابه الكريم: «ولايفلح الساحر حيث أتى» - أى حيث كان وحيث وجد!

ومن الأسف الشديد أن الكثيرين فى عالمنا المعاصر، وفى مصر بالذات يؤمنون بالسحر! بل إن اعتقاد البعض فى السحر أدخله فى دائرة أوهام لها نفس مفعول السحر!

فأذكر أن شباب القرية فى بلدتى دقادوس كانوا يلهون باصطناع قدرتهم على السحر! وكانوا يختارون بالذات أقرانهم الموشكين على الزواج للسخرية منهم ، وإقناعهم بأنهم لن يوفقوا فى ليلة الزفاف لأن منافسيهم فى الزواج عملوا لهم سحرا!

والطريف أن هذا التهريج كان يحدث أثره بالفعل! أى يحدث نفس عمل السحر، فلا يوفق الضحية ويتغامز المتغامزون!

ومعنى ذلك أنه حتى بدون سحر، فإن الوهم يحدث نفس مفعول السحر!

والأمر يتوقف على شخصية الضحية، وعلى تربيته ، ومعتقداته ، وبيئته الاجتماعية، وعلى نوع تعليمه. وبصفة عامة فإن الذين يتربون تربية دينية يكونون أكثر استجابة لهذه الأوهام! وينسبون ما يحيق بهم من ضرر للسحر وللجن وللعفاريت والمردة والشياطين! على الرغم من أن الدين الإسلامى ينهى عن هذه المعتقدات! فهؤلاء لايستفيدون من الدين الإسلامى إلا استفادة ظاهرية ولايتمعنون فى معانيه وأهدافه.

وفى بعض الحالات فإن الحالة النفسية للمريض أو المريضة تجعلها أكثر تقبلا لفكرة السحر فيما يصيبه أو يصيبها من مرض أو خسارة مال أو غير ذلك!

ومن هنا فالصحة النفسية ضرورية فى هذه الحالة والعلاج النفسى يستطيع استقبال أوهام السحر من نفس المصاب!

كما أن القدرة التى يتميز بها البعض على التخيل والخيال ، تلعب دورا مهما جدا! وانت تسمع من هؤلاء قصصًا رائعة لما يحدث لهم ، لوسجلوها فى كتب لكانت أشد جاذبية من القصص البوليسيه!

فمنذ أيام قليلة حدثتنى هاتفيا ليلاسيدة واسعة الخيال من هؤلاء أكدت لى أنها تتحدث إلى هاتفيا وفى رفقتها فى نفس حجرة النوم ١٥ عفريتا من الجن؛ وعندما سألتها ألا تخافين منهم؟ أجابت بأنهم على العكس من ذلك يسلونها!

وقد تمنيت لو سمعها القصصى «أدجار ألان بو » حتى يخجل بما كتبه من قصص الرعب!

(١٠٠)

بعثات نشل الحجاج!

أليس من الغريب أن كل توصيات مودعى الحجاج المصريين لذويهم وأصدقائهم تتركز فى الحذر من اللصوص والنشالين ؟ هل هذا معقول؟ ففى المملكة العربية السعودية تطبق الحدود الشرعية بالنسبة لمن يسرق، وهى قطع اليد، ومع ذلك فإن النشالين المصريين والعرب والأفارقة والآسيويين يتخذون من فريضة الحج موسما للسرقة والنشل! وتذهب فرق النشل من جميع أطراف العالم الإسلامى لتجرد الحجاج المساكين مما يحملون من مال، ويحيلون فرحتهم بالحج إلى محنة أليمة ومأساة فريدة وقد تجردوا من كل ما يملكون!

ان فرق النشل التى تسافر فى موسم الحج هى فرق متخصصة نعرف جيدا أين يخفى الحجاج أموالهم، ويستخدمون مشارط ماضية لا يقف فى وجهها أى حزام أو جيب أو حقيبة أو أى مكان فى جسم الحاج تحتمل اخفاء النقود فيه!

وهى فرق ملحدة لاتؤمن بدين ولا إله، فإلههم المال! كما أن الرحمة انتزعت من قلوبهم، فهم لايفرقون بين شاب وعجوز أو بين فتاة صغيرة

وعجوز فانية! وهم قساة غلاظ الأكباد مهمتهم الأساسية تحويل فرحة العمر التى يعد لها الحاج سنوات إلى حسرة وبكاء وضياع! فحين يفقد المرء ما يملك فى الغربة، تتحول الدنيا الواسعة فى عينيه إلى سم الخياط!

لقد أصبح النشل فى موسم الحج كابوسا رهيبا يجثم على صدور المؤمنين، ويؤرق جفونهم وبات يتطلب - بالتالى تكاتف الدول الإسلامية لمقاومته على نحو ما تتكاتف الدول الغربية حاليا لمقاومة الارهاب!

فليس من المعقول أن يلقى عبء مقاومة النشل على المملكة العربية السعودية وحدها وهى تستضيف فى وقت واحد مليونين من البشر أو أكثر، بل لابد من تجفيف المنابع، وهو مالايمكن أن يتم إلا إذا فحصت كل دولة حالة كل متقدم للحصول على تأشيرة الحج، وقدمت لقنصليات المملكة السعودية قوائم بأسماء النشالين - وهم معروفون لدى الداخلية فى كل بلد!

وفى الوقت نفسه فإن تطبيق حد قطع يد السارق يجب ألا يستثنى أحدا من أية جنسية من الجنسيات، لتوفير الأمن للحجاج الذين أصبحوا اليوم يعيشون تحت تهديد خطير من هؤلاء المجرمين دهم الأراضى المقدسة، فإذا لم يأمن الإنسان على ماله فى مكة والمدينة.. فأين يأمن ؟ وإذا لم يأمن فى قلب بيت الله الحرام، فأين يأمن؟

إن السكوت على هذه الجرائم الخطيرة التى تحدث فى موسم الحج هو الذى شجع النشالين على غزواتهم الجريئة لمكة والمدينة،

وبالتالى زيادة هذه الغزوات عاما بعد عام! وفى الوقت نفسه يجب مضاعفة قوات مكافحة النشل فى المملكة العربية السعودية لحماية ضيوفها وضيوف الرحمن من القوم المفسدين! ويمكن الاستفادة من ذلك من قوات مكافحة النشل فى مصر، وفى بعض البلاد المتقدمةوفى الوقت نفسه يجب عقد مؤتمر لكبار رجال مكافحة النشل فى مصر والسعودية - وغيرهما من البلاد الإسلامية، مع الاستعانة بالخبرات الغربية فى مجال الجريمة، قبل كل موسم» لوضع الخطط التى تضمن ضبط النشالين عند وصولهم أو عند ارتكابهم الجرائم، أو فى أعقابها!

أقول ذلك ولدى قصة باكية عن سيدة عاشت طول عمرها تحلم بالحج، وتقطع من قوتها لتوفير نفقات الحج، وفى اليوم الأول فوجئت من يسرقها ويسرق حلمها العظيم ولأنها سيدة من الطبقة الدنيا، وإيمانها بالله ينحصر فى المنفعة ، ورجاء المنفعة من الله فمنذ بدأ الشك يتسلل فى نفسها وتتساءل هل ساقها الله تعالى إلى الأراضى المقدسة لتسرق؟ ولماذا لم يحمها من السرقة؟ وعندما قال لها البعض إنه اختبار من الله لإيمانها! قالت ساخطة : لقد اختبرنى كثيرا، ولكن لماذا هذا الاختبار بالذات فى أعز ما كنت أتمنى وأحلم؟

والقصص كثيرة! ولكنها تشير إلى شىء محدد، هو أن بعثات النشل يجب أن توقف فى مهدها قبل أن تسافر إلى الأراضى المقدسة، وأن قوات مكافحة النشل فى المملكة العربية السعودية يجب أن تتضاعف، وأن حد السرقة الإسلامى وهو قطع اليد يجب أن يطبق

بكل صـراحــة، وتعلق الأيدى المقطوعـة فى الأمـاكن المزدحـمـة للردع!
ويمكن استـفـتـاء رجال الدين فى قطع اليدين الاثنتين عند السـرقـة
الأولى لفـداحــة الجـريمـة ، لأنهـا تحـدث فى أطهـر مكان على وجـه
الأرض!

وعندمـا قلت لأحد الضحـايا لماذا لا تلوم نفـسك؟ أقسم بالأيمـان
المغلظة إنه فعل كل ما فى وسعه، ولكن لا أحد يستطيع أن يوقف نشالا
متخصصا فى مواسم الحج عن نشله وسلب كل ما يحمل!

(١٠١)

الجامعة وأزمة الضمير (١)

مشكلة التعليم العالى فى بلدنا هى نفس مشكلة التعليم العالى فى البلاد النامية، وهى مشكلة التناقض بين الطموح والإمكانات! فالطموح عالٍ والإمكانات قصيرة، والفجوة واسعة وتزداد اتساعا!

فى العالم الغربى، أو عالم الرفاهية، تواكب الإمكانات الطموح. فإذا ارادت الدولة التوسع فى التعليم، أعدت الميزانية اللازمة فى ضوء مشروع التوسع، ويجرى التنفيذ وفقا للامكانات، حتى إذا انتهى البناء ظهر المشروع!

أما فى العالم النامى فإن الدولة تكون واقعة تحت ضغوط شعبية تطالبها بالتوسع فى التعليم، دون أن تملك الإمكانات اللازمة، ولكنها تضطر إلى الإذعان، فتبدأ التنفيذ قبل أن توفر الإمكانات! وعندئذ تظهر السلبيات منذ اللحظة الأولى!

عندما عينت فى الجامعة مدرسا فى كلية التربية بشبين الكوم كانت الكلية وقتذاك فرعا من فروع جامعة عين شمس، وعندما توجهت فى أول يوم لاستلام عملى، صدمت! فلم تكن ثمة كلية ولا

يحـزنون، وإنما كـانت هى مـدرسـة المسـاعـى المشكورة، التى بنيت فى أوائل هذا القـرن! ولم يكن فيـها آية تجـهيزات مما تجـهز به الكليات الجامعية فى العـالم، أو حتى فى مصـر اللهم إلا فيما عدا شىء واحد، هو لافتة نحاسية كبيرة على باب المدرسة باسم «كلية التربية»!

وفى الوقت نفسـه فإن هيئـة التـدريس كانت نـاقصـة فـقـد كـانت تتكون مـن مـدرسـين، دون أسـاتذة أو أسـاتذة مـسـاعـدين! بـالتـالى كـان علينـا الاستعـانة سنويا باسـأتذة من الجـامعـات الأخـرى.. وظل الحـال على ذلك سنوات حتى أمكن تعيين أسـاتذة مساعـدين واستكمـال هيئة التدريس!

ويطبيـعـة الحـال فـقـد كـان الطلبـة يتـوافـدون على الكلية بأعـداد كـبيـرة، فـوق طاقـة هيئـة التـدريس الصـغيـرة، الأمـر الذى كلف هيئـة تدريس الكلية فوق طاقتها من المسئوليات الجامعية.

ونظرا لأن هيئـة التدريس لم تكن تشتمل على أساتذة، فقد درجت الجامعة على انتداب أسـاتذة من كلية الزراعة لإدارة الكلية، على الرغم من بعد التخصص!

وعندمـا زاد عـدد الطلبـة عن طاقـة الفـصـول الصـغيـرة (أقـصـد المدرجات!) أستـأجـرت الجـامـعـة مـدرسـة إعـدادية فى المدينـة، كملحق للكليـة! وكانت هذه المدرسة فى الجـانب الآخر من المدينة! فكان الطلبة والأسـاتذة يضـيـعون وقتـا مـهمـا فى الذهـاب والإياب! ولم يـكن إلا بعد سنوات طويلة عنـدمـا تم بنـاء كليـة تـربيـة جـديدة بمواصـفـات كليـات

التربية! ثم أخذ التطور العمرانى يسير فى الجامعة، فتم بناء كليات الأداب والعلوم والهندسة والحقوق وغيرها، واستغرق ذلك ربع قرن بالتمام والكمال!

وما جرى فى جامعة المنوفية جرى فى كل الجامعات الأخرى! وفى أثناء ذلك كانت الكليات الجامعية تتغلب على الزيادة الرهيبة فى أعداد الطلبة ببناء فصول ومدرجات مؤقتة لا صلة لها بالفصول والمدرجات الحقيقية غير الاسم!

وعلى سبيل المثال ففى كلية البنات بجامعة عين شمس اليوم مدرج مبنى من مادة الألوميتال! وهو نوع راق من أنواع الصفيح! ومثل هذه المدرجات الصفيح موجودة فى كليات لا حصر لها فى جامعات أخرى!

والمذهل أن الجامعات تقبل أعدادا من الطلبة كل عام يزيد عددهم خمسة أو ستة أضعاف الأماكن فيها: فالفصل الذى يسع ٦٠ طالبا يخصص لـ ١٣٠٠! أى لخمسة أضعاف! الأمر الذى يفقد المكان هيبته، ويفقد الكلية هيبتها، وتفقد الجامعة هيبتها، وتتحول إلى «سويقة» - وفقا للتعبير المصرى - أى سوق صغير، يفقد فيه الطالب كرامته، والأستاذ وقاره!

(١٠٢)
الجامعة وأزمة الضمير (٢)

تحدثت فى مقالى السابق عن أزمة التعليم الجامعى وقلت إن الدولة تنشئ الجامعات على الورق دون أية إمكانات، وتفتتح الكليات الجديدة بمحض لافتة باسم الكلية تضعها على أية مدرسة قديمة كبيرة، وبدون استكمال هيئات التدريس، وتقبل الطلبة بأعداد متزايدة دون أن تكون قد أعدت لهم الأماكن اللازمة!

ولم أكن فى ذلك مغاليا. فقد ضربت المثل بالكلية التى عينت فيها منذ نحو ثلاثين عاما، وهى كلية التربية بشبين الكوم التى كانت تابعة لجامعة عين شمس، وتابعت تطورها حتى أنشئت جامعة طنطا - على الورق أيضا! فأصبحت تابعة لها، ثم أنشئت جامعة المنوفية - على الورق أيضا! - فأصبحت تابعة لها، ثم أصبحت كلية حقيقية بعد توافر الإمكانات، حتى أصبحت جامعة المنوفية اليوم من أكبر الجامعات!

وليس هذا هو الحال فى جامعات العالم الغربى، حيث تظهر المشروعات بعد استكمال إمكاناتها، وليس قبل ذلك!

والمهم هو أنه بسبب الضغط الشعبى على الدولة، أخذت تقبل كل عام أعدادًا تتزايد من الطلبة فوق إمكانات هيئات التدريس بها، وفوق طاقة أعضائها، الأمر الذى أخل بالتوازن المطلوب وأثقل كاهل أعضاء هيئات التدريس بما لاقبل لهم به، وأثر على العملية التعليمية فى الجامعة تأثيرا خطيرا، كما أثر أيضا على المستوى العلمى لأعضاء هيئة التدريس، وأفقد الجامعة مهمتها الأساسية وهى البحث العلمى، وحولها إلى نوع من المدارس العالية التى تقوم على التدريس والامتحانات والتصحيح ولا شىء غير ذلك!

بل حول العملية التعليمية فى الجامعة إلى عملية شكلية تحت نطاق الفصلين الدراسيين (التيرمين) والأخطر من ذلك أنه جعل عملية تقييم الطلبة فى الامتحانات عملية شكلية تثقل على ضمير أعضاء هيئة التدريس، وتفرغها من مضمونها!

فنظرا لاختلال التوازن بين أعداد الطلبة وأعداد أعضاء هيئة التدريس، حيث أصبح على عضو هيئة التدريس التدريس لما يزيد على خمسمائة من الطلبة، وقد يصل إلى الآلاف، منذ أصبح عليه تصحيح أوراق هؤلاء الطلبة فى كل «تيرم»، بالإضافة إلى أبحاثهم ومنح الدرجات التى يستحقها كل فرد منهم فى الوقت القصير الذى يقع بين نهاية الامتحانات وبداية الفصل الدراسى الثانى.

وهو ما يفوق طاقته كأستاذ، وطاقته أيضا كبشر! حتى ولو اعتكف فى أحد الأماكن البعيدة، وعمل ٢٤ ساعة فى اليوم. فإذا كان لديه نحو

ألف كراسة للتصحيح، وإذا كانت كل كراسة تتطلب نصف ساعة فقط للقراءة والتقييم وإعطاء الطالب الدرجة التى يستحقها جهده العلمى فإن عدد الساعات التى يتطلبها تصحيح هذا العددمن الكراسات، لا يقل عن خمسمائة ساعة أى مائة يوم - أى ثلاثة أشهر - هذا إذا عمل ٢٤ ساعة فى اليوم. وهو أمر مستحيل! فإذا عمل اثنتى عشرة ساعة يوميا، فإنه يحتاج إلى ستة أشهر!

ومع ذلك يطالب هذا الأستاذ بتقديم أوراق الامتحان مصححة فى خلال أسبوعين! وإذا تأخر تعرض للتحقيق أو الاتهام بالتقاعس!

نحن هنا - إذن - أمام دعوة رسمية من الجامعة لكل أستاذ بمخالفة ضميره أثناء التصحيح، فإذا وقع فى أزمة ضمير! وفقدت العملية التعليمية مضمونها! فالعملية التعليمية تقوم على التعليم والتقييم، فإذا اختل التقييم أصبحت العملية التعليمية عملية شكلية بالضرورة!

(١٠٣)

الجامعة وأزمة الضمير (٣)

عندما تحدثت فى المقال السابق عن أزمة الضمير فى الجامعة ضربت المثل بأقسام كليات الآداب والتربية، حيث يضطر الأستاذ الجامعى إلى تصحيح نحو ألف كراسة - أى عشرين ألف ورقة فى أسبوعين اثنين، أو يحال إلى التحقيق بتهمه بالتقاعس فى التصحيح!

وقد أغفلت بذلك كليات التجارة والحقوق ومعهد التعاون، حيث يصل عدد الطلبة فى القسم الواحد إلى عدة ألوف! بما يعنى مطالبة الأستاذ بتصحيح أوراق إجابة هؤلاء الطلبة، وتقييم أبحاتهم، مما يصل إلى أربعين ألف وستين ألف وثمانين ألف ورقة! وهو أمر يعجز عنه أى كومبيوتر، ناهيك عن أستاذ متخم بواجبات جامعية كبيرة. ومع ذلك يطالب بسرعة التصحيح فى حدود زمنية قصيرة بكل المعايير!

نحن إذن نضحك على أنفسنا، ونضحك على الطلبة، عندما نتحدث عن التقييم الصحيح للطالب! وكما نظلم الأستاذ ونظلم الطالب، ونتيح الفرصة للطلبة الفاشلين والأغبياء للنجاح على حساب النبهاء والأكفاء!

عندما كنت منتدبا للتدريس فى كلية الآداب بجامعة الأسكندرية فى عام ١٩٨٣/١٩٨٤، نبهت الطلبة مسبقا، وكان عددهم يقترب من الألف، إلى أن أقوم بتصحيح فعلى لأوراق الإجابة، وليس تصحيحا صوريا وبالتالى فلن ينجح الا من يستحق النجاح بالفعل!

ولم يصدقنى الكثير من الطلبة، فبلغت نسبة الرسوب ٩٤٪! وأذكر أن إحدى كراسات الاجابة كانت عبارة عن مجرد جمل مكررة لا معنى لها ملأت عشر صفحات! لقد كان صاحب الإجابة يعلم أن الأستاذ عاجز بالضرورة عن تصحيح ألف كراسة تصحيحا فعليا، وأنه يقيس الإجابة «بالشبر» فأعطاه «الأشبار» المطلوبة ١٦ صفحة من الغث والتهريج والتضليل بالتمام والكمال!

مثل هذا الطالب الغشاش كان ينجح بالضرورة مع أستاذ آخر، فقد جرب هذه الطريقة فى السنوات السابقة وأفلت! وتساوى بذلك مع طالب مجتهد جاد!

وإذا أردنا تقييم هذه العملية، فإن الأستاذ الذى يقوم بتصحيح ألف كراسة، يكون عادة مطالبا بتصحيح أوراق إجابة مواد أخرى يقوم بتدريسها، بما يصل بعدد الكراسات إلى خمسة آلاف مثلا! فإذا ضربنا هذا العدد فى متوسط ١٥ صفحة، يكون معناه ان هذا الأستاذ يكون مطالبا بقراءة ٤٥ ألف صفحة فى مدة أسبوعين؟ فهل هذا معقول!

إنها ـ اذن ـ دعوة مكشوفة لأن يخالف كل أستاذ ضميره ويصحح الأوراق بالشبر! ـ حسب الشائعة المعروفة! وهى صحيحة فى كثير منها.

وعندما يكون ضمير الأستاذ مما يتعذر اختراقه، فإنه يفاجأ بعميد الكلية، أو رئيس الجامعة يطالبه برفع تقدير الإجابات! وتحسين النتيجة!

وهو ما حدث معى شخصيا فى عهد أحد رؤساء جامعة المنوفية! فعلى الرغم من أن نسبة النجاح فى المواد التى قمت بتدريسها بلغت ٧٦٪، وهى نتيجة طيبة للغاية فقد طالبنى برفعها! وتعجبت! فلست مدرسا ابتدائيا أو ثانويا يتهم بالتقصير فى التدريس وإنما أنا أستاذ جامعى لا يحكمنى غير ضميرى! وأفهمته أن الطلبة حصلوا على التقدير العادل لإجاباتهم، ولا معنى لأن يحصلوا على المزيد، لأن هذا يخل بموازين العدالة، فالاجحاف فى التقدير يساوى تماماً الزيادة فى التقدير! فكلاهما ظلم! ولكنه أصر على طلبه، وقال إن ذلك من حقه! وكون لجنة غير متخصصة قامت برفع الدرجات! ومنذ ذلك الحين انقطعت صلتى به، فأنا أكره الظلم والظالمين!

(١٠٤)
الجامعة وأزمة الضمير (٤)

لعله اتضح لنا من العرض السابق، أن عملية تقييم الأعداد الهائلة من الطلبة فى جامعاتنا، هى عملية شكلية فى ضوء الظروف المحيطة بالأستاذ الجامعى، وللأعباء الملقاة عليه وإصرار قرارات الجامعات والكليات على ضرورة تصحيح أوراق الإجابة التى تعد بالآلاف فى مدة وجيزة لا تتجاوز أسبوعين فى كثير من الكليات مما يعنى دعوة رسمية من الجامعات لأساتذتها بمخالفة ضمائرهم، وتصحيح الأوراق تصحيحا شكليا على حساب الكفاءة ولحساب العجز أى على حساب الطلاب الجادين ولحساب الطلبة العابثين الذين التحقوا بالجامعة من أجل الحصول على شهادة عالية فقط وليس رغبة فى العلم.

ومن هنا، فإنه ما لم توضع قواعد عادلة تصحح هذه الأوضاع المغلوطة، فإن الخطأ سوف يستمر بكل نتائجه القادمة على العملية التعليمية بالجامعة.

والحل معروف، ولكن المشكلة فى كيفية تنفيذه. فمن الضرورى أن يكون عدد الأساتذة متناسبا مع عدد الطلبة الذين يقدمون أوراق

الإجابة ـ بمعنى أن يتناسب عدد الأساتذة المصححين مع عدد أوراق الإجابة، وعلى أن يكون ذلك وفقا لمعدلات عادلة، كأن تحدد نصف ساعة أو عشرين دقيقة لتصحيح ورقة الإجابة الواحدة. فإذا كان عدد أوراق الإجابة ألفا، أعطى الأستاذ خمسمائة أو اربعمائة ساعة لتصحيح الأوراق أو يكون له الحق فى الاستعانة بعدد من المعيدين المتخصصين يتكافأ مع عدد أوراق الإجابة لمساعدته فى تصحيحها وهذا يتطلب أن تكون لديهم أوراق إجابة نموذجية!

وقد وقفت فى وجه هذا الحل لأن زيادة عدد الهيئة المعاونة، يعنى زيادة أعداد هيئة التدريس فى المستقبل، ولكن هذا الحل نفسه له ميزة، هو إيجاد تناسب بين عدد الطلبة وعدد أساتذة التدريس فى المستقبل أو العودة إلى النظام القديم، وهو إطلاق الوقت للأستاذ الجامعى حتى يتم تصحيح أوراق الإجابة وفقا لما يمليه عليه ضميره، ولما تمليه رغبته الدقيقة فى الانتهاء من التصحيح فى أقرب وقت ممكن ليتفرغ لأداء واجباته العلمية.

والمهم أن الوضع الحالى يجب أن ينتهى سريعا، بسبب بسيط هو إنه يتناقض مع المنطق ومع العقل، ولأنه يثقل على ضمير الأساتذة الذين يجدون أنفسهم مطالبين من السلطات الجامعية بعمل المستحيل!

على كل حال فهذا يثير قضية البحث الجامعى!

فمن الواضح اليوم فى ضوء العرض السابق، أن الأستاذ الجامعى لم يعد لديه أى وقت لعمل بحث علمى جاد يقدم العلم إلى الأمام ـ كما

هو مـفـتـرض فـى أى بحث علمى جـاد - بل لم يعـد لديه وقت لأداء واجباته العلمـيـة! فهو مستهلك تماما فى نظام «التيرمين» فى إلقاء المحاضـرات والامتحانات وتصحيح أوراق الإجابة، وحضور اجتماعات مجلس القسم والمؤتمرات العلمية.

وبذلك تحولت الجامعة إلى مدرسة عالية، بمعنى اقتصار مهمتها على التدريس فقط دون البحث العلمى، مع أن الجامعة شىء آخر، فمهمتها الأولى البحث العلمى، وهذا هو أساس ما عرف باسم «التكنولوچيا» وهو ما نوضحه فى مقال أخر!

(١٠٥)
الجامعة وأزمة البحث العلمى (٥)

فى مقالنا السابق قلنا! أن الجامعة المصرية بوضعها الحالى لا تعدو أن تكون مجرد مدرسة عالية، مهمتها التدريس والامتحان والتصحيح! وحتى بالنسبة للتصحيح فإن النظام الحالى، الذى يفرض على الأستاذ تصحيح ألوف الكراسات فى مدى أسبوعين، يفرغ التصحيح من مضمونه، ويظلم الطلبة! إما بمنحهم أقل مما يستحقون من درجات، وإما بمنحهم أكثر مما يستحقون!

وأما البحث العلمى، الذى يميز الجامعة عن المدارس العالية فلا يوجد لدى الأستاذ من الوقت ما يصرفه فيه مع نظام الفصلين الدراسيين (التيرمين) الذى لا يكاد ينتهى الفصل الأول منه حتى يأخذ بخناقه الفصل الثانى، دونما هوادة أو راحة!

وهذا هو السر فى تدهور مستوى الأبحاث العلمية على نحو يفقد الكثير منها صفته كبحث علمى! كما يفسر كثرة السرقات العلمية وعدم الابتكار! فالبحث العلمى يحتاج إلى وقت طويل، وإلى تأمل، وإلى تفكير، وإلى استنتاج، وإلى نتائج جديدة تقدم العلم إلى الأمام. وهو ما

تفتقر إليه الأبحاث الجديدة التى يقدمها المدرسون والأساتذة المساعدون للجان الترقية فى وقتنا الحاضر!

ويكفى أننى لا أضع فى مكتبتى الأبحاث الجديدة التى يقدمها أصحابها للترقية إلا النادر منها لعدم ثقتى فى نتائجها! وإن كنت أعلم السبب، وهو أن الواجبات الجامعية تستهلك وقت المدرس أو الأستاذ المساعد، فلا يجد ما يقدم به بحثا ممتازاً!

فإذا نظرنا إلى جامعات الخارج أدركنا الفرق! فمهمة هذه الجامعات البحث العلمى بالدرجة الأولى، والتدريس فيها يقوم على البحث العلمى وليس التلقين والحفظ!

والجامعات فى الخارج هى المصدر الرئيسى للتقدم الصناعى فهى التى تطبق العلم على الصناعة! ومن هنا كلمة التكنولوجيا ومعناها تطبيق العلم على الصناعة. فالارتباط وثيق بين الجامعة والمصانع! والأبحاث التى تقدم فى الجامعة ترسل فى الغالب إلى المصانع المختصة لترى ما يمكن استفادته منها.

ومن هنا فإن التجهيزات العلمية فى الجامعات تكون - بالضرورة - تجهيزات متقدمة جدا، تتيح للباحثين والأساتذة والمدرسين عمل أبحاث ترقى إلى هذا المستوى!

وللمقارنة، أذكر أنه عندما حصل ابنى الدكتور طارق على الدكتوراه فى الاتصالات الضوئية من جامعة كولومبيا، وعين مدرسا

بكلية هندسة عين شمس، أن أخبرنى بأن الكومبيوتر الخاص بالكلية يعد متخلفا بالنسبة للأجهزة الحديثة التى كان يعمل عليها فى نيويورك، فكهنت الكومبيوتر القديم الذى كان يعمل عليه قبل سفره للخارج واشتريت له كومبيوتر أحدث بكثير من كومبيوتر الكلية!

ولم يكن فى أجهزة الكلية ما يمكنه، أو يمكن أى مدرس آخر من عمل أبحاث متقدمة ترتقى به إلى درجة جامعية أعلى فاضطر إلى العودة إلى الولايات المتحدة معارًا إلى إحدى جامعاتها، لكى يتمكن من عمل أبحاث ترقى به إلى أستاذ مساعد!

وقد أثرت هذه القضية فى مجلس الشورى أثناء مناقشة خطاب الرئيس مبارك يوم ١٩ نوفمبر ٢٠٠١ فى المجلسين عن التحديث! وأذكر أننى تساءلت: كيف يمكن أن يتحقق تحديث بدون أجهزة حديثة؟

ولكن الأجهزة الحديثة تحتاج إلى إمكانات مادية هائلة، ومن سوء حظ مصر أن الصراع العربى الإسرائيلى استنفد جزءا جسيما من امكاناتها الاقتصادية، وعندما حققت أول نصر عربى فى أكتوبر ١٩٧٣، فوجئت بحرب اقتصادية تشنها عليها الدول العربية التى استفادت من نصر أكتوبر! وعندما تسلمها الرئيس مبارك بعد اغتيال الرئيس السادات كانت قد انهارت مرافقها، واستنفد إعادة بناء البنية التحتية كل إمكانات مصر المادية على طول السنوات السابقة!

وعلى هذا النحو تخلفت امكانات الجامعات المصرية من الناحية العلمية والإدارية والتنظيمية، كل الوقت الذى تم فيه التخلص من

الأساتذة الكبار بسبب السن! وفقدوا اعتبارهم واحترامهم فى عين تلامذتهم! وبذلك أصبحت الجامعة المصرية اسما على غير مسمى! وكما بدون كيف! وإذا استمر الحال على هذا المنوال، فسوف تتسع تدريجيا الفجوة العلمية بين مصر واسرائيل بما لا سبيل إلى تضييقها، وتكون مصر قد خسرت المعركة الحضارية فى هذا العصر الذى يتسابق فيه الجميع فى ميدان العلم!

(١٠٦)

المسئول الحقيقى عن حريق قطار الصعيد!

لست أدرى هل احترق بلطجية القطار مع حريق القطار أم لا؟ ولكن إذا كانوا قد احترقوا فإنها تكون الفائدة الوحيدة من هذه المأساة! ولقد طارت رقبة وزير النقل ورئيس السكك الحديدية، وكان الأجدر أن تطير رقاب من أتاحوا للبلطجية إحراق القطار!

الحقيقة أن لغز البلطجية فى بلدنا لغز محير! ففى كل بلاد الدنيا فإن القانون يحكم الجميع، وقبضة الأمن لا تفرق بين صغير وكبير، وبين قوى وضعيف، ولكن فى مصر، فإن قبضة البلطجية دائما فوق قبضة الأمن، وفوق قبضة العدالة!

والسبب فى ذلك أن سكين البلطجى تكون أسبق دائما من سيف الأمن والعدالة. فالبلطجى إنسان باع نفسه للشيطان، وهو وليه! وليس لديه ما يفقده غير حياته، وهى رخيصة - أى على عكس الآخرين، الذين لديهم ما يخشون عليه، وحياتهم أثمن من حياة البلطجى! ثم إن البلطجى يكسب رزقه من البلطجة، فهى بالنسبة له مهنة مثل باقى المهن والمخاطرة جزء منها، تماما مثل الجندى فى الحرب، فهو يعرف أنه قد يموت ولكن ذلك لا يمنعه من القتال، لأنها هى الحرب!

والبلطجى يعيش فى حرب مستمرة، حرب مع المجتمع الذى يعيش فيه، وهو يعرف أعداءه، وهم رجال الأمن، ورجال القضاء. وهو مستعد لهم دائما مستعد بالسكين، وليكن ما يكون!

والغريب فى الأمر حقا، وهو ما سبق أن نبهت اليه، هو أن جميع البلطجية فى مصر معروفون للداخلية، بل مشهورون! وهم الذين يطلق عليهم مصطلح «مسجل خطر»! واذا كان الأمر كذلك، فما هو تفسير الدولة إطلاق الدولة هؤلاء الوحوش الخطرين داخل المجتمع، يعتدون على الناس ويسرقون ويخطفون، ويعتدون على الأعراض؟

الا يشبه إطلاق هؤلاء الوحوش داخل المجتمع إطلاق عدو من النمور والذئاب والتماسيح فى المجتمع يعيشون بين الناس، ويعتدون على الناس؟

لقد كتبت الصحف عن حادث حريق القطار المأساوى وأن البلطجية حولوا دورات المياه إلى غرز بالدرجة الثالثة لإعداد المشروبات الساخنة مستخدمين أنابيب البوتاجاز الصغيرة والكبيرة!

وقد كان من أحد هذه البوتاجازات أن انطلقت الشرارة الأولى التى أحرقت عددا هائلا من المصريين الفقراء بلغ عددهم ٣٧٣ ضحية فى بعض الإحصاءات، وهم أكثر من ذلك بطبيعة الحال!

وهو عدد يذكر بعدد من لاقوا حتفهم يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، مع فارق واحد، هو أن الولايات المتحدة اتخذت من

الحادث فرصة للسيطرة على العالم بحجة متابعة الارهاب! ولكن الحكومة المصرية لن تتخذ من الحريق الذى أشعله البلطجية فرصة لمطاردة هؤلاء في محطات السكك الحديدية، أو في القطارات، أو في أية بقعة من مصر!

فحكومتنا السنية حريصة على الاحتفاظ بهذا المعلم من معالم مصر دون مساس! ولذلك فعلى الرغم من أنها تملك من الإمكانات ماتبيد بها هؤلاء البلطجية! أو على الأقل تعتقلهم فى معسكر فى وسط الصحراء، وتعهد إليهم بعمل نافع، فإنها تفضل «بقاء الوضع على ما هو عليه» حسب التعبير الأمنى المعروف الذى يكرس الوضع الخطأ حتى يبت فيه القضاء بعد عمر طويل!

ولقد سبق لنا أن ضربنا المثل بما فعله الزعيم المؤمن جمال عبدالناصر، عندما اعتقل كل كتاب ومفكرى ومثقفى مصر من اليسار فى ليلة ليلاء، وقذف بهم فى قلب الصحراء بدون ذنب جنوه إلا ذنب معارضته فى الأسلوب الدكتاتورى الذى أتم به الوحدة المصرية السورية، ولم يكتف بذلك بل عذبهم أشد العذاب!

ونحن لا نطالب حكومتنا بتعذيب البلطجية، وإنما نطالب فقط باعتقالهم فى معسكر فى قلب الصحراء، لحماية المجتمع المصرى من شرورهم! ولعل فيما تفعله إدارة بوش بالمشتبه فى انتمائهم إلى تنظيم القاعدة أسوة حسنة لحكومتنا! فالضرورات تبيح المحظورات الديمقراطية، هذا إذا تصورنا أن حكومتنا مما يتمسك بهذه المحظورات!

(١٠٧)
نصيحة الدكتور حمدى السيد

كان الدكتور حمدى السيد يقف إلى جانب الجماهير الفقيرة، عندما طلب من زملائه الأطباء مراعاة الظروف الاجتماعية للمرضى عند وصف الدواء! وأدان بشدة ما يلجأ إليه الكثير من الأطباء من وصف أدوية غالية الثمن لمرضاهم من الفقراء، وهم يتخيلون قدرتهم على شراء هذه الأدوية! وأوضح أن كثيرا من الأدوية غالية الثمن لها بدائل رخيصة الثمن. ومن واجب الأطباء مراعاة ذلك، لعدم ارهاق مرضاهم ماديا!

وفى الحقيقة فإن ظاهرة وصف الأدوية غالية الثمن قد تواكبت مع غلو أسعار الدواء! مما يدل على أن الكثير من الأطباء يعيشون فى واد، والمرضى يعيشون فى واد آخر!

ومن تجربتى الشخصية أن الأطباء المهرة لا يفعلون ذلك، وإنما يفعل ذلك الأطباء الجهلة الذين يفتقرون إلى المعرفة والعلم بالأدوية وتركيباتها وبدائلها!

منذ سنوات جاءنى قريب لى مريض بالكبد، وفى يده روشتة كتبها له أحد الأطباء، بها نحو عشرة أدوية (وش وظهر)! وعلى الرغم من

أننى مؤرخ ولست طبيبا، فقد أدركت أن كاتب هذه الروشتة يتخبط ولا يعرف الدواء الصحيح، فهو يكتب قائمة بأدوية، بعضها قد يخطئ، وبعضها قد يصيب! لذلك صحبت قريبى إلى أستاذ كبير فى منطقة «الكورية» بمصر الجديدة.

وقد فوجئت حين كشف عليه كشفا دقيقا. بأنه لم يصف له أية أدوية! وإنما وصف له الراحة فقط! وسألت الدكتور مندهشا: ألن تصف له أية أدوية؟ قال الأستاذ: لقد وصفت له بالفعل، وهى الراحة! ولما رأى علامات التعجب فى عينى، قال باسما: وعلشان خاطرك، سأكتب له فيتامين فقط!

وقد كان! وشفى قريبى، دون أن يتعاطى ما ورد فى الروشتة القديمة المليئة بأصناف عديدة من المضادات الحيوية!

وعندما كنت فى لندن منذ سنوات قليلة وهاجمنى أحد اللصوص فى منطقة «ليستر سكوير» المزدحمة، وحاول اختطاف الفيديو كاميرا منى، وعجز عن ذلك بسبب مقاومتى الشديدة، جذبنى إلى الأرض، وترتب على وقوعى كسر خمسة أضلع من ضلوعى. وعندما ذهبت فى اليوم التالى ومعى المستشار الثقافى الدكتور سمير الصياد إلى مستشفى سان ميرى بمنطقة بادنجتون اعتذرت لى طبيبة الطوارئ بأنها لن تستطيع أن تعطينى الأدوية مجانا، لأن اليومين التاليين إجازة، ووعدت بأن تصف لى دواء رخيص الثمن!

إلى هذا الحد كان إحساس هؤلاء الأطباء بالتخفيف عن المرضى فى شراء الدواء! فعلى الرغم من أنى لست إنجليزيا، وعلى الرغم من أن وجود المستشار الثقافى معى يشير إلى مقدرتى على شراء الدواء غالى الثمن، فقد أرادت الطبيبة أولا إعطائى الدواء مجانا، وعندما عجزت عن ذلك، وعدت بوصف دواء رخيص الثمن!

ولكن الكثيرين من الأطباء فى بلدنا لا يملكون هذا الإحساس الشريف! ولا يملكون هذه النزعة الإنسانية الرحيمة بالمرضى، بل إن بعضهم «يتمنظرون» بكتابة أدوية غالية الثمن لإظهار متابعتهم لأحدث الأدوية! وهم يعلمون بوجود بدائل مصرية رخيصة الثمن، ولكن كبرياءهم ترفض النزول إلى مستوى الأدوية الرخيصة.

وقد ترتب على ذلك أن الفقير أصبح عاجزا كلية عن العلاج، ليس بسبب عدم وجود أدوية رخيصة، وإنما بسبب إصرار الأطباء على وصف الأدوية غالية الثمن!

ومن هنا لا أملك الا أن أوجه الشكر وخالص التقدير للأستاذ الدكتور حمدى السيد لتصريحاته التى نبه فيها زملاءه والأطباء إلى الرحمة بالفقراء عند وصف الدواء!

(١٠٨)

جناية مجموع الثانوية على الجيل!

فى حديث للعالم الكبير الدكتور فاروق الباز لمجلة أكتوبر، اعترف بأن مجموعه فى الثانوية العامة كان ٦٢,٥٪! وقد ذكرنى هذا بمجموعى فى الثانوية العامة الذى كان ٦٦٪! ومع ذلك أصبح فاروق الباز أستاذا عالميا، وأما أنا فقد حصلت على درجتى الماجستير والدكتوراه بأعلى التقديرات الجامعية، مع التوصية بطبع الرسالتين على نفقة الجامعة! كما أصبحت أستاذا جامعيا، وأصبح لى ٦٩ مؤلفا علميا، بالإضافة إلى المناصب العلمية والسياسية!

فى ذلك الحين لم يكن يطاردنا شبح الثانوية العامة، أو مجموعها إذ كنا نعرف أننا سوف نلتحق بالكلية التى تتفق مع ميولنا العلمية. وأذكر أننى فى أثناء امتحاناتى فى المواد المختلفة فى الثانوية العامة (التوجيهية) كنت أتكاسل عن إكمال الإجابة إلى نهاية الأسئلة! فقد كنت أكتفى بالإجابة التى أعلم أنها ستكفل لى النجاح فى المادة، واترك بقية الأسئلة بدون إجابة، للتخفيف عن نفسى من جهة، وللتخفيف عن الأساتذة المصححين من جهة أخرى!

وعندما حصلت على الثانوية العامة عام ١٩٥٤ كانت أبواب الكليات أمامى مفتوحة. وكان الأنفع لى دخول كلية التجارة، ولكن لم أكن أميل لدراسة العلوم التجارية. وكان يليها كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، فأتخرج مدرسا للغة الإنجليزية، أو أعمل فى تخصصات اللغة الإنجليزية. ولكنى أثرت دخول قسم التاريخ بآداب القاهرة، لأنى كنت أطمع فى أن أكون مؤرخا وأستاذا للتاريخ! وقد حذرنى البعض من الأصدقاء من أن قسم التاريخ ليس له مستقبل فى أى عمل! ولكنى لم أكن أطمع فى أى عمل كنت فقط أريد أن أكمل دراساتى بالماجستير والدكتوراه، وأصبح أستاذًا جامعيا للتاريخ.

ولو أننى دخلت كلية التجارة، لكنت اليوم - على أحسن الفروض - باشكاتب أو رئيسا للحسابات فى أية مؤسسة، ولما أفدت العلم بـ ٦٩ كتابا، ولما حققت مذكرات سعد زغلول، ولما أصبحت كاتبا سياسيا! وبمعنى آخر كان مستقبلى قد ضاع!

ومن الغريب أن الذى ساعدنى فى المرحلة الثانوية أنى كنت من طلبة المنازل، ولم أكن طالبا منتظما. فقد أتاح لى ذلك أن أقطع مرحلة شهادة «الثقافة العامة» وهى أربع سنوات، فى ستة أشهر فقط، بدلا من أربع سنوات دراسية. وفى السنة التالية كنت قد التحقت بكلية الآداب، وحققت رغبتى الأصلية!

والغريب أن طلبة وطالبات الثانوية العامة يريدون اليوم أن يحولوا أنفسهم إلى طلبة منازل، ليتفرغوا للدراسة فى المنزل، بفضل الدروس

الخصوصية، ولعدم ثقتهم فى الشرح الذى يقدمه مدرسو المدارس الحكومية، ولعدم إخلاص مدرسى المدارس الحكومية فى الشرح. فهم يقولون إنهم لايستفيدون منهم، وإن ذهابهم إلى المدرسة مضيعة للوقت!

وقد دخلت فى حوار مع حفيدتى «مى» حول هذا الموضوع، وقلت لها إنى قابلت الوزير الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين، لتحويلها من تلميذة منتظمة إلى تلميذة منازل، ولكنه أقنعنى بضرورة انتظام التلاميذ فى المدرسة، حيث أن ذلك مفيد لهم! ولكنها جادلتنى بأنه لو كان المدرسون يؤدون واجبهم على الوجه الأكمل، لما احتاجت إلى الدروس الخصوصية، ولما شعرت بأن انتظامها فى المدرسة مضيعة لوقت هى أحوج ما تكون إليه للحصول على مجموع مرتفع! بل قالت لى إن الوزير لو ترك الحرية لمن يرغبون من التلاميذ فى المذاكرة فى المنزل، لقل عدد تلاميذ الفصل إلى المستوى الذى يتيح للمدرس أداء واجبه على الوجه الأكمل ويتيح للتلاميذ الاستفادة من شرحه!

ولم أشأ أن أغلب رأى حفيدتى على رأى الوزير، ولكنى شعرت بأن كلا منهما ضحية ظروف لم يصنعاها، ظروف لم تكن موجودة عندما حصل الدكتور فاروق الباز وحصلت أنا على الثانوية العامة!. ظروف التزايد السكانى الرهيب، وظروف قلة الإمكانات المادية للدولة، وظروف ارتفاع تكاليف المعيشة فوق مستوى الأجور والمرتبات، وظروف جشع غالبية المدرسين وتحايلهم لإجبار التلاميذ على تعاطى الدروس

الخصوصية حتى أصبحت هذه الدروس الخصوصية هى الأصل فى التعليم. وتم الاستغناء تقريبا عن دروس المدرسة! وأخيرا ـ وهو الأخطر ـ عجز الجامعات المصرية عن استيعاب أعداد الحاصلين على الثانوية العامة كل عام. واضطرار الدولة إلى اتخاذ مجموع الطالب المعيار الوحيد للالتحاق بأية كلية، دون رعاية لميوله أو رغباته أو قدراته!

وبذلك خرج هذا الجيل المشوه! فالطالب الذى كان يملك موهبة طبيب أو مهندس وجد نفسه مدرسا للغة العربية! وذلك الطالب الذى كان يملك موهبة مدرس لغة عربية وجد نفسه مهندسا أو طبيبا! فلا هذا أفلح ولا ذاك أفلح، فكلاهما فاشل، والوطن يخسر فى السباق الحضارى بيننا وبين إسرائيل .

(١٠٩)

عن الداعية الجديد والحجاب!

أكبر ما ابتلى به المسلمون فى هذا العصر، هو ما اصطلح على تسميتهم بجماعات الإسلام السياسى، ويقصد بهم الذين يخلطون الدين الإسلامى بالسياسة، ويسعون للحكم باسم الدين!

هؤلاء أسوأ طلاب حكم عرفهم التاريخ الإسلامى لأنهم أجهل المسلمين بالدين وبالسياسة معا فجهلهم بالدين يتمثل فى متاجرتهم بالآية الكريمة: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون! مع أن الآية الكريمة لم تنزل فى المسلمين، وإنما نزلت فى اليهود! ولم يكن القرآن الكريم هو المقصود فى الآية الكريمة، وإنما كانت التوارة!

ومع ذلك طبق دعاة الاسلام السياسى هذه الآية على المسلمين وقتلوا الأبرياء تحت ذريعة أنهم يحكمون بما أنزل الله.

وأما جهلهم بالدين والسياسة معا، فيتمثل فى جماعة طالبان فى أفغانستان التى تصورت أن تطبيق الإسلام يتمثل فى إجبار الرجال على إطلاق اللحية، وإجبار النساء على النقاب والانعزال عن المجتمع، للتفرغ لخدمة الرجل وإشباع شهواته! وإنجاب الأولاد!

وفى مصر صور رجال الإسلام السياسى الدين فى حجاب المرأة! فإذا تحجبت المرأة أصبحت مسلمة حقا، مهما كانت كاذبة ومنافقة وكسولة ومعطلة للعمل وجاهلة. فالحجاب هو الدين كما صورته جماعات الإسلام السياسى والمتاجرون بالدين!

منذ ايام شاهدت بطريق الصدفة برنامجا تليفزيونيا فى محطة دريم لأحد الدعاة الجدد، الذين برزوا! بعد وفاة الإمام الشعراوى دون أن يملكوا علمه وفقهه، وفوجئت بأنه دعا المشاهدين إلى مشاهدة شريط سجله لفتاة مصرية من أتباعه!

وقد ذهلت حين تجاهلت الفتاة الحديث عن مبادئ الإسلام وخلقه وفضائله، وحصرت حديثها فى شىء واحد هو الحجاب! كأن الإسلام يتلخص فى كلمة واحدة هى الحجاب!

وتمنيت لو أن علماء الطب النفسى سمعوا الفتاة لتحليل حديثها! فقد روت فيه أنها كانت طالبة بالجامعة الأمريكية، وقررت أن ترتدى الحجاب (لماذا؟ لم تذكر!) وعندما فعلت ذلك، غضبت والدتها، ومزقت الحجاب، فقررت ارتداء الحجاب من خلف ظهر والدتها واستمر ذلك لمدة سنتين، حتى اكتشفت ووالدتها الأمر فثارت ومنعتها من الخروج! فاضطرت إلى خلع الحجاب، الأمر الذى أشعرها بالذنب، وبأن الله غاضب عليها.. إلى آخره كانت الفتاة تروى قصتها، وصور الفتيات المحجبات تظهر على الشاشة واحدة وراء الأخرى، وكل منها تبدو كما لو كانت رابعة العدوية فى الورع والتقوى!

وقد تعجبت! تعجبت للفتاة، وتعجبت من قاموا بتصوير الفيلم! وشعرت «بالصنعة» فى الأمر كله! تعجبت أن تعتبر الفتاة الحجاب هو كل الاسلام! فاذا تجردت منه ركبها الندم كأنها تجردت من دين الإسلام! وخشيت من غضب الله عليها!

لو كان الإسلام هو الحجاب وحده كما تصورت الفتاة، لاكتفى رسول الله ﷺ بأمر المرأة بلبس الحجاب دون أى شعيرة من شعائر الإسلام، ودون أن تتحلى بشيء من فضائله!

ولكن الإسلام منظومة متكاملة المبادئ والفضائل التى لا تغنى واحدة منها عن الأخرى! والحجاب إحدى هذه الفضائل، ولكنه على وجه التحقيق ليس هو وحده الإسلام!

على أن الفتاة، بسبب الأفكار الخاطئة التى زرعت فى عقلها، اعتبرت إجبارها على خلع الحجاب، رخصة لها لارتكاب ما أسمته «فى أفعالا لا ترضى عنها!»

وهو إهانة لكل سيدات وفتيات مصر اللائى لا يريدين الحجاب وإظهارهن فى صورة التجرد من الدين عندما تجردن من الحجاب! فكل منهن «تفعل بما قد لا ترضى عنه».

وللفتاة المذكورة أدعوها إلى التنزه على كورنيش النيل الجميل فى يوم من الأيام، وسوف ترى أن الغالبية العظمى من الفتيات اللاتى يصطحبن الشبان هن من المحجبات!

لا صلة للحجاب - الآن - بما تدعيه الفتاة! فالحجاب ليس هو الإسلام، وانما الإسلام هو شئ آخر! إنه مجموعة الفضائل التى أدت إلى انتشار الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها، وأدت إلى دخول الناس فيه أفواجا! وهو الفضائل التى أدى تمسك المسلمين بها إلى هزيمة الفرس والروم، وبناء حضارة شامخة كان لها فضل على الحضارات السابقة واللاحقة!

وهو نفس الإسلام الذى أدى ترك المسلمين فضائله إلى هزائم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، كما هو حادث فى هذه الأيام حيث تتحكم عصابة لا يتجاوز عددها ثلاثة ملايين ونصف من اليهود فى ركاب ألف مليون من العرب ويذبح الفلسطينيون فى كل يوم والمسلمون يتفرجون.

فإذا جاء داعية أو مجموعة من الدعاة يضحكون على فتياتنا وسيداتنا ويفهمونهن إن الإسلام هو الحجاب فإنهم يضللون ويصرفونهم عن جوهر ديننا الحنيف! إنهم أتباع أساتذة بن لادن وطالبان الذين اعتبروا الإسلام هو لبس المرأة النقاب وإطلاق الرجال اللحى! فأعادو «الافغانيين إلى العصور الوسطى وتسببوا فى تخريب أفغانستان، وأخضعوا الافغانيين للغزاة الأمريكيين!

فمتى ننتبه إلى الخطر؟ ومتى تعلم بناتنا وسيداتنا أن الإسلام دين شامل لكل الفضائل الإنسانية وليس هو فقط الحجاب.

(١١٠)
حول دفتر المدخر الصغير

التغيير الاجتماعى الذى شهدته مصر فى نصف القرن الأخير شهد ايجابيات كثيرة، ولكنه شهد سلبيات كثيرة أيضاً! منذ شهد اكتساح المرأة لميدان العمل، وسيطرتها على نواح كثيرة تفوقت فيها على الرجل، ولكن هذه الايجابية قابلتها سلبية كبيرة أيضاً، هى اعتماد الكثير من الرجال على المرأة فى الإنفاق، وتربية الأولاد!

وذهب البعض إلى استغلال المرأة! وبذلك تغير شكل العلاقة بين الزوج والزوجة، فبعد أن كان الزوج هو العائل أصبحت المرأة هى العائل!

ولأن المرأة العاملة أصبح لها مصدرها المالى الخاص، منفصلا عن المصدر المالى لخروجها، فقد صار من حقها التصرف فيه وفقا لمصلحة أولادها الصغار. وأحد أشكال هذا التصرف فتح حساب خاص لطفلها أو طفلتها من مالها الخاص لا يكون لزوجها أى والد الأولاد - السيطرة عليه!

ولكن كان يحول دون ذلك قوانين البنك التى تجعل الوالد هو الوصى على الأولاد (الولى الطبيعى)، ومن حقه الإيداع والسحب من

حسابهم الخاص! فبسبب سلبيات التغيير الاجتماعى الذى حدث نتيجة عمل المرأة وكسبها الخاص، لوحظ أن الكثيرين من الآباء يسطون على أولادهم القصر عن طريق السحب من حساباتهم الخاصة التى تودعها أمهاتهم الأمر الذى دعا الأمهات إلى الاحجام عن فتح حسابات لأطفالهن فى دفتر «المدخر الصغير».

من هنا كتبت مقالاً فى جريدة الأهرام منذ بضع سنوات أدعو إدارة البنك الأهلى إلى الموافقة على فتح دفاتر توفير بأسماء القصر لدى البنك دون اللجوء إلى الولى الطبيعى (الأب).

وقد لقى هذا الاقتراح استجابة فورية من الأستاذ محمد رضا رئيس مجلس إدارة البنك الأهلى المصرى الذى أعطى تعليماته لفروع البنك المختلفة بفتح دفاتر بأسماء قصر على سبيل التبرع أو الهبة، مع غل يد الولى الطبيعى (الأب) عن التعامل على هذه الدفاتر.

وقد كان البنك الأهلى فرع النزهة بمصر الجديدة هو أول فرع يطبق هذا النظام.

ومنذ أيام كنت فى هذا الفرع، وعنّ لى أن أسأل بعض المسئولين عن أحوال دفتر الطفل؟ وفوجئت بإقبال الجماهير عليه اقبالا شديدا، إذ أقبلت عليه فئات كثيرة من المجتمع، مثل الأم، والجدة، والجد، والخال، والعم والأخ، حتى أصبح أنجح الأوعية الادخارية الحالية، نظرا لمرونته بالنسبة للمودع الذى قام بفتح الدفتر، حيث يحق له أن

يسحب جزءا! وكل المبلغ فى أى وقت يشاء، دون اللجوء إلى الولى الطبيعى (الأب).

وهو أمر يعكس ـ فى نظرى ـ التغيير الاجتماعى السلبى فى مصر، بعد أن تكررت خيانة الولى الطبيعى للأمانة وسطوه على مدخرات أطفاله التى أودعتها أمهاتهم أو أقاربهم لتأمين مستقبلهم!

وهو أمر يستحق متابعة من واقع أحوال المجتمع المصرى المعاصر!

(١١١)
نهاية البيت المصرى المنتج!

ومما ضاعف من مشاكل مصر الاقتصادية، نهاية البيت المنتج، وظهور البيت المستهلك!

كان البيت المصرى على مدى التاريخ بيتًا منتجًا، يصنع كل احتياجات الأسرة، وكانت الزوجة المصرية زوجة «شاطرة» بمعنى أنها تعرف كيف تصنع كل مستلزمات الأسرة. وكان هذا شرط أساسى فى اختيار الرجل زوجته؛ وهو أن تغنيه عن إنفاق ماله فى شراء سلع مصنعه من الخارج.

فالزوجة المصرية حتى وقت قريب كانت تصنع أنواع المربى، والحلويات بكافة ألوانها، فهى تصنع الكنافة والقطايف فى رمضان، وتعرف كيف «تقدح» الزبدة لصنع المسلى، كما أنها تصنع الخبز فهى تعرف كيف تعجن وتقرص العجين إلى أرغفة، وتوقد الفرن، وتخبز العيش. كما أنها فى الأعياد تصنع الكعك والبسكويت والغريبة. وكان يساعدها فى ذلك كل أفراد الأسرة من صبيان وبنات. والأكثر من ذلك أنها تعفى الزوج من شراء الفراخ والبيض، فكانت تربى الكتاكيت حتى

تصبح فراخا وتراقب الفرخة حتى تبيض. وعندما تبلغ الفرخة سن اليأس، تذبحها وتقدمها وجبة شهية للأسرة مع الملوخية! كما كانت تربى الأرانب. وتوفر لها مياه الشرب النقية حتى تنتج إنتاجها الوفير.

كذلك كانت تصنع العصائر، وتعرف كيف تصنع التورتة وتزينها بكريم الشانتى كأحسن ما تكون. وغير ذلك مما يجعل البيت فى حالة اكتفاء ذاتى دائم، وبأسعار زهيدة جدا، هى أسعار الخامات ـ وكان هذا مبعث فخر للزوجة، ومما يميزها عن غيرها من الزوجات اللائى هن أقل كفاءة فى الصنعة.

وقد كان هذا أيضًا محور حديث الزوجات حين يجتمعن للدردشة! فكل منهن تتباهى بما صنعته لأولادها ولزوجها.

وأما بالنسبة للريف فكان الأمر أكبر. فالزوجة هى محور الحياة. وهى التى تعرف كيف تحلب البقرة، وتصنع من اللبن «الشوالى» والقشدة والزبدة، وتعرف كل شىء يتصل بالحيوانات المنزلية إلى آخره!

وقد اختفى هذا كله اليوم! واختفى معه كل مظاهر البهجة التى كانت تصاحب هذا الإنتاج المنزلى فقد كان يوم صنع الكعك عيدا لكل أفراد الأسرة يستيقظون صباحاً وهم فى حالة نشاط وسرور، لما يتوقعون من أنه يوم إنتاج يثبتون فيه جدارتهم أو خيبتهم فى صنع مستلزمات العيد من كعك وغريبة وبسكويت. وكان الالتفاف حول الأم التفافاً وثيقاً، والشعور بأن الأم هى مصدر رخاء الأسرة بل مصدر حياتها يغمر الجميع، كما كانت سعادة الأم بما تقدمه لأبنائها من خير

وسعادة الأم لا توصف! كانت تشعر بأنها تبرر وجودها، وتؤكد مركزها الشامخ فى الأسرة الصغيرة.

اليوم اختفى هذا الدور للأم. وأصبحت كل السلع تشترى من البقال والجزار - والحلويات وغيره. بل إن البيت الريفى أصبح يشترى البيض من السوق، ويشترى الزبدة، والمخبوزات!

ولاشك أن عمل المرأة هو السبب فى اختفاء دورها المنزلى العريق والمجيد. ولكن هل عوضت الجنيهات الزهيدة التى تحصل عليها المرأة من عملها ما كانت توفره لأسرتها من مستلزمات المعيشة وتربية الأولاد؟ ألم تفقد هيبتها القديمة مع بهدلتها فى طرق المواصلات، واحتكاكها بالرؤساء والجمهور؟

هذا السؤال لا أستطيع أن أجيب عليه وحدى، وإنما قد تجيب عليه المرأة بأفضل منى! وإن كنت فى البداية أحب أن أقول إننى مع عمل المرأة فى كل الأحوال! فالقضية قضية تقدم أو تخلف عن العصر! فالمرأة العاملة أكثر استنارة وأقوى شخصية وأقدر على التصرف. وكلما زادت حقوق المرأة كانت أقدر على خدمة بلدها ومجتمعها وهذه الحقوق لا تحصل عليها بالبقاء فى البيت، وإنما بالنزول إلى سوق العمل. ولكنى فقط أرصد سلبيات أفرزها التقدم الإجتماعى فى هذا العصر، وكان البيت والأولاد ضحايا هذه السلبيات.

(١١٢)

ضيوف الرحمن يا وزير السياحة!

أعتقد أنه آن الأوان لأن يقف الدكتور ممدوح البلتاجى، وزير السياحة، موقفا حازما من شركات السياحة المصرية التى تنتهز فرصه موسم الحج للنصب على الحجاج، والكسب الحرام، وجنى الدولارات على حساب التنكيل بالحجاج الذين يقعون فى براثنها، معتمدين على خرافة تقول إن الشكوى تفسد الحج! وهذه الرسالة أنموذج لتلك الشركات النصابة التى تمنى الحجاج برحلة حج مثالية، وتتقاضى منهم أسعار باهظة، تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات حتى إذا ما وصلوا إلى الأراضى المقدسة، تبخرت أحلامهم، واكتشفوا أنهم وقعوا فى عملية نصب كبيرة قد يتورع عنها شيلوك اليهودى.

تقول الرسالة، وهى من سيدة فاضلة، وزوجة كاتب سياسى وعضو فى مجلس الشورى، وقد وقع رسالتها كل أعضاء رحلة الحج. إنها اشتركت فى رحلة حج دفعت فيها ١٣ ألف جنيه «وقد أفهمنا قبل الدفع أن الرحلة منظمة بواسطة مختصين فى شئون الحج، فإذا بها تدار بواسطة جهلة أدعياء، ونصابين مستغلين، لا يفقهون شيئا فى الحج أو فى مناسكه! وقد عذبوا المشتركين - ومعظمهم من كبار

المسنين والمسنات ـ مشقة بالغة! كما إنهم كذابون! فقد أفهمونا أن هذه الرحلة ستكون ٢٥ يوما، فإذا بها تنزل إلى ١٣ يوما! وقد قضينا أياما فى الشوارع لكى توفر الشركة نفقات إقامتنا فى الفنادق! كما أن الفنادق كانت مكتظة بأعداد لا تناسب حجم الغرف وكان من المفروض أن يصحب أوتوبيسات الرحلة مشرف دينى، فإذا به لا يصلح مشرفا فى رحلة مدارس ابتدائية فوق أنه كان قليل الأدب، دائم النهر والسخط والشتائم والتهديد للحجاج!

وتقول الرسالة إن اليوم الأول للرحلة ضاع على الحجاج فى حالة سفر كاذب! فقد سافرت الطائرة المصرية إلى الأراضى المقدسة فى الساعة الخامسة من صباح يوم السبت ٢/١٦، ووصلنا إلى جدة الساعة ٧,٣٠ صباحًا ثم تركتنا الشركة دون أن تنقلها بالسيارة إلى مكة نحو خمس ساعات فى صالة الانتظار! فلم نصل إلى الفندق فى مكة إلا فى الساعة الثامنة مساء! الأمر الذى ترتب عليه عدم قيام الكثيرين منا بالمناسك المفروضة فى هذا اليوم!

وكانت الغرف خماسية للرجال وسداسية للسيدات! وهى غرف صغيرة لا تناسب فندق ٤ نجوم كما وعدنا!

وكان الافطار مما لا يناسب فندقاً من الدرجة الثالثة! اما الغداء فكان يفتقر إلى الخبز والفاكهة! والخدمة سيئة!

وفى اليوم السادس من الرحلة قادونا مباشرة إلى عرفات! وهو ما يخالف السنة، إذ كان مفروضا المبيت ليلة بالمزدلفة، وفى الفجر إلى

عرفات. وهو ما لم يحدث، الأمر الذى ترتب عليه إفساد الحج لترك السنة فى هذا اليوم! وكان حجم الخيم المخصصة لنا فى عرفات مما لا يتناسب اطلاقا مع العدد المقيم بها!

أما عملية الانتقال بالسيارات فكانت تفتقر تمامًا إلى التنظيم! حيث كنا ننتظر فى كل مرة نحو خمس ساعات حتى تصل السيارة! مما كان يضاعف من مشقة الرحلة.

وكان المفروض أن نذهب إلى مكة بعد رمية العقبة لطواف الإفاضة، ولكن الشركة امتنعت، وطلبت من المشتركين السفر بالمواصلات العادية على نفقتهم الخاصة!

ولكى توفر «الشركة نفقات إقامتنا ليلة فى المدينة أجبرتنا على السفر إلى جدة قبل الميعاد بـ ٨ ساعات قضيناها فى صالة الانتظار نوما على البلاط! ونحن نشاهد سيارات الشركات الأخرى تأتى وتذهب فى مواعيدها!

اننا نطالب بإجراء تحقيق عاجل مع مجموعة الشركات التى نصبت علينا، وهى ثلاث شركات هى (٠٠٠) هذه هى الرسالة التى وصلتنى، وإنى أضم صوتى إلى صوت هؤلاء الضحايا، وأطالب السيد الوزير بتوقيع العقوبات الرادعة على هذه الشركات المستغلة، مع نشر أسمائها (التى احتفظ بها) كما احتفظ بأسماء الموقعين - ليحذر المواطنون من الاقتراب منها! وثقتى كاملة فى همة الدكتور ممدوح البلتاجى، الذى لا يقبل لحجاج مصر من كبار السن والمسنات هذه المعاملة المهينة!

(١١٣)
حول دعوة الدكتور زقزوق لأئمة المساجد!

ليس ثمة شك فى أن أئمة المساجد فى مصر فى عصرنا الحاضر قد انفصلوا عن جماهيرهم الإسلامية، التى لم تعد تكترث كثيرا بما يقولونه فى خطبهم، لتخلفه عن أحوال العصر، وتجاهله مشاكل الجماهير، وتكراره المتواصل لأقوال السلف التى حفظها الناس.

لعل الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، وزير الأوقاف، قد لاحظ ذلك بحسه الوطنى والدينى العالى فى دعوته مؤخرًا إلى أئمة المساجد لتطوير أنفسهم!

وقد نسى سيادته أن المشكلة فى هؤلاء الأئمة أنهم يفتقدون الشعور بأن عليهم رسالة سامية يؤدونها! فهم موظفون فى وزارة الأوقاف، يؤدون عملا وظيفيا يتقاضون عليه أجرا، ولا يؤدون عملا تطوعيا من أجل نشر دين الله، وفضائل الإسلام ومبادئه!. ومحاربة الفساد!

ويفترق هؤلاء عن الأئمة الذين يشعرون بأنهم أصحاب قضية يدافعون عنها ويحاربون من أجلها، وبأنهم يصعدون المنبر للجهاد،

ولتعبئة الجماهير لصالح قضية ما دينية أو اجتماعية أو سياسية! وقد رأينا هؤلاء فى الأئمة الذين كانوا يستمعون إلى الأخوان المسلمين، أو جماعات التكفير لسيد قطب، أو جماعة التكفير والهجرة، أو جماعة «الناجون من النار» وغير ذلك من جماعات الإسلام السياسى التى أفسدت عقول الناس باسم الإسلام!

وينسى هؤلاء الأئمة فى مصر أن أمامهم قضايا لا حصر لها أكثر أهمية بكثير من فكر الاسلام السياسى الفاسد! هى قضايا مجتمع يعتقد أنة مجتمع مسلم، فى حين أن تصرفه وسلوكه يجافى مبادئ الإسلام!

وتلك هى القضية التى عبر عنها الإمام الشيخ محمد عبده عندما عاد من أوروبا بقولته المشهورة «إنه رأى فى أوروبا اسلامًا بدون مسلمين، وهنا فى مصر مسلمون بدون إسلام»!

فلا يستطيع عاقل أن يصف تصرفات المجتمع المصرى المسلم المعاصر بأنها تصرفات إسلامية تنطبق عليها تعاليم الإسلام أو مبادئه!

إن ما لدينا مجرد مظاهر إسلامية، تتمثل فى لحى، وحجاب، وخطب دينية سطحية خالية من المضمون، وتشدق بالإسلام! وكلها تخفى وراءها جهلا بالدين الصحيح، وسلوكيات تتجافى مع سلوكيات الإسلام الصحيح!

إنها خطب تقليدية ليس فيها أى اجتهاد أو إعمال فكر أو ملاحظة لسلبيات المجتمع! وهى نفسها الخطب التى كان يسمعها المصريون على مدى قرون بدون تغيير! فهى منقولة من الكتب الصفراء، وجميعها تقريبا تتجاهل التطور الذى طرأ على العصر وعلى آلياته! ولو بعث مسلم مات فى القرن السادس عشر وحضر إحدى خطب أئمة المساجد الحاليين، لما شعر بأن انتقل من عصر إلى عصر!

فعند مخاطبتهم المرأة المصرية يتجاهلون التطور الاجتماعى الذى نقل المرأة من عصر الحريم إلى مكاتب الحكومة والشركات تعمل جنبًا إلى جنب مع الرجل! أو إلى مدرجات الجامعات تجلس إلى جانب زميلها الطالب! أو نقل وسيلتها للمواصلات من الهودج على الجمل، أو ظهر الحمار إلى ركوب مركبات المواصلات المزدحمة بالرجال والنساء!

إن كل هذا التطور الاقتصادى غير بالضرورة معايير الحكم على الاخلاق. فلم تعد الأخلاق تتمثل فى نقاب مضحك لا تظهر فيه سوى عينى المرأة وهى تقود سيارتها! وإنما أصبح العمل من أجل لقمة العيش وتوفير الحياة الكريمة لأطفالها جنبا إلى جنب مع الزوج.

لقد سمعنا كثيرا من الخطب التى تدعو إلى حجاب المرأة، ولم نسمع خطبة واحدة تهاجم السيدات والفتيات اللاتى يتسترن وراء الحجاب وهن يرافقن أصحابهن على النيل! وهذا كله أفسح المجال لظهور أئمة جدد لا يفترقون عن كثير من أئمة المساجد فى ضحالة الفكر، وإن كانوا يتميزون عنهم بقدرتهم على إثارة قضايا شكلية تحافظ على مظهر الاسلام وتتجاهل جوهره!

(١١٤)
السلعة الرديئة هى المدخل للإغراق!!

يبدو أن الرئيس مبارك «ينفخ فى قربة مقطوعة! » وهو ينصح رجال الصناعة بتجويد صناعاتهم، لكى تحتل مكانتها بين الصناعات الأجنبية! فمازالت هناك صناعات كثيرة فى مصر لم ترتق بعد إلى المستوى الذى يؤهلها للمنافسة مع صناعات دول من الدرجة الثالثة! الأمر الذى يضطر الجمهور المصرى إلى الاتجاه إلى الصناعات الأجنبية!

فى البداية كانت صناعات الدول الأوروبية المتقدمة، مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا تحتل المكانة الأولى بين الصناعات الأجنبية، وقد اختفت هذه الصناعات اليوم من السوق المصرى لتحل محلها صناعات دول أسيوية مثل الصين وكوريا واندونيسيا، وعلى رأسها بطبيعة الحال اليابان!

والغريب أن صناعات هذه الدول المتقدمة اختفت حتى فى بلادها! ففى إنجلترا سوف تتعب كثيرا إذا حاولت العثور على منتجات إنجليزية أو فرنسية أو أمريكية أو يابانية، فقد حصلت الدول الآسيوية، وعلى

رأسها الصين على حق إنتاج الشركات المتقدمة الكبرى، وأصبحت تبيعها بأسعار تقل كثيرا عن الأسعار التى تنتج داخل البلاد المتقدمة!

فكثير من هذه البلاد المتقدمة تتخلى طوعا عن الصناعات التقليدية للدول الأسيوية وأصبح اهتمامها منصرفا إلى الصناعات ذات التقنية العالية جدا! بل إنها تخلت عن صناعات متقدمة جدا، مثل الكومبيوتر والمحمول وغيره إلى البلاد الآسيوية لتتفرغ لما هو قادم فى العصر القادم من معجزات صناعية!

وبفضل هذه الصناعات نهضت الصين نهضة فاقت كل تقدير! بل نهضت فى وقت وجيز جدا لا يحسب فى حساب الزمن. فقد أخبرنى الصديق الأستاذ جمال بدوى، عندما كان يرافق الرئيس مبارك فى زيارته الأولى - أو لعلها الثانية - للصين إنهم كانوا يتضورون جوعا تقريبا! إذ كانت أطباق الطعام التى تقدم لهم فى الفنادق لا تحتوى على أكثر من عينات لا تسمن ولا تغنى من جوع! ولكن بعد عشر سنوات فقط كانت الصين تقفز قفزة هائلة بحيث لم يعد يعرفها من زارها قبلا!

وقد عرفت السبب عندما كنت فى زيارتى للندن فى العام الماضى فقد اكتشفت أن كل الصناعات اليابانية قد أصبحت صناعات صينية! وفى البداية قاومت شراء هذا السلع، ولكنى عرفت من الباعة ان هذا هو الموجود فى إنجلترا! وإننى إذا أردت سلعة يابانية الصنع أو أوروبية فعلى أن أدفع أربع أضعاف المبلغ الذى أدفعه فى السلعة الصينية

الصنع . على الرغم من أنها نفس الماركة اليابانية ولكن بصناعة صينية!

وفى مصر اقتحم الصناعة عدد من رجال الصناعة الكبار مثل أحمد بهجت وأحمد عز ومحمد فريد خميس وغيرهم، وأنتجوا صناعات يمكنها أن تنافس الصناعة الأجنبية، ولكنها كانت مقصورة على السلع المتوسطة، مثل الغسالات والثلاجات والتليفزيونات وغيرها، ولكن بالنسبة للسلع الصغيرة اختلف الأمر! فقد أقبل على صنعها المغامرون والمتعجلون من رجال الصناعة، وغير الجادين! فمعظمها صناعات رديئة لا تقف أمام المنافسة.

مع إن هذه الصناعات الصغيرة بالذات هى التى سيطرت على العالم اليوم! وقد احتكرتها الدول الآسيوية! فيدهش المرء عندما يكتشف أن كل ما يخطر ومالا يخطر، على البال من السلع الصغيرة قد صنعتها الصين! فضلا عن لعب الأطفال الرخيصة!

ومنذ أيام شاهدت لقاء فى قناة الجزيرة بين المليونير رامى لكح وأحمد منصور وقد عذر المليونير المصرى إفلاس مصنع لمبات الكهرباء إلى «الإغراق! ولم يفسر من أين يأتى الإغراق؟ ومعلوم أن الإغراق يأتى من رداءة صناعة اللمبات الكهربائية فى جميع الشركات التى تنتجها! واحتراقها بعد وقت وجيز من استعمالها! فهنا يحدث فراغ يجذب الإغراق! لأن السوق تكون خالية تقريبا من السلطة الجيدة، فلا يكون أمام المستهلك المصرى إلا اللجوء إلى السلعة الأجنبية! والدليل

على ذلك أنه لا يوجد إغراق فى السلع المصرية الجيدة الصنع، مثل الغسالات والثلاجات والتليفزيونات وغيرها، إذ يكتفى بها المستهلك المصرى.

ومن هنا فالذين يريدون أن يخدعوا جماهيرنا من رجال الصناعة المغامرين أن يدركوا أن جماهيرنا قد تنخدع مرة ولكنها لا تنخدع طول الوقت! وفى الوقت نفسه فإن «وابور زلط» الجات قادم لا محالة! وسوف يدهس تحته كل صناعة رديئة!

والمشكلة أنه سوف يدهس أيضا الطبقة العاملة المصرية إذا استقر الحال على هذا المنوال!

(١١٥)

بين رامى لكح وأحمد منصور

لولا أننى سمعت بأذنى عبداللطيف الشريف يعرض على رامى لكح شراء شركاته بمبلغ مليار ونصف المليار جنيه فى برنامج على الهواء أذاعته قناة الجزيرة، لما صدقت بحال من الأحوال! فإذا كان السيد عبداللطيف الشريف يملك مليارا ونصف المليار من الجنيهات فى هذه الأيام، فلماذا لم يرد للمودعين أموالهم؟ وغالبيتهم الساحقة من المدخرين الصغار الذين خدعهم القطاع الإسلامى لمعاملاته، والأرباح العالية التى وعد بها هؤلاء المخدوعين، والحملة المضللة ضد البنوك الوطنية التى زعم فيها ورفاقه من أصحاب شركات توظيف الأموال ! ـ معاملاتها ربما يدخل صاحبه جهنم وبئس القرار؟

لقد كنت أتوهم أن عبداللطيف الشريف قد أفلس، وأنه يتضور جوعا فى أوربا بعد إفلاس كل شركاته. حتى سمعت بأذنى صوته فى قناة الجزيرة وهو يعرض شراء شركات رامى لكح بمليار ونصف المليار جنيه!

ومن حسن الحظ أن حاستى البروليتارية، وشكى فى أصحاب اللحى والجلاليب، وفلسفتى فى الرزق التى تحمينى من التكالب عليه.

كل ذلك أبعدنى عن طريق شركات توظيف الأموال، التى خربت بيوت الملايين من أبناء شعبنا. وبالتالى فلم تخرب بيتى كما خربت بيت الآخرين.

ولكنى شاهدت مآسى لا حصر لها، من خلال المكاتبات التى كانت تصلنى، وكل حالة تستحق فيلماً سينمائياً يصور بهدلة هؤلاء المودعين، وذلهم، والأمراض التى أصابتهم من جراء الظلم والقهر والحاجة إلى كل قرش مما أودعوه تحت أمل أن يعود إليهم مضاعفا، فذهب ولم يعد!

ولقد كتبت كثيرًا، ولكن دون جدوى! فقد تحالف الفساد والنصب باسم الدين على هؤلاء المساكين فسقطوا فى وحل الندم والحاجة والعوز، دون أن يمد أحد اليهم يدًا تنتشلهم مما هم غارقون فيه من يأس.

والأمر الذى أندم عليه، حتى سمعت السيد عبداللطيف الشريف، أننى صدقت فى وقت من الأوقات قصة إفلاس هؤلاء الناس تحت ظروف الإقبال المفاجئ من المودعين على سحب أموالهم، ولم أدر أن القصة كلها كانت عبارة عن سيناريو مخطط ومحكم لنهب أموال المودعين والفرار بها إلى الخارج، وأنها عبارة عن صفقات قذرة على حساب الغلابة والمساكين من أصحاب المدخرات الصغيرة!

وأعترف بأنى لم أفهم - ولا أفهم حتى اليوم شيئا! فلو كان هؤلاء النصابون من أصحاب شركات توظيف الأموال من الملحدين، لكان لهم عذر فيما فعلوا، ولكن المصيبة أنهم ممن ينتسبون إلى الإسلام ويتاجرون بالإسلام! فهل يعتقد هؤلاء الناس أن الدنيا مخلدة لهم؟ وأنه

لا يوجد موت وحساب وعقاب؟ وهل غرتهم الحياة الدنيا إلى حد أن نسوا أن هذه الحياة قصيرة مهما طال العمر، وأن الأخرة خير وأبقى؟

وهل يضمن أحد ممن يملك مليارا ونصف المليار من هؤلاء أن الله تعالى سوف يمد فى عمره إلى نهاية الدهر حتى يستمتع بما كسبه من حرام ومانهبه من أرزاق المسلمين؟

أننى أعرف قصة سيدة فقيرة باعت متجرا صغيرًا كانت تملكه بعد أن خدعتها الأرباح التى كانت تعلن عنها شركات توظيف الأموال. وأودعت المبلغ فى إحدى هذه الشركات، وفوجئت بأنها شركة نصب وليست شركة إسلامية، وضاعت أموالها، فأصيبت بالشلل! وأعرف سيدة أودعت كل ما حصلت عليه من زوجها من العمل فى دول الخليج، فى إحدى هذه الشركات، فضاعت، ولم تجد السيدة أو زوجها ما تنفقه على علاجها أو علاج زوجها من المرض! وحالات كثيرة من هذا النوع ذكرنى بها حديث عبداللطيف الشريف، وهو يعرض مليارا ونصف مليار على رامى لكح لقاء شراء شركاته!

إننى لا أرفع رأسى إلى السماء لأدعو الله أن يعاقب هؤلاء الذين عذبوا أبناء شعبنا بقدر ما أجرموا! ولكنى أطالب حكومتنا بأن تطبق عليهم عقاب الدنيا، وتدع عقاب الأخرة لله تعالى، فلن يخلف الله وعده.

وقد اكتشف الأمر صدفة عندما أراد السيد أحمد منصور المذيع بقناة الجزيرة، أن يضيف إلى «أمجاده» فى التشهير بمصر والإساءة إلى زعمائها وعهودها، مجدا جديدا عن طريق فخ دبره لرامى لكح،

الملياردير المصرى المقيم فى باريس بسبب عدم سداده «حفنة» ملايين للبنوك المصرية! وأخذ يقوده للإساءة إلى مصر! ولكن الملياردير لكح اكتشف أنه يساق إلى فخ منصوب له! فكان أذكى من الوقوع فيه! وهنا طار صواب السيد أحمد منصور، وأخذ يكيل الاهانات للسيد رامى لكح على نحو غير مسبوق فى أمثال هذه اللقاءات! وحول اللقاء إلى محاكمة للسيد لكح حاول فيها تلويث ماضيه وحاضره ومستقبله! وفوجئ الجمهور المصرى بالمذيع يتحول إلى بلطجى - على نحو ما فعل مع السيدة جيهان السادات من قبل! ولكن السيد رامى لكح لم يكن مثل جيهان السادات فكال للمذيع الكيل كيلين، وتحول اللقاء إلى صراخ واحتجاجات بشكل لم يشهده تاريخ التليفزيون العالمى منذ ظهوره إلى اليوم!

وقد كانت الفائدة الوحيدة التى التقطتها من هذه المعركة هى اكتشاف أن السيد عبداللطيف الشريف، الذى يتصور جميع المصريين أنه مفلس، يملك مليار ونصف المليار، عرضها على السيد رامى لكح لشراء شركاته! وهو اكتشاف أرجو ألا يصيب بالشلل ضحايا السيد الشريف الذين لم يستردوا أموالهم إلى اليوم، أو استردوا بعضها وضاع البعض الآخر!

والمثل المصرى يقول: إذا اختلف اللصان ظهر المسروق! خصوصًا إذا كان المسروق مليارا ونصف المليار من الجنيهات! ولله الأمر من قبل ومن بعد !

(١١٦)
صح النوم يا وزارة البيئة

من الواضح أن وزارة البيئة هى وزارة «لا محل لها من الإعراب» - كما يقول أهل اللغة! - وأنها لا تجد ماتعمله! وإذا وجدت ما تعمله فإنها لا تعمله!

فمنذ نحو شهرين - أى فى يوم ٥ فبراير ٢٠٠٢ - كتبت استغاثة لوزير البيئة ظننت أنه سوف يسعد بها، لأنها ستتيح له أن يعمل شيئا ما يبرر به وجود هذه الوزارة، ويثبت فاعليتها فى أى شىء يفيد الوطن! وفوجئت بأن الوزارة تغط فى نوم عميق! بل أنها حتى لاتقرأ الصحف! وإن عملها الوحيد هو قبض مرتباتها من الدولة فى أول كل شهر، ثم تعود إلى النوم مرة أخرى!

وكانت الاستغاثة قد وصلتنى من أهالى قسم فى حى الوراق، يشكون من أنهم يعيشون فى وسط روائح كريهة أصابتهم بالأمراض. بسبب وجود جزار بلطجى بالحى يأتى بالماشية المريضة، ويقوم بذبحها داخل بيته الذى حوله إلى «زريبة» يستخدمها كمجزر خاص! فإذا احتج السكان واجههم بالسكاكين والشوم والسنج والشتائم المقذعة!

ويشترك معه فى الجريمة تاجر ماشية يستخدم الشارع أيضا كزريبة للماشية، ويستخدم بيتًا مهجورًا للسباخ!

وتقول الشكوى إن الذبح يجرى فى الشارع علنًا، فإذا مر أحد رجال الصحة توقف الذبح مؤقتا حتى يمر بالسلامة، وهو عادة يمر بالسلامة! وهو أسعد حالا وأملأ جيبا، وأكثر ثراء! ثم يعود الذبح على قدم وساق تحت الارهاب الذى يفرضه الجزار!

كنت أتصور أن وزارة البيئة سوف تقف على ساق واحدة ولا تقعد حتى تزيل الوصمة التى تلطخ وجه الحى، والذى ينفرد بها.. وصمة حى تنبعث منه روائح كريهة لا تنقطع تحت سمع السلطة وبصرها. وهو مالا يوجد مثيل له فى أى عاصمة من عواصم العالم! ولكن الوزارة كانت نائمة، وفى الوقت نفسه فإنها لا تقرأ الصحف الواسعة الانتشار مثل جريدة الجمهورية! ولعلها تكتفى بقراءة الصحف الصفراء! ولذلك لم يحدث شىء على الاطلاق! فالجزار يذبح الماشية المريضة فى بيته، وتاجر الماشية يخصص بيتًا للسباخ، وأهالى الحى يستغيثون ويصرخون دون مجيب! وهم فى رعب من البلطجية الذين احتكروا الحى لمصالحهم الشخصية، معتمدين على قدراتهم على إسكات السلطة بالمال أو تخويفها بالسكاكين والشوم والسنج!

فإذا لم تكن مهمة وزارة البيئة المحافظة على نظافة البيئة، وتطهيرها من الجراثيم والآفات فما هى إذن مهمتها؟

لقد قيل لى إن هذه الوزارة هى مجرد مكاتب ولا تملك أية إدارة تنفيذية أو قوة لأداء وظيفتها، وإنها تعتمد على سلطة المحافظين بإبلاغهم بالمخالفات! وإذا كان الأمر كذلك حقيقة، فهل تستحق هذه المهمة إنشاء وزارة عليها وزير وفيها موظفون وميزانية؟ ألا يكتفى بإنشاء مكتب فى المحافظة يسمى مكتب البيئة، توجه إليه الشكاوى الخاصة بالبيئة، ويقوم بعمل اللازم بشأنها؟ وألا يكون هذا المكتب أكثر فاعلية وجدوى من إنشاء وزارة فخمة لا عمل لها، ووزير كبير لا عمل له؟

(١١٧)

ريجوليتو فى مصر بين أول وآخر عرض!

عندما قرر الخديو إسماعيل أن يجعل مصر قطعة من أوربا، اختار رمزا عظيما من رموز النهضة الأوربية وهو الأوبرا! وعزم على إدخاله إلى مصر.

كان تفكير اسماعيل فى إدخال الأوبرا إلى مصر تفكيرًا جنونيًا! فالمجتمع المصرى مجتمع شرقى مسلم منذ أربعة عشر قرنا، وعلى الرغم من التحديث الذى أدخله محمد على ومن بعده محمد سعيد وإسماعيل، فإن إدخال الأوبرا فى مصر كان يعد خطوة عملاقة على طريق التحديث.

وقد اختار إسماعيل مناسبة افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية لافتتاح الأوبرا، وحتى يشعر ضيوف مصر من ملوك أوربا أنهم يزورون قطعة من أوربا، وليست قطعة من أفريقيا! وقد اختار «ڤيردى» بالذات لعمل الأوبرا التى تفتتح بها الدار واختار موضوعًا مصريًا تقوم عليه هذه الأوبرا. فكانت قصة «عايدة»!

كان ڤيردى فى ذلك الحين قد أصبح أشهر موسيقى فى أوربا، بعد ثلاثة أعمال أوبرالية قفزت به إلى القمة، وهى أوبرا «ريجوليتو»

فى عـام ١٨٥١، وأوبرا «إلتـروفـاتورى» - أى الفـارس فـى عـام ١٨٥٣، و«لاترافياتا» أو المستهترة فى عام ١٨٥٥.

وعندمـا كلف الخديو إسـمـاعـيل فـيـردى بعـمل هذه الأوبرا، لجـأ فـيـردى إلـى «مـريت بك» - هو أثرى ليـمـده بحـادثة من تاريخ مـصـر القديم، يقـال إن مريت بك اكتشـفها أثناء قيامه بحفـرياته فـى ممفيس. فأمده بقصة عايدة!

على أن القـدر شـاء ألا يتم فـيـردى كتـابة هذه الأوبرا فـى الوقت المناسب لتعـرض فى افتتـاح دار الأوبرا المصـرية، فاختـيـر لهذا العـرض أوبرا «ريجوليتـو». وهـى التى افتتـحت بهـا دار الأوبـرا المصـرية بالفـعل، وليست عايدة كما يعتقد البعض!

وقـد كـان اختـيـارا موفقـا، فالأوبرا مـأخـوذة من مـسـرحـيـة الروائـى الفـرنسـى الشـهير «فكتـور هوجـو» «الملك يلهو» وهـى مـأسـاة بالغـة الإثارة عن «ريجوليتو» المهـرج الأحـدب الذى يعـيش فـى قصـر دوق مـغامـر يهوى اغـواء زوجات حـاشيته وبنـاتهن، ويقوم بـاغـواء ابنة ريجوليتو، فيقـرر هـذا الانتـقـام منه ويتـفق مع سـفـاح على قتـله، ولكن القـدر يدبر قـتل ابنة ريجوليتو بدلا من الدوق، وعندمـا يتسلم ريجـوليتو الجثة مـعتقـدا أنهـا للدوق، يكتشف أنها جثة ابنته. وهنا تلعب مـوسيقـى فيردى دورًا خطيرًا فى تصـوير هـذا المشـهـد الدرامـى المؤثر وتنتـهـى الأوبرا وابنة ريجـوليتـو بين يديه طالبة مغفرته.

لهذا اختارت دار الأوبرا لأداء الأدوار سوبرانو مصرية تعد من أهم الأصوات التى أنجبتها مصر، وهى داليا فاروق، التى قامت بدور «جيلدا» ابنة ريجوليتو، وهى خريجة معهد الكورنستورفاتوار مع مرتبة الشرف على يد الدكتورة فيوليت مقار ودرست الغناء فى جامعة كاليفورنيا، وحصلت على الجائزة الأولى بمسابقة الغناء الأوبرالى التى ينظمها المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨، وقامت بأداء عدة أدوار فى أوبرات عديدة.

كما اختارت حنان الجندى، وهى «ميتز سوبرانو» لأداء دور مادلينا، وهى على رأس الأصوات التى تؤدى أدوار هذا الصوت فى مصر، مثل دور كارمن! وهى خريجة المعهد العالى للموسيقى العربية على يد الأستاذة العظيمة رتيبة الحفنى. وقامت جيهان مرسى بإخراج ريجوليتو إخراجًا يرقى إلى أعظم ما عرض على مسارح دور العرض العالمية. وهو أمر يجعلنا نفخر - بحق - بمصر وفنانيها ودار الأوبرا فيها.

(١١٨)

صباح فخرى .. نهاية عصر

لست من عشاق الموسيقى الشرقية، على الرغم من أنى تربيت فى بيئة شعبية، وإنما أنا من عشاق الموسيقى الكلاسيكية الغربية ويرجع ذلك إلى حاسة التذوق الفنى من جهة، ولا حيلة لى فيها، فهى هبة من الله. كما يرجع إلى أن الموسيقى الشرقية فى حالة تدهور مستمر.

فمن المعروف أن العصر الذهبى للموسيقى الشرقية قد انقرض مع اختفاء الملحنين العظام، من أمثال: الشيخ زكريا أحمد وبليغ حمدى ومحمد الموجى ورياض السنباطى والقصبجى ومحمود الشريف وفريد الأطرش ومحمد عبدالوهاب، ووقوع التلحين فى يد جيل جديد، يعتمد على الفيديو كليب، والإبهار، وقيام ظواهر فنية - أو لا فنية فى الواقع جديدة - مثل شعبان عبدالرحيم وعدوية وغيرهما.

والأمر كذلك تقريبا بالنسبة للموسيقى الغربية الحديثة، التى تعتمد على الستريو الصاخب، والفيديو كليب أيضًا.

وبذلك أصبحت الموسيقى الكلاسيكية هى الملجأ الوحيد لأصحاب الذوق الفنى الرفيع، فى الموسيقى، فهى موسيقى خالدة، فعلى الرغم

من أن عـمـرها نحـو ثلاثة قـرون، فـمـازالت تعـزف فى أرقـى صـالات الموسيقى العالمية، وتسمعها أرقى الطبقات فى المجتمع، ولم تتأثر أيما تأثر بصعود الموسيقى الغربية.

على أنه مع ذلك لم تندثر الموسيقى التراثية، إذ مازالت تعزف فى دار الأوبرا المصرية، ويحضرها جمهور غفير من أصحاب الذوق الفنى الرفيع.

وفى الشـرق العـربى برزت أصـوات نادرة تعيـد لموسـيـقى التـراث مجدها الذى تدهور، وعلى رأس هذه الأصوات بلا منازع الفنان صباح فخرى.

لذلك عندما وفق الدكتور سمير فرج رئيس هيئة دار الأوبرا إلى عقد اتفاق مع الفنان صباح فخرى لإقامة حفلة فى دار الأوبرا يوم ٢ نوفـمـبـر ٢٠٠١، حـرصت على حـضـور هذه الحـفلة. وهو مـا أدهش صـديقـا لى يعـرف أنى لا أحـضـر إلا عـروض الأوبرا والموسـيـقى الكلاسيكية. ولكنى رددت عليه بأن صباح فخرى نهاية عصر مجد الموسيقى الشرقية، ويكاد يكون الحفيظ الوحيد على تراثها، وإنى لاأود أن يعيش هذا العصر دون أن أشاهده.

وبالفعل، فلم أندم على حضورى حفل صباح فخرى، ولعلى كنت أندم كثيرًا لو لم أحضره! فقد شاهدت فى هذا الحفل تقاليد التخت الشـرقى العـريقـة، فـهـو ليس مـجـرد غناء، وإنما عـرض أو بالأحـرى - استعراض لقدرات الآلات الموسيقية الشرقية، مثل: العود - والقانون -

مضافاً اليه الكمان - على أداء قطع موسيقية شرقية رائعة منفردة تناقس أعظم القطع الموسيقية الكلاسيكية.

وأما صوت صباح فخرى فهو صوت نادر لن يتكرر. يتميز بالعذوبة والصفاء والقوة والمرونة وطول النفس لدرجة غير مسبوقة فهو يستطيع أن يغنى ساعات طويلة دون إجهاد. وقد دخل موسوعة جينس لاستمراره فى الغناء دون توقف لمدة ثمانى ساعات.

والمهم هو أنك مع صباح فخرى تستطيع أن تعيش ليلة من ألف ليلة وليلة، فى حالة طرب مستمر!

ومن المعروف أن الطرب هو ما يميز الموسيقى الشرقية! فالموسيقى الغربية ليس فيها طرب! ولذلك يطلق على مغنية الموسيقى الشرقية اسم مطربة، ولا يطلق هذا الوصف على مغنية الموسيقى الغربية.

والمهم هو أنى سعدت عندما عرفت من الدكتور سمير فرح موافقة الفنان صباح فخرى على تسجيل هذا الحفل وهو ما تم بالفعل، فنحن فى حاجة إلى حماية الموسيقى الشرقية التراثية الرفيعة من الاندثار!

(١١٩)

نجمة عبدالله .. البولدوزر!

مازالت إلى اليوم عاجزا عن فهم هذا الفارق الغريب الذى يميز الشرق عن الغرب! وهو الطرب! ففى الشرق طرب، وفى الغرب لا يوجد طرب، وإنما توجد فقط موسيقى بحتة! وفى الشرق موسيقى تخاطب العاطفة، وفى الغرب موسيقى تخاطب العقل!

ولذلك فأنت فى حفلات الطرب العربية ترى الناس يتمايلون من الطرب، ويتأوهون، ويصفقون على أنغام الموسيقى ولا تجد ذلك فى الموسيقى الغربية! وأنت فى الشرق ترى المستمعين يقاطعون المطرب بالتصفيق وصيحات الاستحسان ولا ترى ذلك أبدا فى الموسيقى الغربية!

ففى الأوبرات العالمية، حيث تغنى المغنية «آريات» أى قطع طويلة ترى المستمعين ينصتون فى صمت، وكأن على رءوسهم الطير! فإذا انتهت انفجروا بالتصفيق الحاد، ولا توجد مقاطعة من أى نوع!

وليس معنى ذلك أن صوت مغنية الأوبرا ليس جميلا بالدرجة التى تدفع إلى المقاطعة، ولكن معناه أن الطرب ليس هو الغاية من الغناء

والذى يجعل المستمعين يتمايلون ويطلقون صيحات الاستحسان، وإنما الغاية إمتاع العقل!

تذكرت ذلك وأنا أستمع إلى مطربة بحرانية جديدة تسمى نجمة عبدالله فى دار الأوبرا المصرية يوم ٢٠٠١/١١/٦! كانت الأغنية جزءا من برنامج فرقة البحرين للموسيقى العربية بقيادة أحمد عبد اللطيف فى مهرجان الموسيقى العربية العاشر.

كنت أستمع لعزف الفرقة البحرانية باعتباره جزء من البرنامج الموسيقى العام، ونظرا لأنى لست من عشاق الموسيقى العربية أصلا، فكنت أستمع وانا أغفو أحيانا! رغم جمال العزف! فقد استمعت إلى مثله كثيرًا طول حياتى، وكان ذلك هو وضعى عندما تقدمت نجمة عبدالله إلى المسرح لتقدم أغنيتها وهى أغنية أم كلثوم المعروفة: «افرح ياقلبى» لرياض السنباطى.

على أنى لم أكد أسمع المقطع الأول من الأغنية حتى تنبهت فجأة وأنا فى منتهى اليقظة! كان صوتها من الأصوات النادرة التى لا يسخو الدهر بمثلها كثيرا! كان أشبه «ببولدوزر» فتى يكتسح ما أمامه!

فهو صوت قوى ينبض بالحياة والجمال والصفاء والعذوبة معا. لقد كانت نجمة عبدالله تقف على بعدنصف متر من الميكروفون ومع ذلك كانت تبدو كما لو كانت تقف على بعد بضعة سنتيمترات من الميكروفون! وقد بدت كما لو كانت أم كلثوم تغنى فى عنفوان شبابها ولياقتها الصوتية.

لم يكن صوت نجمة عبدالله مفاجأة لى وحدى، بل كان مفاجأة للجميع الذين استعادوها! وقد عبر صوتها مناخى النفسى تمامًا من الخمول إلى النشاط! ومن عدم الاكتراث إلى الاهتمام! كما غير فراغى الفنى الذى كان قد تغير مع اختفاء عصر العمالقة - أو العصر الفنى الذهبى لمصر - وارتبطت ارتباطًا عضويًا بالموسيقى الغربية. لقد شعرت أنه ، مع كل اعتراضاتنا على الإسفاف الموسيقى والغنائى الشنيع الذى يحدث حاليًا، فإن هناك محاولات بناءة تجرى لإحياء العصر الذهبى، وعلى رأسها ما يقوم به الدكتور سمير فرج فى مصر من رعاية كاملة لمهرجان الموسيقى العربية، وإخراجه على هذا المستوى الرفيع، باستخدام الإمكانات الهائلة لدار الأوبرا. كذلك ما يحدث فى البحرين التى أنجبت نجمة عبدالله.

وهذا الإحياء يقوم على نفس العناصر الفنية التى أسست العصر الذهبى، من أمثال أم كلثوم والسنباطى. وهو ما يعنى أنه لا مجال لليأس! فنحن نملك العناصر الفنية لعصر الإحياء. والمهم أن نتبنى المواهب الجديدة ونرعاها، فهى سلمنا للارتقاء إلى إحياء الفن الشرقى الأصيل.

(١٢٠)
هدية عمار الشريعى لمصر

لم أحضر حفلا من حفلات أم كلثوم فى حياتى! فلم أكن أملك ترف حضور حفلة لأم كلثوم! وبالتالى اقتصر سماعى لأغانى أم كلثوم على الراديو أولا، ثم على الراديو والتليفزيون عندما عرفت مصر التليفزيون! ومعنى ذلك أننى لم أعرف الفرق بين الاستماع لصوت أم كلثوم بشكل مباشر فى حفل، والاستماع لهذا الصوت من خلال المذياع!

ولكن أدركت أن هناك فرقًا كبيرًا بين الاستماع لصوت أم كلثوم الطبيعى بشكل مباشر، والاستماع اليه من الراديو، عندما اصطحبنى والدى صغيراً إلى مسجد الأمير فاضل بشارع درب الجماميز لصلاة الجمعة للاستماع لصوت الشيخ محمد رفعت.

ففى مسجد الأمير فاضل استمعت إلى صوت لم أسمعه من قبل! ولم أسمعه من بعد! وهو صوت الشيخ محمد رفعت. كان صوتًا أقل وصف له أنه صوت نورانى نقى إلى أبعد الحدود، تسمعه كأنك تراه! وهو غير الصوت الذى تسمعه من الراديو، إنه أجمل بكثير، حتى لقد شعرت بأن المذياع يظلم صوت الشيخ محمد رفعت ظلما بينا.

وعندما خرجنا من المسجد بعد تمام الصلاة، وذهبت مع والدى إلى محطة الترام الذى كان يسير وقتذاك فى شارع درب الجماميز، رأينا الشيخ محمد رفعت قادما لركوب الترام، كانت أجرة الترام فى ذلك الوقت ستة مليمات، وهى الأجرة التى يقدر على دفعها أشهر مقرئ عرفته مصر على مدى تاريخها! لم يكن اختراع السيارات المرسيدس التى يملكها المقرءون فى هذه الأيام قد ظهر بعد! وإنما كان الترام يستوعب الجميع أى يستوعب الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا على السواء!

أقول هذا الكلام، لأنه تبادر إلى ذهنى وأنا أستمع إلى الصوت النادر للمطربة آمال ماهر فى دار الأوبرا المصرية يوم ٦ نوفمبر الماضى، وقد غنت لأم كلثوم وصلتين كاملتين!

ففى أثناء النشوة التى تملكتنى وأنا أستمتع بالصوت الساحر، تمنيت لو كانت اتيحت لى فرصة الاستماع لصوت أم كلثوم فى إحدى حفلاتها، حتى أعقد المقارنة بين صوتها وصوت آمال ماهر!

ذلك أننى على يقين من واقع تجربة الشيخ محمد رفعت - أن صوت أم كلثوم الطبيعى كان أجمل بكثير منه مذاعا من الراديو!

وكذلك كان صوت آمال ماهر، الذى طمأننى إلى أن مانردده من أن مصر «ولاّدة» ليس كلاماً للاستهلاك ورفع الروح المعنوية، وإنما هو كلام حقيقى يعبر عن واقع. فمن المحقق أن آمال ماهر هى امتداد لأم كلثوم، على نحو ما كان «برامز» امتداد «لبيتهوفن».

ففيه خامة صوت أم كلثوم، وفيه قوته، وحلاوته، وامتداده الطويل.
كما إنه صوت مطوّع خاضع لإرادتها وطوع أمرها! إنه صوت نادر، وهو هدية عمار الشريعى لمصر!

أعجبنى وفاء آمال ماهر لأستاذها! ففى وسط اعجاب المشاهدين المستمعين طلبت من عمار الشريعى الذى كان حاضرا الحفل، الصعود إلى المسرح ليعزف على عوده لحن عربية يا أرض فلسطين، التى غنتها، وقدمت له على المسرح آيات الوفاء والعرفان.

تذكرت مطربة أخرى، كانت هى مشروع والدها الموسيقى، الذى كرس حياته ابناء مجدها، وبدونه كانت تصبح نكرة لا ذكر لها. وقد جازته بعد نجاحها نكرانا، واتهمته بمحاولة استغلالها! لقد فازت بالنجاح، وفاز والدها بالحسرة! كم تمنيت لو كانت قد حذت حذو آمال ماهر! فالاعتراف بالجميل فضيلة من أعظم الفضائل، وهو أساس تقدم البشرية، كما أنه فضيلة إنسانية بحتة لا تعرفها الكائنات الأخرى!

والمهم إننى صافحت عمار الشريفى وشكرته على هديته لمصر! وقد أجاب بابتسامة مرحة: لعل مصر قبلت الهدية؟ وقد أجبت قائلا: نعم، لقد قبلت مصر الهدية! فهى على قدر مهديها!

(١٢١)
المستشار فتحى نجيب والتنظيم القضائى

عندما يكتب تاريخ القضاء المصرى سوف يسجل له المؤرخون فضل الحفاظ على الديمقراطية الليبرالية فى مصر. والنضال من أجلها بشجاعة فى أحلك أيام العهد الناصرى ضد انتهاكات حكم العسكر لحقوق الإنسان، عندما أعطوا القانون إجازة تحت ادعاءات الثورية الاشتراكية!

وقد احتدم هذا الصراع بين القانونيين المصريبن والعهد الناصرى من أجل إرساء حكم القانون، ودفع القانونيون ثمنه فيما عرف باسم «مذبحة القضاة».

وقد ظل القانونيون المصريون حراسًا على تقاليد الحياة الديمقراطية حتى انزاحت عنه حكم العسكر الدكتاتورى، فكانت تلك اليقظة المذهلة لحكم القانون، بعد أن ظن المصريون أنه أصبح فى ذمة الماضى.

وقد أثبت القانونيون بتلك المعركة من أجل حقوق الإنسان أنهم جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية، وأكثر من ذلك أنهم الحراس الطبيعيون للقانون، الذين يذودون عنه بالهمم والأرواح والمناصب!

ولكن متى نشأ النظام القضائى المصرى، وكيف؟

هذا ما أراد المستشار محمد فتحى نجيب، رئيس المحكمة الدستورية أن يجيب عنه فى كتابه القيم الذى أصدرته مكتبة الأسرة مؤخرًا فى سلسلة الأعمال الخاصة. وقد أهداه إهداء عاطفيًا «إلى الانسان المصرى، الذى امتزج إشراق الوجود عنده بجوهر العدل - فجعل فجر الحضارة فجرًا لضمير الإنسانية، وأنشودة لتألق العدل، ثم جعل الناى الحزين رمزًا للأمل فى عودة العدل إذا خبا فى غمرة الظلام تألقه!».

والكتاب من الكتب المهمة التى يجب على كل مثقف أن يقرأه، بل يكون مادة تدرس فى المدارس الثانوية، إرساء لفكرة اقتران الحضارة المصرية بالعدل من قديم الزمان.

ويحضرنى هذا الصدد ذلك الصدام الكبير الذى وقع بين سعد زغلول وبين المستر برسيفال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية فى يوم ٧ فبراير ١٩١٩ - أى قبل شهر واحد من اندلاع ثورة ١٩١٩عندما أعدت الجمعية السلطانية للاقتصاد والتشريع اجتماعًا فى دارها وذلك بسماع المحاضرة الثانية للمستر برسيفال عن مشروع قانون العقوبات الذى وضعته لجنة الامتيازات. وقد حضرها سعد زغلول وفى رفقته كبار رجال الوفد والقانون والقضاء والمحاماه. وكان القانون مبنياً على أسس الحماية البريطانية التى فرضت على مصر فى عام ١٩١٤.

فلم يكن المحاضر ينتهى من خطبته، حتى وقف سعد زغلول يبدى تعجبه لما ذكره المحاضر من أنه يريد أن يكون لمصر شرع خاص! وإنى أقول لحضرته إن هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد! إن أمتنا المصرية ليست من قبيل الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة، وإنما هى بلد له حياة عريقة فى القوانين والشرائع.

كان سعد زغلول يعرف أن الأمة المصرية ليست من قبيل الهمج، وأن لها حياة عريقة فى التشريع بحكم دراسته القانونية. ومن الضرورى أن يعرف كل مصرى هذه الحقيقة، وأن يعرفها منذ أيام الدراسة، ولعل هذا ما أراده المستشار محمد فتحى نجيب بكتابه القيم عن «التنظيم القضائى المصرى» الذى سوف نطل عليه إطلالة سريعة.

(١٢٢)
المستشار محمد فتحى نجيب والتنظيم القضائى المصرى (٢)

عندما هاجم سعد زغلول المستشار الإنجليزى «برسيفال»، وقال له إن مصر ليست من قبيل الأقوام الهمج، وأن لها حياة عريقة فى التشريع والقوانين. كان يعبر عن حقيقة تاريخية! وقد دلل عليها المستشار فتحى نجيب فى كتابه القيم : «التنظيم القضائى فى مصر» الذى صدر فى مكتبة الأسرة هذا العام.

ولقد قسم المستشار محمد فتحى نجيب كتابه إلى قسمين : القسم الأول، ـ وهو ينقسم إلى بابين ـ استعرض فيه القضاء المصرى عبر التاريخ. وقد تناول فيه العهد الفرعونى (٣٢٠-٣٢٢ قبل الميلاد) والعهد البطلمى (٣٢٢-٣٣٠ قبل الميلاد)، ثم العهد الرومانى (٣٠ قبل الميلاد إلى ٦٤١ ميلادية) ثم العهد الإسلامى، وأخيراً العصر الحديث . وقد تعرض فيه لنشأة القضاء المختلط ، ولإنشاء المحاكم الأهلية والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية والملكية.

أما الباب الثانى، فقد تناول فيه المستشار محمد فتحى نجيب التنظيم القضائى الحالى فى مصر بتفصيل مهم للغاية. فقد تحدث

عن المبادئ التى يقوم عليها . نظامنا القضائى فى مصر، وأوجز هذه المبادئ فى مبدأ التقاضى على درجتين ، وفى وجود محكمة عليا لتصويب الأحكام ، هى محكمة النقض . ثم مبدأ علانية الجلسات ، ومبدأ شفوية المرافعة، والمرافعة المكتوبة ، ومبدأ طلب التقاضى، بمعنى عدم جواز مباشرة القضاء مهمته إلا بناء على طلب من المختصم أو طلب النيابة العامة. ومبدأ المواجهة بين الخصوم، أى مباشرة المحاكمة فى حضور الخصوم، بما يعنى ضرورة تمكين المتهم من حضور إجراءات التحقيق النهائى ، ثم مبدأ الشرعية الجنائية المهم، الذى يقرر أنه لا جريمة ولاعقوبة إلا بناء على قانون ، وأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، وهو أصل من حقوق الإنسان ، وما يترتب على ذلك من ضمان الحماية الشخصية للمتهم ، وإعفاء المتهم من إثبات براءته.

ويقول المستشار محمد فتحى نجيب إن هذه المبادئ الأساسية للتنظيم القضائى المصرى تشكل الركائز التى يقوم عليها البنيان المعنوى للقضاء المصرى، أو هى - بتعبير آخر - ، طبيعة الروح الذى تنبعث منه حيويته، وينطلق إلى مساره فى تحقيق العدل.

ولكن إلى جانب هذه المبادئ يوجد هناك العديد من القواعد الأصولية والتقاليد التى أرساها قضاؤنا المصرى فى صورته الحديثة، والتى ترجع إلى قرن مضى! وهذه القواعد مقنن بعضها فى التشريع.

أما التقاليد فقد أرستها أجيال من رجال القضاء المصرى، الذين تعلقت أرواحهم بفكرة العدل فى مدلولها المطلق، فبذلوا وتفانوا فى

البذل، وكان بذلهم وعطاؤهم من حياتهم وأرواحهم وأجسادهم، فوهنت الأجساد وما وهنوا عن الحق! وانتقلت الأرواح إلى بارئها وبقيت الجذوة التى أشعلوها كيانًا للقضاء المصرى فى حيرته وترفعه واستقلاله، لا تخبو، ولن تخبو ، لأن أجيالا بعد أجيال تذود، وستذود عنها كما زاد الأولون!

(١٢٣)
أزمــة التلحيــن

أليس من الغريب أن جميع الأصوات الغنائية الجديدة التى تظهر فى مصر، أو فى البلاد العربية، تعتمد على التلحين المصرى، والأصوات الغنائية المصرية القديمة، لكى تبرز قدراتها الفنية؟! فإذا نجحت، وأرادت الاستقلال والغناء بتلحين جديد، سقطت أغانيها، أو لم يكتب لها النجاح الذى كانت ترجوه.

أليس هذا معناه أن التلحين الفنى الأصيل الذى يبرز قدرات المغنى أو المغنية، قد انتهى اليوم وأم كلثوم وأسمهان ونجاة على ونجاة الصغيرة وليلى مراد ، وبليغ حمدى ومحمد الموجى وغيرهم من الفنانين العظام الذين أثروا حياتنا الفنية، وكانوا علامة على أزدهار الفن الغنائى فى مصر، بل كانوا علامة على عصر مجيد ترك بصمته فى حياتنا الفنية.

نعم مازلنا إلى اليوم نعتمد على هذا التراث الفنى العظيم إذا أردنا أن نستمع إلى فن أصيل! فمنذ بضعة أعوام كنت أستمع من المسجل إلى السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، وعندما انتهت إذا بأغنية لفريد

الأطرش تذاع فى الراديو ، وكانت أغنية : عينى بتضحك وقلبى بيبكى» فما شعرت بأننى سقطت من حالق، وإنما كان الانتقال طبيعيا من فن أصيل إلى فن أصيل!

ومنذ بضع سنوات استمعت إلى مطربة سورية أو لعلها لبنانية تسمى «أمل رعد» . كانت تغنى لأم كلثوم ، وقد غنت وصلتين كاملتين دون أن يبدو على صوتها أى إجهاد أو تأثر بما يقلل من جمال صوتها. ولم أسمعها بعد ذلك لأسباب خفية، وقد سألت نفسى: هل لو كانت «أمل رعد» هذه قد غنت لملحن حديث، هل كنت أذكرها كما أذكرها اليوم وكانت الإجابة بالنفى! فالتلحين الحالى تلحين استهلاكى لجمهور مختلف عن الجمهور الذى عاش العصر الذهبى للتلحين والغناء.

بل من الغريب أن هذا الكلام ينطبق على تلاوة الذكر الحكيم! فمازال المقرءون الجدد يعتمدون على تلاوة الشيخ محمد رفعت ومصطفى إسماعيل والطبلاوى وعبد العظيم زاهر وغيرهم ممن نقلوا تلاوة القرآن الكريم إلى مرتبة سماوية!

هل معنى هذا الكلام، أن الفن الغنائى الأصيل قد نضب أو أفلس؟

بالنسبة لى فقد حكمت بإفلاسه ، ونقلت أذنى إلى الموسيقى الكلاسيكية والأوبرا، وأرحت نفسى، فإذا أردت استمتاعًا فنيًا يخفف من مشاغلى الفكرية، فهناك بيتهوفن أو برامز أوسان صانز أو تشايكوفسكى، أو رحمانينوف! وهناك فى الأوبرا ڤيردى أو «بونكيللى»،

أو جلوك أو «بوتشـينى» أو «روسـينى» أو «بيـزيه» أو غـيـرهم من الموسـيقـيين الخـالدين! إن الهـرب إلى الفن الأصيل حمـاية للأذن من الدمار! فرحمة الله على التلحين!

(١٢٤)

المثلث الذهبى للثقافة!

عندما يكتب تاريخ مصر الثقافى؛ سوف يثبت بطريقة حاسمة أنه إذا كان عصر مبارك يعد العصر الذهبى للثقافة فى مصر، فإن الفضل فى ذلك يعود إلى تصدى السيدة سوزان مبارك لرعاية الثقافة فى مصر، بكل مالها من ثقل كبير، وإلى وجود فنان كبير على رأس وزارة الثقافة وهو الفنان فاروق حسنى، ووجود مثقف مهم على رأس هيئة الكتاب، هو الدكتور سمير سرحان!

إننى أزعم أنه بدون وجود هذا المثلث الذهبى العاشق للثقافة، وعلى قمته السيدة حرم رئيس الجمهورية، ما كان للكتاب المصرى أن يسترد عرشه ويحظى بالمكانة الرفيعة التى يحظى بها اليوم، بفضل مشروع القراءة للجميع، ومشروع مكتبة الأسرة، ومعرض الكتاب الدولى.

وللتدليل على ذلك فإن الكتاب المصرى، قبل هذه النهضة العظيمة، كان قد تخلى عن مكانته لبيروت، التى انتقلت إليها صناعة الكتاب، وانتقل إليها - بالتالى - المؤلفون المصريون والعرب. فأصبحت عاصمة الكتاب العربى، حتى ظهرت مقولة تقول : إن المصريين يؤلفون الكتاب

واللبنانيين يطبعونه، والسوريين يقرءونه! وقيل كلام كثير عن أن الكتاب المصرى تخلى عن عرشه، وهو بما يعنى أن مصر تخلت عن عرش الثقافة فى العالم العربى!

وقد ترتب على ذلك أمر خطير ، هو أن البيت المصرى خلا من الكتاب، بعد أن أصبح سعره يفوق قدرة المثقف المصرى العادى! فالكتاب بالنسبة لناشرى بيروت والناشرين المصريين هو مجرد سلعة تجارية، على المنتج أن يجنى منها أكبر قدر من الربح! ولايدخل فى تقديره الرسالة الثقافية، والتى هى أصلا مسئولية وطنية وقومية!

ولم تكن إمكانات هيئة الكتاب قبل تصدى السيدة سوزان مبارك لرعاية الكتاب تمكنها من أداء رسالتها الوطنية والقومية كاملة، بل أن ميزانيتها كانت لا تكاد تكفى لأداء رسالتها الأصلية!

وقد كان فضل السيدة سوزان مبارك أنها أعطت إمكانات مادية هائلة لهيئة الكتاب لتقوم بمشروعاتها الثقافية المتمثلة فى مشروع القراءة للجميع ومكتبة الأسرة. وكان من حسن الحظ أن على رأس هيئة الكتاب إدارى قدير لا يعرف اليأس ، وهو الدكتور سمير سرحان! فبنفس إمكانات الهيئة الإدارية وبدون حاجة لمضاعفتها، وبحسن الإدارة، أمكنه القيام بعبء لا تقوم به إلا الدول الكبرى فى مجال صناعة الكتاب!

وهذا ما يشعر به المرء عندما يدخل هيئة الكتاب! إذ يشعر على الفور بأنه داخل مصنع ضخم لا يكف عن الحركة والإنتاج ، وهو مصنع

لا مثيل له فى مصر أو فى أية بقعة من العالم العربى، وكل من فيه متحمسون لأداء رسالتهم الثقافية.

والمهم هو أن الدكتور سمير سرحان لم يكتف بإهداء القارئ المصرى والمثقف العربى، كتابًا مفيدًا، رخيص الثمن ، بل كانت قفزته الكبرى هى الموسوعات الضخمة ، التى لا تقدر عليها غير دور النشر الكبرى. وبسعر زهيد! .

وقد كانت حصيلة هذا العام هى موسوعة قصة الحضارة «لويل ديورانت» ، التى كنا ونحن شباب نحفى للحصول على مجلد واحد منها! فأصبحت اليوم كاملة فى سوق الكتاب المصرى، وتتكون من ٢١ جزءا! وإلى جانبها كتاب الأغانى للأصفهانى ، ويتكون من ٢٤ جزءا! ودولة الإسلام فى الأندلس لمحمد الله عنان، ويتكون من ٨ أجزاء ، والسيرة النبوية العطرة، وتتكون من ١٨ جزءا، «ورجال ونساء ، أنزل الله فيهم قرآنًا»، وموسوعة سليم حسن عن مصر القديمة!

هذه الأعمال العملاقة ما كان يمكن ظهورها للنور بتلك الأسعار الزهيدة فى أى عهد من عهود مصر الحديثة، لولا رعاية السيدة سوزان مبارك، على رأس هذا المثلث الثقافى الذهبى، الذى يتكون من الوزير الفنان فاروق حسنى والدكتور سمير سرحان. فإليهم جميعا تحية الشعب المصرى وتقديره.

(١٢٥)

بين زكى نجيب محمود وعاطف العراقى!

مظاهرالوفاء فى حياتنا العلمية من أنبل المظاهر التى توضح فى جلاء عراقة شعبنا وعظمة علمائنا، وأنهم لم يتأثروا بكل المحاولات التى يقوم بها البعض لتقويض البنيان الجامعى بحجة الإصلاح.

فمنذ أشهر قليلة أقام تلامذة الدكتور عبادة سرحان حفلا لتكريم أستاذهم فى فندق بيراميزا، وقبل ذلك أقامت لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة احتفالية بالمجلس لتكريم رائد الدراسات البطلمية الدكتور إبراهيم نصحى، أعقبها احتفالية بأستاذ عظيم هو الدكتور حسن حبشى أستاذ تاريخ دراسات العصور الوسطى، واللجنة بصدد إقامة احتفالية بالأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور رائد دراسات العصر الوسيط، تعقبها احتفالية بالأستاذة الدكتور سيدة إسماعيل كاشف أستاذة التاريخ الإسلامى. وهكذا تتوالى مظاهر الوفاء فى الحقل العلمى.

ومنذ أيام تلقيت مظهرًا جليلاً من مظاهر الوفاء من الأستاذ الدكتور عاطف العراقى يتمثل فى كتاب تذكارى ضخم عن المفكر الكبير الدكتور زكى نجيب محمود، أشرف عليه الدكتور عاطف

العراقى وقام بتصديره، طبع طباعة فخمة في دار الوفاء، تليق بمكانة الدكتور زكى نجيب محمود كمفكر عربى ورائد للاتجاه العلمي التنويرى والكتاب ضخم يقع فى ٨٧٥ صفحة من القطع الكبير، واشترك في تأليفه ٣٣ عالمًا ومفكرًا، آثروه بموضوعات على جانب كبير من الأهمية العلمية، وقد صدره الدكتور عاطف العراقى بكلمة وفاء قيمة حدد فيها مكانة الدكتور زكى نجيب محمود فى حياتنا الفكرية فى عبارة وجيزة قال فيها:

«إننا إذا كنا نقول بأن هرمنا الفكرى والثقافى والأدبى، يمثله عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ، فإنه من الصحيح، بل من الضرورى أن نضم إلى هؤلاء الثلاثة مفكرنا العظيم زكى نجيب محمود.

ذلك أن الدور الرائد والحيوى الذى أداه زكى نجيب محمود لا يقل بأى حال عن أى دور قام بأدائه أعظم المفكرين العمالقة فى أمتنا العربية قديمها وحديثها، ويشهد على ذلك عشرات الكتب التى قدمها لنا، ومئات الدراسات الجادة التى تعالج موضوعات شتى فلسفية وأدبية وفنية واجتماعية إصلاحية، ومئات المقالات التى تعد كل واحدة منها معبرة عن فكرة أو مجموعة من الأفكار التى يتميز بها مفكرنا الكبير.

وتولى الدكتور عاطف العراقى فى تصديره القيم الدفاع عن فكر نجيب محمود ضد مهاجميه دفاعًا علميًا موضوعيًا أبرز فيه عظمة فكر هذا الرائد من واقع أعماله العلمية.

وكان من اللمسات المهمة فى الكتاب السطور التى كتبها الدكتور زكى نجيب محمود عن مسيرة حياته بمناسبة تكريم مجلة المنتدى له فى يوم عيد ميلاده السادس بعد الثمانين، واستعرض فيها حياته منذ كان صبيًا فى العاشرة يحاول حمل القلم، وأخذت الأعوام بعد ذلك تمضى، عقدا من السنين بعد عقد ، والمحاولة الأولى لذلك الصبى لم تزل تلاحقه شابا، ورجلا، وشيخا، ويرى كيف بدأت حفنة من أفكار كبرى تبذر فى قلبه وفى عقله منذ عشرينيات عمره، لفكرة «التقدم» ، وفكرة «الحرية» وفكرة «الهوية العربية» وفكرة «العصر ومقوماته» فكانت حياته بعد ذلك إنماء لهذه الأفكار وإثرائها ، وتحديدها وتوضيحها لنفسه أولا، ولتلاميذه وقرائه ثانيًا، فكتب عنه الكثيرون إنصافًا وإجحافا، وتعددت عنه الأحكام، وهو يتلقى أحكامهم شاكرًا ومقدرًا .. إلى آخره.

والكتاب التذكارى عمل ضخم بكل المعايير ، تصدى له الدكتور عاطف العراقى بكل ما فيه من وفاء، كما تصدى من قبل لرواد آخرين مثل يوسف كرم، وهو جدير بأن يمثل مكانًا مرموقًا فى المكتبة العربية، ومكتبات الكليات والجامعات المصرية والعربية.

(١٢٦)

مسلسلات رمضان وعقل المشاهد

تحزننى كثيرًا الجهود الفنية التى يبذلها الممثلون والمخرجون المصريون فى مسلسلات تافهة لا تحترم عقل المشاهد، وتتكلف نفقات باهظة يدفعها الشعب المصرى من «اللحم الحى»!

لقد كتبت مرارًا أنبه إلى أزمة النص فى بلدنا . وقلت إن النص هو أساس كل عمل جيد وبدون نص محترم فإن أى عمل يسقط لا محالة، ولا ينفع فى إنقاذه نور الشريف أو محمود مرسى أو إلهام شاهين أو ليلى علوى أو أى ممثل وممثلة مهما بلغ قدره!

وهو ما يحدث أيضًا فى الأفلام الأجنبية! فكثير من الأفلام سقطت على الرغم من أن الذين قاموا بأدوارها ممثلون كبار! وذلك بسبب ضعف النص!

وفى مصر فإن ضعف النص يؤثر على تقبل المشاهد لتمثيل الفنانين! لأنه يفقد الأدوار مصداقيتها، فيبدو كما لوكانت من نوع أدوار «المقالب» التى تعرضها بعض القنوات الفضائية فى شهر رمضان لتسلية وإضحاك المشاهدين!

فلقـد كنت أشـاهد برنامـجًا نـاجـحًا فى قناة الـ أم . بى . سى بعنوان: «لا تفهمونا غلط» ويقوم على خداع الفنان الذى يستضيفه البرنامج ثم شاهدت بعد ذلك حلقة من مسلسل «عائلة الحاج متولى» الذى يقوم بدور البطولة فيه الفنان الكبير نور الشريف . فما أحسست بفارق بين البرنامجين ، وما صدقت الدور الذى يقوم به نور الشريف ، بل خيل لى أنه نوع من أدوار برنامج «لا تفهمونا غلط»! مع فارق كبير هو أن البرنامج الآخر لا يخدع المشاهدين، فهم يعلمون أن مقدمى البرنامج يخدعون الضيف من أجل الإضحاك، ولكن مسلسل «عائلة الحاج متولى» يخدع المشاهدين بأدوار يحاول إيهامهم بأنها أدوار مقنعة ، مع أن العقل يرفضها رفضًا باتًا.

وإن المسلسل اختار القرن التاسع عشر زمنا لأحداث المسلسل القائم على تعدد الزوجات ، لتقبله عقل المشاهدين أما وهو يختار القرن العشرين - الذى أصبح تعدد الزوجات فيه مدانًا فى نظر المجتمع المصرى - مسرحًا لأحداثه ، فإنه بذلك يستعبط المشاهدين! ولكن المشاهدين اليوم ليسوا عبطاء!

ولعل المؤلف التقط قضية صاحب محلات «التوحيد والنور» السيد السويركى ، ليقيس مسلسله على منوالها، ولكن هذه قصة أخرى! والمهم هو أن كاتب السيناريو مصطفى محرم يسقط فى هذا المسلسل بقدر نجاحه فى مسلسل «لن أعيش فى جلباب أبى» فكأنه عوض النجاح بالفشل!.

وكذلك الحال في مسلسل «بنات أفكارى» لمحسن زايد فقد بدأ بداية جيدة، ثم أخذت تهتز شخصياته وتتضاءل ، وراح يتوه أو يتوه معه المشاهدون! وكذلك الحال فى كثير من المسلسلات الأخرى، التى تفتقد النص الجيد، فتسقط!

ولست أدرى لماذا لا يلجأ مخرجو هذه المسلسلات إلى النصوص الأجنبية، القريبة أحداثها من البيئة المصرية، فيمصرونها ، ويبنون عليها مسلسلات ذات مواضيع هادفة، بدلا من المسلسلات العبيطة التى قدمت فى شهر رمضان؟ فلقد فعلت ذلك ليلى مراد فى فيلمها الرائع «ليلى» الذى اقتبسته من أوبرا فيردى الشهيرة «لاترافياتا» ، فنجح نجاحًا باهرًا! وقدم عبدالوهاب أعمالا أخرى مقتبسة مثل فيلم «ممنوع الحب» أقتباسًا من قصة روميو وچوليت، وفعل ذلك آخرون عند الافتقار إلى النص الجيد. مثل «الإخوة الأعداء» نقلا عن الإخوة كارامازوف «إلى آخره»!

والمهم هو احترام عقل المشاهد بنصوص جيدة، مهما كان الثمن! ولكن يبدو أن احترام عقل المشاهد فى هذا الزمن هو آخر ما يفكر فيه مخرجو مسلسلات رمضان!

(١٢٧)

علماء كبار أخطأتهم جوائز الدولة!

كانت للسياسى الإنجليزى الكبير الداهية دزرائيلى فلسفة يقول فيها إنه إذا عجز عن التفوق على منافس له، فإنه ينمالى عليه! وبطبيعة الحال فإنه لا يتعالى عليه فى قرارة نفسه ، ولكنه يتظاهر بذلك لإخفاء عجزه أمام نفسه، وأمام الآخرين!

وكثيرون يلجئون إلى هذه الطريقة! وينجحون فى كثير من المجالات، ولكنهم لا ينجحون فى المجال العلمى، لسبب بسيط، هو أن المجال العلمى ليس مجالاً سريًا، وإنما هو مجال مكشوف بالضرورة، يتمثل فى مجموع الأعمال العلمية التى أنجزها العالم فى حياته، والتى صدرت فى كتب علمية وفكرية.

ومن هنا فالكثيرون يلجئون إلى اختلاق أعمال ذات عناوين ضخمة، فإذا فحصها المرء تبين أنها أعمال تافهة لا قيمة لها!

ويظهر ذلك جيدا لأعضاء المجلس الأعلى للثقافة، عندما يفحصون أعمال المرشحين لجوائز الدولة التقديرية، فيفاجئون بقائمة أعمال بعض المرشحين تحتل عشرين وثلاثين صفحة، فإذا فحصوها تبينوا أن معظمها غثاء! ومجرد عناوين! وتحايل على الفاحصين!

ومن سوء الحظ أن الكثير من الجهات التى من حقها الترشيح لجوائز الدولة التقديرية تستهين بالمسئولية المسندة إليها، ويغلب فى ترشيحاتها المجاملة والوساطات والأهواء الشخصية والمصالح! فيضاعفون من أعباء أعضاء المجلس الأعلى للثقافة، الذين قد يقعون أحيانًا فى سوء الاختيار، ويحرمون بذلك مستحقًا من حقه!

ولأن بلدنا هو بلد الفراعنة ، فإن الكثيرين من رؤساء الجهات التى لها حق الترشيح يتصرفون تصرف الفراعنة، ويستغلون نفوذهم فى المجالس فى تغليب اتجاهاتهم وأهوائهم الشخصية على الاعتبارات الموضوعية، وهذا حقهم، ولكن لماذا يخضع الأعضاء، وكلهم كبار؟

إن السبب يرجع إلى غياب الديمقراطية! فالكل معينون، وهم يدينون بالفضل فى تعيينهم للرئيس الذى يرشح أسماءهم للتعيين.. ولكن الغريب أنه حتى فى المجالس المنتخبة تتغلب العادة الفرعونية، فتصبح رغبات الرئيس (أقصد الفرعون) أوامر ، على حساب الضمائر وانعدام الخوف من الله!

منذ بضعة أشهر أبديت تعجبى فى لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة من أستاذين عظيمين وعلمين من أعلام التاريخ الإسلامى الإسلامى ، وهما الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف والدكتور حسن حبشى ، لم ترشحهما إلى اليوم جامعة من الجامعات المصرية لجائزة الدولة التقديرية، أو أية هيئة من الهيئات التى لها حق الترشيح!! وتعجبت لتجاهلهما ، وتذكر أسماء لا إسهام يذكر لها فى المجال العلمى! وتساءلت: إذا كان المؤرخون أصحاب التخصص يتجاهلون

أساتذتهم لأسبابهم الشخصية، فهل نطلب من كليات الهندسة أو الطب ترشيح هؤلاء المؤرخين؟

ولكن هذا الكلام أزعج الذين يعتنقون فلسفة دزرائيلى سالفة الذكر ، وتناسوا الأعمال العلمية الكبيرة التى قدمها المؤرخان الكبيران، وأصروا على البحث فى الجحور!

وعندما تتنازل الهيئات العلمية عن مسئولياتها، وتغلب أهواء رؤسائها، فلا نلوم الذين يتحدثون عن تدهور المستوى العلمى فى جامعاتنا، لاختفاء القدوة، بصعود الأدنياء فى العلم، إلى القمة، ونزول العلماء الحقيقيين فى زوايا النسيان! وهو ما يهدر قيمة الجوائز العلمية الرفيعة ، لأنه إذا حصل عليها الأدنياء فقدت قيمتها بالضرورة، ولم تعد مصدر فخر للعلماء.

(١٢٨)

سيمفونية حديث الصباح والمساء!

لم أكن مخطئًا عندما قلت فى مقالى عن مسلسلات رمضان إن النص هو الأساس فى نجاح أى مسلسل. فلدينا الممثلون الكبار، ولدينا المخرجون المهمون، ولدينا جميع الوسائل التى يمكن أن تنتج مسلسلاً جيدًا، ولكن ليس لدينا النص الجديد! فتكون النتيجة أن هذه المسلسلات تخرج كفقاعات فى الهواء، يتسلى بها المصريون، ولكنها تتبخرمن الأذهان فور أن تنتهى، وكثير مما يبقى يضر أكثر مما ينفع، ويؤثر فى المجتمع تأثيرًا سلبيًا!

وقد جاء مسلسل حديث الصباح والمساء المأخوذ من قصة أديبنا الكبير نجيب محفوظ ليثبت هذه الحقيقة، فالنص هنا لأديب كبير استوعب تاريخ مصر فى ذهنه، والسيناريو لسيناريست كبير عشق أدب نجيب محفوظ، وهو محسن زايد الذى سبق أن كتب سيناريو الحرافيش وكتب سيناريو عدة مسلسلات ناجحة ، وقدنسج من خيوط قصة نجيب محفوظ نسيجًا جديدًا رائعًا يعتبر فى حد ذاته إضافة ، بلورت فلسفة نجيب محفوظ فى الحياة والموت، وتنافس فى المسلسل جميع الممثلين بلا استثناء الذين شدهم الإطار الاجتماعى

التاريخى الذى تدور فيه الأحداث، والذى يبدأ من الثورة العرابية وقد أتاح للفنانة عبلة كامل أن تلمع كما لمعت فى مسلسل «لن أعيش فى جلباب أبى» فهذه الأدوار تلائم مواهب هذه الفنانة أكثر مما تلائمها أدوار بنات الذوات فى مسلسل هوانم جاردن سيتى . ولذا يعتبر المسلسل إضافة لأعمال المخرج القدير أحمد خضر جديرة بالاحترام والتقدير.

والمهم فى هذا المسلسل ما يقدمه من نماذج لحياة مجتمعنا فى عصر مضىء كانت تحكم فيه المجتمع أعراف وتقاليد وأصول ، ضاعت اليوم مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية بالتالى - التى طرأ على المجتمع المصرى منذ ثورة يوليو ، التى هدمت هذه الأعراف والتقاليد، ولم تبن مكانها شيئا ، فأصبح المجتمع المصرى اليوم تائهًا متخبطا حافلا ببثور متقيحة لأبناء يقتلون آباءهم أو أمهاتهم! وزوجات يقتلن أزواجهن بالاتفاق مع بناتهن وأسر تفككت وتمزقت إربًا إربًا! وقيمًا ضاعت وحلت محلها قيم الانفتاح المادية الشرهة التى لا ترعى خلقًا ولا دينًا.

كان اختيار المخرج أحمد خضر للممثلين الذين قاموا بالأدوار اختيارًا جيدًا؛ وإن أخطأه التوفيق فى اختيار من قام بدور سعد زغلول فلو كان سعد زغلول كما ظهر فى الصورة التى عرضها المسلسل لما قاد ثورة ١٩١٩! لقد كانت شخصية سعد زغلول شخصية هائلة استطاعت أن تقف فى وجه كرومر وجورست وونجت واللنبى ولويد وغيرهم من

أساطين الاحتلال البريطانى، وكان ظهوره أمام الجماهير كفيلا بإلهاب حماستهم ودفعهم إلى الاستشهاد فى سبيل الوطن!

كم وددت أن نرى فى المستقبل مسلسلا عن سعد زغلول يكتبه كاتب ألمعى مثل محفوظ عبدالرحمن! شريطة ألا تتغلب عليه نزعته الناصرية التى تفسد بعض أعماله!

(١٢٩)

حريم الحاج متولى!! (١)

أثار مسلسل عائلة الحاج متولى قضية قديمة جديدة هى : هل الفن للفن أو الفن للحياة؟ فقد أستمتع المصريون طوال شهر رمضان بأحداث مسلسل مخدوم فنيا إلى حد كبير ، يقوم به ممثلون محبوبون على رأسهم الفنان القدير نور الشريف، وكان محل تعليقهم فى الإجتماعات الخاصة والعامة وعلى شاشات التليفزيون ، ولكن هذا الاستمتاع انتهى بإنتهاء المسلسل، وبحث المصريون فى عقولهم عما بقى من المسلسل يفيد حياتهم ، فلم يجدوا غير التخريب والفوضى!

لقد حطم المسلسل إنجازات كفاح المرأة المصرية طوال ثلاثة أرباع القرن العشرين من أجل الحد من تعدد الزوجات، ومن أجل مساواة المرأة مع الرجل فى الحقوق والواجبات، ومن أجل تحول الزوجة من خادمة تكد وتكدح من أجل إرضاء الزوج وإشباع شهواته، إلى شريكة حياة تقاسمة المسئولية من البيت ومن فيه من أبناء، وتساعده فى مواجهة أعباء الحياة.

وبعد أن كانت المرأة المصرية قد استردت كرامتها كشريك حياة، حولها المسلسل إلى أداة مسلوبة الإرادة والكرامة، تعيش بلقمتها وبما

يوفره زوجها لها من رغد العيش، ولا تملك شيئًا لأن كل شىء يملكه الزوج فى البيت ، فإذا اعترضت على شىء ، أو أرادت الوقوف فى وجه رغبة الرجل الاستزادة من الزوجات ، خيرها الزوج بين الإذعان أو الطلاق!

وفى كل ذلك فالزوج يستغل اسم الإسلام فى إرضاء شهواته ، ويدعى أن ذلك هو ما يبيحه الإسلام! وهو كذب صريح، لأن الرسول عليه السلام لم يتزوج على خديجة حتى ماتت . وكانت زيجاته الأخرى لها ما يبررها من سياسة وحكمة، ولم تكن تنطلق من إرضاء الغرائز. وقد عالج هذه القضية الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه الفذ «حياة محمد».

وبعد أن تخلصت المرأة المصرية من عصر الحريم بقيام ثورة ١٩١٩، أعاد المسلسل عصر الحريم! وأصبح حريم الحاج متولى مصدر تفكهة للشعب المصرى، وينبوع تسلية طوال شهر رمضان!

وبفضل الصورة البراقة لحريم الحاج متولى ، تفجرت الرغبات فى رءوس الكثيرين من الحمقى والجهلاء الذين شاهدوا المسلسل، وأصبح مثلا أعلى يصبو إليه كل من شوه المسلسل عقله وتفكيره، ويتصور نفسه وسط هذه الباقة من الممثلات الجميلات اللاتى أختارهم المسلسل بعناية لإسالة لعاب المشاهدين، واللاتى يتسابقن على الحصول على موطئ قدم فى «جدول ليالى» الحاج متولى!

هذا كل ما بقى فى ذهن الشعب المصرى من مشاهدة مسلسل استمر عرضه طيلة شهر رمضان، وهو ما يطرح من جديد قضية، هل الفن للفن أو الفن للحياة؟

(١٣٠)
حـريم الحـاج متولـى!! (٢)

كان فى وسع مسلسل حـريم الحاج مـتولى أن يتـفادى الكثـير من سهام النقـد، لو أنه صاغ القصـة فى صورة رسـالة اجتمـاعية لتطوير المجـتمع إلى الأمـام بوسـيلتـين : الأولى أن يرجع بزمن أحـداثه إلى القـرن الماضى أو أوائل هذا القـرن! والوسـيلة الثـانيـة أن يصـوغـه فى شكل كوميـدى يسخـر من عصـر الحـريم، ومن تسلط الرجل على حيـاة الأسـرة وعلى أقدارهـا ، وعلى إرادة المرأة!

ولم يكن ذلك ليخل ببنائه الدرامى! فصـورة التـاجـر المزواج التى رسـمهـا المسلسل وقـام بهـا الفنـان القـدير نور الشـريف ، كانت موجـودة حـتى أوائل هذا القـرن ، ولكن التطور الاقـتـصـادى والاجـتمـاعى الذى حـدث فى مـصـر كنتيجـة التطور عـلاقـات الإنتـاج، غيـر هـذه الصـورة بشكل إيجـابى لصـالح الأسـرة وأمنهـا واسـتـقـرارهـا، ولصـالح العـلاقـة الزوجـيـة، التى لم تـعـد مـجـرد عـلاقـة جنسـيـة وإرضـاء شـهـوات، وإنما أصبـحت عـلاقـة مشاركـة تقوم على اقتسـام المسئوليات والأعبـاء ، بعـد انفـتـاح سـوق العـمل أمـام المرأة، وانفتح باب التـعليم أمـامهـا إلى أعلى الدرجات الجامعية.

ولو أن المسلسل استهدف خدمة المجتمع منذ البداية، وليس الترفيه والتسلية وإرضاء الغرائز، كما وقع فى «المطب» الذى وقع فيه حاليا ، عندما عرض فى وقت كان الرئيس مبارك ينادى بتحديث مصر! ويكلف جميع المؤسسات العلمية والثقافية والاجتماعية والتشريعية بالعمل لهذه الغاية!

لقد كان تحديث مصر فى نظر المسلسل هو العودة بالمجتمع المصرى إلى القرون الماضية حتى القرن العشرين، والعودة بالرجل المصرى، الذى تطور سلوكه وتفكيره مع تطور علاقات الإنتاج إلى نمط الرجل المصرى حتى أوائل القرن العشرين والعودة بالمرأة المصرية، التى حصلت على معظم حقوقها فى التعليم والعمل والوظائف وغيرها، إلى نمط المرأة المصرية حتى أوائل القرن الماضى، وإلى وظيفتها التى حددها المسلسل وهى إشباع شهوات الرجل فى مقابل لقمة العيش ورغده!

أما الأسرة، المصرية، فبدلا من ارتقاء المسلسل بصورتها إلى صورة الأسرة المتكاتفة المترابطة التى يسودها الوفاء والإخلاص، فإنه حولها إلى أسرة ممزقة، متعددة الزوجات، ومتعددة الولاءات، تخلى فيها الأب عن واجباته الأخلاقية فى تربية الأبناء ليتفرغ لإرضاء رغباته وشهواته! فهل كانت هذه هى مساهمة المسلسل فى تحديث مصر!

(١٣١)

حـريم الحـاج متولـى!!(٣)

منذ زمن ليس بالبعيد كانت صورة مصر فى نظر الغرب هى صورة البلد الذى تسير فى شوارعه الجمال، وليس أحدث أنواع السيارات! وكانت صورة النيل هى صورة النهر الذى تسبح فيه التماسيح! وكانت صورة البيت المصرى هى التى كانت سائدة فى عصر الحريم.

ومع تطور وسائل الإعلام المرئى، وشيوع الدش فى كل بيت فى الغرب، وإقبال الطبقة الوسطى فى الغرب على الرحلات إلى الخارج، تغيرت هذه الصورة تدريجيًا، ولكن صورة البيت المصرى ظلت غامضة، بسبب التقاليد، حتى جاء مسلسل «حريم الحاج متولى» الذى اهتم به الغرب للأسف الشديد ليؤكد الصورة القديمة عن عصر الحريم، وأن كل التقدم الذى حدث فى البيت المصرى هو تقدم فى الأزياء والأثاث، ولكنه ليس تقدمًا فى السلوك والعادات والتقاليد! وأن وضع المرأة المصرية اليوم هو نفس الوضع الذى كان سائدًا فى القرون الماضية!

ومن سوء الحظ أن الغرب يعتبر وضع المرأة فى أى مجتمع مقياسًا لتطور هذه المجتمع ونهضته، وانفتاحه أو انغلاقه! ويعتبر

مساواة المرأة بالرجل مقياسًا لمكانتها فى المجتمع، ومعيارًا لرقيه أو تخلفه.

وهو مقياس صحيح! فإذا كانت المرأة تساوى الرجل فى حق التعليم إلى أعلى الدرجات، وفى العمل والوصول فى الوظائف إلى الوزارات. وإذا كانت قد أصبحت طبيبة ومهندسة ومحامية، وأستاذة جامعية، وعميدة كليات ورئيسةجامعات ـ فما هو معنى أن يصبح وضعها فى البيت أدنى من وضع الرجل؟

وما هو معنى الصورة الزائفة التى رسمها مسلسل حريم الحاج متولى للزوجة المصرية كإنسانة مسلوبة الإرادة فى البيت، يمارس الزوج عليها حق «الفيتو» باستمرار. ووضعها فى البيت لا يعدو وضع أى مقتنٍ من مقتضيات الحاج متولى؟ فإذا استدعاها الحاج متولى للفراش كان ذلك وفقًا لجدول المتعة الذى أعده الحاج متولى! وإذا رغبت هى فى الفراش حال دون تلبية هذه الرغبة جدول الحصص! وعليها الانتظار حتى يحين اليوم المخصص لها فى الجدول!

وفى الوقت نفسه فهى لا تملك شيئًا، لأن كل شىء ملك للحاج! والحاج يتشدق فى كل مناسبة وظرف بأنه يطبق تعاليم الإسلام! ومع أن الإسلام يحض على التعليم فإن الحاج يحرم ابنه من الالتحاق بالجامعة بحجة إدخاره لإدارة أعماله! متناسيًا أن التعليم العالى يزيد من قدره ابنه على إدارة الأعمال! ومتناسيا التطور المهم الذى حدث فى المجتمع المصرى، والذى أصبح بمقتضاه معظم الجيل الجديد من

التجار يحمل درجات جامعية عالية، ولم يعد فيه مكان للجهلاء وأنصاف المتعلمين! ولكن المسلسل يعرض رؤيته المتخلفة لدور التعليم فى الاقتصاد!

(١٣٢)
درس متحف أم كلثوم!

فى أحد أهم المنجزات الثقافية فى عصر مبارك، افتتحت السيدة الجليلة سوزان مبارك منذ أيام متحف أم كلثوم بقصر المانسترلى بالروضة، وهو أحد مشروعات الوزير الفنان فاروق حسنى كان ينتظره الكثيرون، ليس فقط فى مصر بل فى العالم العربى الذى عشق فن أم كلثوم ، ومازالت إذاعاته وقنواته الفضائية تردد صوتها كل أسبوع على الأقل، فضلا عن الأصوات الجميلة الشابة التى بنت شهرتها على أغانى أم كلثوم، ومازال صوت أم كلثوم يمثل المعيار الصحيح للتحكم على جمال الأصوات ونقائها وقوتها!

فى أثناء حضور حفل افتتاح المتحف ذهب ذهنى إلى السؤال القديم الجديد حول بيت أم كلثوم، الذى اختفى من الوجود، وارتفع مكانه برج سكنى لا يفترق فى كثير، وقليل عن الأبراج السكنية المثيلة حوله.

وبرزت إلى جانب هذه الصورة صورة بيوت الفنانين والشعراء والكتاب فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا والنمسا وغيرها من بلاد

العالم الغربى، التى مازالت قائمة وشامخة منذ قرنين أو أكثر من الزمان!

نعم، برزت فى ذهنى صورة بيت بيتهوفن فى «بون» وبيوته فى «ڤيينا» وبيت موزار فى «سالزبورج»، وبيت شكسبير فى «ستراتفورد»، وبيوت أخرى لمشاهير فى العالم الغربى ما زالت باقية على الدهر، ويقبل على زيارتها السياح فى كل عام!

وتساءلت عن سر اندثار بيت أم كلثوم ، وبيوت أخرى لفنانين مصريين أثروا حياتنا الفنية طوال حياتهم، وما كادوا يغادرون الحياة حتى انقض عليها الورثة انقضاض الغربان السوداء، يقوضونها من الأساس ويبنون مكانها بيوتًا عادية على حساب تراثنا الفنى! فما هو السر فى بقاء بيوت مشاهير الغرب إلى اليوم، واندثار بيوت مشاهير مصر اليوم؟

وقلت فى نفسى إنها مسألة تحضر وثقافة، وهى ما يعبر عنه فى الغرب بكلمة: Culture، فالغرب يحافظ على تراثه، لأنه مصدر فخره واعتزازه، ومصدر اقتصاده أيضاً!! ونحن نهدر تراثنا الحديث لأننا لا نعترف إلا بالتراث الإسلامى، الذى كان من حسن الحظ ممثلا فى أبنية ضخمة ليست سهلة الهدم، وإلا لهدمت هذه الآثار الإسلامية اليوم، وبنيت مكانها أبراج سكنية!

ومن سوء حظنا أن معظم فنانينا نشأوا فى بيوت فقيرة، ونبتوا من أصول فلاحية أو عمالية لا تملك شروى نقير، وقد ارتفع هؤلاء بفنهم

إلى ذروة الشهرة، ويبقى الورثة فى السفح ، ينتظرون سقوط الغنيمة! فإذا سقطت ، وواراها التراب؛ لم يكن وراء هؤلاء الورثة من ثقافة تدفعهم إلى الحفاظ على ما خلفه مشاهيرهم من آثار قد تبدو لهم لا قيمة لها، وإن كانت فى نظر التراث الوطنى والقومى فوق كل قيمة مادية، لأنها جزء من تاريخ الوطن! لذلك كم أرجو أن يستعد الوزير الفنان فاروق حسنى من اليوم لمنع تكرار ما حدث لبيت أم كلثوم ، وتحديد بيوت المشاهير التى لا يجوز للورثة التصرف فيها بعد الموت دون الرجوع إلى وزارة الثقافة!

(١٣٣)
سعاد حسنى..ملك من؟

بعد انقضاء مظاهر الحزن على سندريلا الشاشة الراحلة سعاد حسنى، حان الوقت لاقتسام الورثة التركة! وقد يكونون قد تعجلوا كثيرًا، ولكنه حقهم المشروع!

والمشكلة أن هناك أناسًا من البشر يختصهم المولى تعالى بمواهب معينة، ترفعهم فوق الأشخاص العاديين، وتجعلهم مشاعًا للبشرية جمعاء! لسبب بسيط هو أن هذه المواهب لم تخدمهم وذويهم وحدهم، وإنما خدمت البشرية جمعاء! فيصبحون بالتالى ملكا للبشرية جمعاء!

ومما يقرب المعنى فى هذا القول ما قاله الموسيقى العظيم بيتهوفن ردا على سؤال لإحدى السيدات ، التى أطنبت فى مدح عبقريته، وتعجبت من قدرته على خلق تلك الموسيقى العظيمة! فقد اعترض على قولها قائلا:

«إننى لم أخلق هذه الموسيقى ياسيدتى، وإنما خلقها الله فى عقلى، وكان فضلى الوحيد هو فضل الأم التى ولدت طفلها! فهى لم تخلقه ، وإنما ولدته! وكذلك أفعل أنا!

هذا الكلام يعنى أن الموهبة ليست ملكا لصاحبها وليست من صنعه، وإنما هى ملك لله أولا، وقد اختاره المولى لتولد على يديه!

ومن هنا فليس صحيحًا أن الفنان هو ملك للورثة، يتوارثونه كما يتوارثون أى فرد عادى، وإنما هى ملك لله تعالى الذى اختاره وأودع فيه موهبته! وبالتالى هو ملك للوطن، وهو ملك للبشرية جمعاء!

عندما كانت جيوش نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر تجتاح إيطاليا اقتحمت أحد المسارح قوة فرنسية بينما ، كان الموسيقى العظيم «نيكولا باجانينى» يعزف على الكمان إحدى مقطوعاته الخالدة. فتوقفت القوة الفرنسية المقتحمة صامتة! ولم يتوقف باجانينى عن العزف! حتى انتهت القطعة الموسيقية وتوقف باجانينى عن العزف! فصفقت له القوة كما صفق المستمعون، وواصلت بعدها عملها!

فقد خرجت موسيقى باجانينى عن إطار الوطنية الإيطالية إلى العالمية، لأنها لم تكن فى الأصل من خلق باجانينى، وإنما هى من خلق الله، وقد خلقها للبشرية جمعاء وليس للشعب الإيطالى وحده.

ومن هان ففى الحرب العالمية الثانية كانت موسيقى بيتهوفن الألمانى، تعزف فى قاعات الموسيقى فى لندن! فى «الرويال فستفال هول، وفى الرويال ألبرت هول، وفى غيرها من القاعات!

وفى روما أثناء الاحتلال الألمانى لها، كان القادة العسكريون الألمان يستمعون إلى موسيقى «باخ» الألمانى إلى جانب موسيقى ڤيفالدى الإيطالى!

فهؤلاء الفنانون جميعًا هم أبناء الله، وقد اختصهم بمواهب خاصة للبشرية، وبالتالى فهم ليسوا ملك أحد، ولا ملك ورثة، وإنما هم ملك للشعب الذى أنجبهم أولاً، وملك للبشرية التى ينتمون إليها ثانيًا.

ومن هنا فلا نريد تكرار ما حدث بعد موت أم كلثوم مع سعاد حسنى!، فيتحول جثمانها إلى غنيمة للورثة، ولم يكن لهم أى فضل فى صنع الموهبة!!

(١٣٤)

من يرث سعاد حسنى؟!

ماذا يملك الورثة من تركة الفنان؟ هناك نوعان من التركة: تركة عادية مما يتركه أى فرد عادى بعد موته، وتركة اكتسبت قيمة خاصة بسبب شهرته. وعلى سبيل المثال إذ ترك المرء العادى رابطة عنق، فإنها لن تساوى أكثر من ثمن رابطة عنق ـ ورابطة عنق قديمة أيضًا! ـ ولكن إذا ترك الفنان الشهير رابطة عنق فإن قيمتها سوف تتضاعف ألوف المرات وربما ملايين المرات!

ومن هنا فإن أية قيمة مضافة من هذا النوع هى قيمة لا فضل للورثة فيها، وإنما الفضل يعود إلى الشعب الذى قدر موهبة الفنان، ورفعه من مجرد إنسان عادى إلى إنسان غير عادى ومن إنسان بلا مقام إلى أعلى مقام!

فإذا أراد الورثة تقسيم التركة فيما بينهم كما يحدث بالنسبة للأفراد المغمورين ، فإنهم يطالبون بحق لهم لم يكن منهم فضل فى صنعه، وإنما الفضل للجمهور وللشعب الذى رفع الفنان إلى مقام الشهرة! وتؤول التركة من هذا النوع للشعب، بتدخل الدولة!

فالشعب قادر على حفظ تراثه وتراث عباقرته وفنانيه، والورثة قادرون فقط على تبديد هذا التراث لمصلحتهم الخاصة.

على هذا النحو نحقق العدل للورثة من جانب، وللشعب من جانب آخر. فمن حق الورثة أن يرثوا ما تركه قريبهم كإنسان عادى، ومن حق الشعب أن يرث ما اكتسبه الفنان بفضل شهرته. فهذه الشهرة لم يمنحها الورثة للفنان، وإنما الشعب هو الذى منح الفنان هذه الشهرة! وهو صاحب الحق فى وراثة تركة الفنان.

لو كان هذا المفهوم مفهومًا لما تبدد تراث عباقرتنا فى يد ورثة جهلة لا تربطهم بعظيمهم سوى رابطة الدم الواهية التى لم تمنع ابنا من قتل أبيه، وابنا من قتل أمه، أو أبا من قتل ابنه ، وشقيقًا من قتل شقيقه.

فالرابطة التى تربط العظيم بأمته وبالإنسانية جمعاء أقوى بكثير من رابطة الدم، والعلاقة بين العظيم وجمهوره رابطة أخذ وعطاء، ولكن الرابطة بين الورثة والعظيم هى رابطة أخذ من جانب واحد، وانتفاع من طرف واحد، فالورثة يأخذون من شهرة العظيم، ولا يأخذ منهم ، فهو يعيش فى الضوء، وهم يعيشون فى الظل.

ومع كل الاحترام للفنانة الراحلة سعاد حسنى ، فلم يسمع أحد بإسم وريث واحد من ورثتها قبل انتقالها إلى رحمة الله. ولم يعرف منهم «إلا نجاة الصغيرة، لا لسبب إلا أن وضع نجاة الصغيرة هو نفس وضع سعاد حسنى، فهى عظيمة بفنها الذى وهبه الله لهما، وبشهرتها

التى أعطاها لها الجمهور المصرى، وليست عظيمة بأسرتها وقد استفادت منها أسرتها ولم تستفد هى منها ، بل إنها لم تذكر اسمًا واحدًا منهم فى حياتها.

علينا أذن أن نفرق بعد التركة العادية، التى يطبق عليها الشرع، والتركة التى ترتبت على شهرة أعطاها الشعب للفنانة، ولم تعطه لها أسرتها.

وعلى وزارة الثقافة وعلى رأسها الفنان الوزير فاروق حسنى أن تحافظ على تراث عباقرتنا ، فهو تراث الشعب، ولا تتركه يبدد على يد ورثة قد يكون بين بعضهم وبين العظيم الفقيد والعظيمة الفقيدة من الكراهية والحقد والعداء على مدى حياتهما ما لا يتصوره غريب، وما قد لا يتصور الفقيد أن ينتفع من موته فى يوم من الأيام!

(١٣٥)
من يصنع الشهرة يرثها!

القضية التى أثرتها على صفحات الجمهورية حول ميراث سعاد حسنى وورثتها، ليست قضية خاصة بتلك الفنانة الراحلة، وإنما هى خاصة بتاريخ مصر وتراث الشعب المصرى وبعبقرية الشعب المصرى!

فالشعب المصرى لم يتوقف عطاؤه الحضارى عند الأهرامات وأبو الهول والكرنك وأبو سنبل، وإنما هو عطاء متجدد فى كل يوم، فى صور شتى تناسب كل عصر. وعباقرة الشعب المصرى لم تنطو صفحتهم مع صفحات تحتمس وأخناتون ورمسيس ، وإنماهم موجودون فى كل عصر!

ولكن أين تراثهم؟

لقد تبدد هذا التراث على يد الورثة!

فلم يفطن المسئولون فى مصر إلى أن التركة نوعان : نوع صنعه الفنان أو العظيم ، وهو المال، ونوع صنعته شهرته، وبالتالى صنعها الشعب! فالشعب هو الذى يصنع الفنان ، ولا يصنع الفنان الشعب! والشعب ـ بالتالى أيضا هو الذى يصنع شهرة الفنان ، فلولا تذوق الشعب وتقديره لعمل الفنان، لما برز واشتهر ، ولما ترك له أثرا

ومن هنا فإن كل ما تصنعه الشهرة من قيمة لمتعلقات الفنان ، هى ملك للشعب وليست ملكا للورثة، لأنهم لم يساهموا فى صنعها ، وإنما صنعها الشعب.

وعلى سبيل المثال فإن نظارة أم كلثوم هى نظارة عادية قد تساوى بضعة جنيهات، ولكن لأنها نظارة أم كلثوم، ارتفع ثمنها إلى أرقام فلكية!

فما هو دور الورثة فى رفع هذا السعر إلى هذا الرقم؟ لاشىء! وإنما هو دور الشعب! وبالتالى يمكن للورثة أن يرثوا قيمتها الأصلية ، أما القيمة المضافة التى صنعها الشعب، فهى ملك للشعب!

هذا هو ما حفظ للغرب تراث عباقرته! إنهم يدفعون القيمة الأصلية، وليست القيمة التى صنعتها الشهرة.

ولهذا فأنت فى كل شوارع أوربا تقرأ تاريخ عظمائها وأسمائهم على بيوتهم الأصلية! ففى إنجلترا فى قرية استراتفورد أبون تيمز تزور بيت شكسبير الأصلى! وفى سالزبورج تزور بيت «موزار» وفى فيينا تزور البيت التى ألف فيه بيتهوفن السيمفونية الثالثة (الايرويكا) وفى بون تزور بيته وتستطيع أن تلمسه بأصابعك كما كان يلمسه بيتهوفن! وهكذا.

وقد ذكرت مرة أننى قرأت لوحة على بيت فى لندن تقول : هنا عاش العالم توماس يانج من سنة ١٧٧٢ إلى عام ١٨٢٩. وعندما قابلت

الدكتور محمد الشرقاوى رئيس المركز الثقافى فى لندن فى ذلك الحين، قال لى إن الحى الذى تقع فيه جامعة لندن مملوء ببيوت عليها أسماء الذين عاشوا فيها.

وهذا يعنى أن هذه البيوت وثائق تشهد بحياة حضارية وعلمية وثقافية فى فترة تاريخية معينة. والسؤال الذى يطرأ على الذهن: لماذا لم تندثر هذه المبانى كما تندثر مبانى فنانينا وعلمائنا ومشاهيرنا؟ والإجابة أن الورثة الإنجليز غير الورثة المصريين! فالورثة الإنجليز يخاطبون تاريخهم، والورثة المصريين يخاطبون جيوبهم!

ومن حسن الحظ أن الوزير الفنان فاروق حسنى فى سبيله لافتتاح عدة متاحف لمشاهيرنا من الفنانين وغيرهم، وكان متحف أم كلثوم فى قصر المانسترلى شاهدًا على اهتمامه بحفظ تاريخنا الفنى المعاصر إلى جانب حرصه على حفظ تاريخنا القديم والإسلامى.

والقضية تتطلب تشريعًا يحفظ للورثة ما يستحقونه شرعًا بحكم قرابتهم للمشهور، وللشعب ما يستحقه بحكم إسهامه فى صنع شهرة العظيم، وبذلك نحفظ تراثنا ولايتبدد!

(١٣٦)

أحمد فؤاد نجم بين فاتن وسعاد!

سخر الشاعر أحمد فؤاد نجم فى قناة لبنان من إطلاق اسم فنانة القرن على النجمة فاتن حمامة، وتساءل إذا كانت فاتن حمامة تسمى «فنانة القرن» فبماذا تسمى سعاد حسنى؟

وأقول إن هذه التسمية «بأفعل التفضيل» - أى : بأحسن وأفضل وأعظم وغيرها - قد شغلت تفكير الشعب المصرى، وسخر منها مثله، وعلق عليها بنكاته اللاذعة المعهودة التى ينفث بها عن نفسه! وقد روت إحدى هذه النكات أن بقالاً فتح محلا فى شارع صغير فى قرية وأطلق عليه اسم «أحسن محل فى مصر»! وعندما فتح بقال أخر محلا ثانيًا بجواره حار فى التسمية ، وهداه تفكيره إلى أن يكتب عليه: «أحسن محل فى العالم»! وقد وقفت هاتان التسميتان عقبة أمام أى بقال آخر، لفتح محل ثالث بجوارها. ثم جاءت القضية على يد بقال ثالث اهتدى إلى التسمية المثلى، وهى : «أحسن محل فى هذا الشارع»!

هذه المشكلة لعلها هى التى واجهت الذين أطلقوا على السيدة فاتن حمامة لقب فنانة القرن! متوهمين أنهم بذلك قد أغلقوا الباب فى

وجه كل من يريد تلقيب سعاد حسنى أو غيرها بلقب أعظم! ونسوا أن معين الشعب المصرى لا ينضب فى هذه القضايا البسيطة! فما زالت هناك صيغ أخرى لأفعل التفضيل نهديها إلى المنافقين ليطلقوها على من يشاءون، ومنها : «فنانة البرين والبحرين»، و«فنانة الدنيا كلها»!، وفنانة العصر» ، و «فنانة كل العصور»! إلى آخره!

وغرام المصريين بالألقاب، ومعهم العرب والمسلمون، غرام قديم وله بصمة عميقة فى التاريخ! فقد كان مصطفى كامل ينعت الخليفة عبد الحميد الثانى ، سلطان الدولة العثمانية، بأنه: «أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان»! وكان يضرع إلى الله «فاطر السموات والأرض أن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها ، وللإسلام إمامه وناصره ، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبد الحميد الثانى»!

وقد أطلق مصطفى كامل هذه التسميات على السلطان عبدالحميد، فى الوقت الذى كانت الشعوب العربية تتململ تحت حكم آل عثمان، وسوء الإدارة العثمانية! وكان أحرار العرب يتآمرون عليه ويشتركون مع حزب الاتحاد والترقى التركى فى الثورة عليه!

وعندما استولت ثورة يوليو على الحكم فى مصر فى انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، لم تنس الدخول فى سباق «أفعل التفضيل»! فإذا كانت ثورة ١٩١٩ هى أول ثورة شعبية قومية فى تاريخ مصر الحديث، فقد ذهبت ثورة يوليو إلى مدى لم يبلغه منافق أو مضلل عبر العصور،

فزعمت أن «تاريخ مصر يبدأ بثورة يوليو»! ولم يسخر منها المصريون في ذلك الحين، فقد سخر منها أبو الهول، وسخرت الأهرامات»!

فلا يجب علي، الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم أن يحزن لإطلاق لقب «فنانة القرن» على السيدة فاتن حمامة، ولا يجب عليه أن «يقلبها جد»! على رأى المثل بل يقبل هذا التسمية كما قبلها المصريون على أنها من قبيل تسمية «أحسن بقال في العالم»!! فلا البقال هو أحسن بقال في العالم، ولا فاتن حمامة هي «فنانة القرن»!

(١٣٧)

من عزيز الشوان إلى شعبان عبدالرحيم!

فى حياتنا الاقتصادية اختفت عملات كانت تدور حولها معاملاتنا اليومية! فقد اختفى المليم، والنكلة والعشرون خردة وكلها كانت لها قيمة اقتصادية مهمة. فقد كان المليم يشترى خمس قطع طعمية (فلافل)، وخمس بونبونات! وكان المليمان يشتريان قطعة شيكولاته نستلة، تساوى اليوم ثلاثة جنيهات!

وبالتوازى اختفت من حياتنا الاجتماعية قيم كانت تميز مجتمعنا المصرى، وعلى رأسها قيمة الوفاء خصوصًا وفاء الزوجة لزوجها بعد رحيله! فشاهدنا زوجات يتزوجن بعد أشهر قليلة من تغييبهن أزواجهن فى القبر! وشاهدنا خيانة الزوجات لأزواجهن فى أثناء الحياة الزوجية! إلى آخرة!

ومن هنا فإنى شديد الإعجاب بالسيدة ليلى الشوان، حرم الموسيقى الكبير الراحل عزيز الشوان ، فهى لا تمل كل عام بإحياء ذكراه بحفل سيمفونى تعزف فيه قطعة موسيقية، وتكون حريصة على أن تذكر معجبيه بتاريخ الحفل خشية أن يفوتهم قراءة الإعلان عن الحفل.

وفى هذا العام فوجئنا بالدكتور سمير فرج ، رئيس الأوبرا ، يستن سنة جديدة، ويرسى تقليدًا حميدًا، هو إقامة مهرجان سنوى تعزف فيه موسيقى هذا الزعيم العظيم من المؤلفين الموسيقيين، الذين اتجهوا بمؤلفاتهم إلى الموسيقى الكلاسيكية الخالدة ، تحت عنوان! «مهرجان للموسيقى العربية الجادة»! ويشتمل على أعمال لكل من عزيز الشوان، وجمال عبد الرحيم، وأبو بكر خيرت، وطارق على حسن ، وعادل عفيفى وآخرين!

وقد كان من حسن حظى، أن حضرت حفل عزيز الشوان، واستمعت لعمله المهم وهو كونشرتو البيانو والأوركسترا، الذى قام بالعزف على البيانو فيه عازف موهوب هو وائل فاروق ، الذى التحق بمعهد الكونسرفتوار، وهو فى السابعة من عمره، واختارته السيدة سوزان مبارك ليكون الطفل الموهوب الأول. وفى عام ١٩٩٤ حصل على المركز الأول فى مسابقة مدحت عاصم للعزف على البيانو.

ويعتبر كونسرفتوار البيانو والأوركسترا عزيز الشوان من أعظم أعماله الموسيقية، وقد اهتم فيه بإبراز ألوان صوتية جديدة تجذب الآذان العربية بألحانها المصرية والعربية، والتى يقلد خلالها آلة القانون العربية، فى منافسة مثيرة بين آلة البيانو المنفردة والأوركسترا.

وقد استخدم فى الحركة الثالثة من الكونشرتو اللحن المصرى : «الله الله يابلدى»، ولحن «سالمه ياسلامه لسيد درويش.

وقد سبق أن عـرضت له «أوبرا القـاهرة» أوبرا أنس الوجود التى تعد أول أوبرا مصرية مكتملة العناصر الفنية والفنائية! من كورال، وباليه ، وموسيقى ، وغناء فردى (آزيا).

والمهم هو أن هذا المهرجان، الذى أعده بذكاء الدكتور سمير فرج ، يمكن اعتباره مواجهة لتيار الأعمال الموسيقية الهابطة التى سيطرت على حياتنا الفنية ، بعد انتهاء عصر العمالقة! ومحاولة للحفاظ على ذوق الشعب المصرى الفنى الذى تعرض لهجوم تترى بلغ ذروته بالأغانى العدمية» للسيد شعبان عبد الرحيم ، التى لا لون لها ولا طعم ولا رائحة! ويقضى معظمها فى ترديد كلمة «إيه»!

ولا نزعم أن هذا المهرجان الجاد سوف يوقف الانهيار، ولكن ما فائدة الأوبرا إذا لم تقم بهذا الدور!.

(١٣٨)

مكتبة الإسكندرية من بطليموس إلى مبارك!

مازالت مصر قادرة على عمل معجزات! وهذا مؤشر على أن مصر سوف تظل شابة مهما تقدم بها العمر، وحتى نهاية الدهر!

والدليل على ذلك مكتبة الإسكندرية! فقد كانت مكتبة الأسكندرية، منذ عام ٣٣٢ قبل الميلاد، عندما أنشأها خليفة الاسكندر بطليموس الأول هى أول وأكبر جامعة متكاملة على وجه الأرض! وظلت على هذا النحو لمدة ألف عام! وكانت تحتوى على سبعمائة الف كتاب فى مختلف العلوم والطب والهندسة والفلك والآداب وغيرها! كما كانت قبلة العلماء والفلاسفة والباحثين فى ذلك العصر، مثل أرسطو، وفيثاغورس، وأرشميدس!

إن مكتبة الاسكندرية كانت شاهدًا على عظمة مركز مصر العلمى والثقافى من قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون! ولم يؤثر على هذه الحقيقة أن هذه المكتبة الهائلة دمرت قرابة القرن الرابع الميلادى! وهى قصة أخرى سوف نتناولها بشىء من التفصيل لأهميتها فى فرصة قادمة.

والمهم هو أن أعادة بناء مكتبة الأسكندرية يعد بمثابة إحياء لمجد مصر القديم! فلا يستطيع أحد أن يتحدث عن المكتبة الجديدة بدون أن يتحدث عن المكتبة القديمة! ومعنى ذلك ربط الحاضر بالماضى، وتأكيد بأن تاريخ مصر هو تاريخ واحد محقق عبر العصور!

عندما كنت فى لندن فى العام الماضى فى رحلة علاج لعينى فى مستشفى مورفيلد، أشارت على الأستاذة الدكتورة ودودة بدران، رئيسة المركز الثقافى، أن أشاهد المكتبة البريطانية الجديدة، The British Liberary فى «كنجزكروس»، باعتبارها إحدى المعجزات البريطانية! وشاركها فى النصح الأستاذ زكى غازى المستشار الإعلامى المصرى بلندن.

وقد استمعت للنصيحة وزرت المكتبة، وتجولت فى أدوارها وقاعاتها. وكنت مبهورا بعمارة المكتبة، ونظام الأطلاع وإدارتها! وكنت بالتالى متشوقاً لزيارة مكتبة الأسكندرية فى مصر دون أدنى أمل عندى لعقد أية مقارنة بين المكتبتين! بحكم بقايا عقدة الخواجة التى تحكم عقلية المثقفين المصريين، وهى عقدة لا تقوم على وهم دائمًا تقوم على أن إمكانات الغرب المادية والعلمية تفوق إمكانات مصر!

وقد ظللت على هذا الوهم حتى وصلتنى دعوة من الدكتور إسماعيل سراج مدير مكتبة الأسكندرية للاشتراك فى مؤتمر علمى حول «مصر من افتتاح قناة السويس إلى أفتتاح مكتبة الأسكندرية». فى الفترة من ٢٢ مارس ٢٠٠٢» فأتيحت لى بذلك فرصة زيارة المكتبة الجديدة.

وكانت المفاجأة أننى وجدت نفسى أمام مكتبة هائلة لم يكن عقلى يتصور إمكان قيامها على هذا النحو المعجز، سواء من الناحية المعمارية، أو من الناحية التنظيمية أو الفنية، أو ناحية الإمكانات العلمية. واشتمالها على أحدث ما أنتجه العقل البشرى من تقدم فى هذا المضار، مما يجعلها مفخرة جديدة تضاف إلى أعظم المفاخر التى حققتها مصر عصر مبارك فقد احتوت عند الافتتاح على ٢٠٠ ألف مجلد ، وتستوعب ٨ ملايين مجلدا وتضم مجمعا يتكون من المكتبة النسبية، ومكتبة الشباب، ومكتبة المكفوفين، والقبة السماوية، ومتحف العلوم، ومتحف الخطوط ، والمتحف الأثرى، والمعهد الدولى لدراسة المعلومات، ومعمل الحفاظ والترميم، ومركز المؤتمرات!

والمكتبة تعد عملا معجزا وضعت فيه السيدة سوزان مبارك كامل جهدها، وتحدت فيه الزمن! فقد تم بناؤه فى مهمة قياسية، منذ أرسى الرئيس مبارك حجر الأساس له فى يولية ١٩٨٨. وتعد المكتبة شاهدة على استمرارية مركز مصر العلمى والثقافى الكبير من عهد بطليموس الأول إلى عصر مبارك!

(١٣٩)

عقوق الأبناء ومأساة الملك لير (١)

هذا عمل مسرحى هائل، أخرجه ببراعة المخرج القدير أحمد عبدالحليم، وتألق فيه الفنان العظيم يحيى الفخرانى، وبلغ فيه قمة غير مسبوقة فيمن لعبوا أدوار شكسبير.

وهذا العمل المسرحى يتناول مأساة الملك لير، ويثير قضية عقوق الأبناء، وهو أقدم وأشهر تحذير للآباء من الانسياق وراء حبهم لأبنائهم إلى الدرجة التى تجعلهم يجردون أنفسهم من أملاكهم ويهبونها لأبنائهم متوقعين منهم العرفان ، فيفاجئون بالعقوق والجحود.

إنها صرخة تقول إن سلطة الأب ليست مجرد مظهر، ولا يكتسبها فقط من حب أبنائه وعرفانهم بفضله عليهم ، وإنما هى انعكاس لقوته الاقتصادية. فمن يتخلى عن قوته الاقتصادية يفقد على الفور سلطته، ويتجرد من قوته.

ولقد أثرت هذه المسرحية فى أخلاق الشعب الإنجليزى. فمنذ أن خرجت هذه المسرحية إلى الوجود توقف الإنجليز عن التنازل عن أملاكهم لأبنائهم، مهما بلغ حبهم لهم ، لأن درس الملك لير يسيطر على العقل الإنجليزى سيطرة تامة.

وقد تمثل هذا فى عصرنا الحاضر فى رفض الملكة اليزابيث ملكة إنجلترا الحالية التنازل عن العرش لابنها الأمير تشارلز ، رغم الضغوط التى مورست عليها، فقد كانت قصة الملك لير فى رأسها، وكانت تعرف أنها فى اللحظة التى تتنازل فيها عن العرش لابنها الأمير تشارلز سوف تتحول إلى مجرد سيدة عجوز، وملكة سابقة، وتفقد كل مظهر من مظاهر السلطة.

والمسرحية من أصعب مسرحيات شكسبير إخراجًا! وعلى الرغم من أنها خرجت إلى الوجود فى عام ١٦٠٦ ، فلم يتيسر تذليل صعوباتها الإخراجية إلا بعد ثلاثة قرون! وقد أخرجت فى فيلم شاهدته منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وقام بدور الملك لير الممثل الإنجليزى الكبير بيتر أوتول، إلا أننى لم أستمتع بهذه المسرحية بمثل ما استمتعت بعرضها على المسرح القومى فى هذه الأيام، ولم أتأثر بأداء قدر تأثرى بأداء الفنان العظيم يحيى الفخرانى.

ويبدو أنه على الأعمال التى تكتب للمسرح ألا تتحول إلى أفلام سينمائية ، لأنها تفقد الكثير من شحنة التأثير والتفاعل القوى بين الممثلين والجمهور.

وهذا الكلام ينطبق على الأوبرا التى استعصت على السينما حتى جاء المخرج الإيطالى العالمى زيفاريللى وقدم رائعاته الأوبرالية فى شكل سينمائى فاق تقديم هذه الأوبرات على المسرح. وتلك حالة فريدة حصلت مرة واحدة ولم تتكرر إلى اليوم.

(١٤٠)
عقوق الأبناء ومأساة الملك لير (٢)

أعطى شكسبير البشرية درسًا مهمًا من واقع فلسفته العميقة، ودراسته للنفس البشرية، وهو ما تتصل به أعماله كلها، فهو يغور داخل النفس البشرية، ويستخرج سخائمها وفضائلها، فكأنه قرأ الآية الكريمة : «فألهمها فجورها وتقواها» وفى الوقت نفسه فهو يؤمن بالعدالة الإلهية ، ويحب أن يركز هذا الإيمان فى عقل جمهوره، فتبدأ أعماله المسرحية بظلم الإنسان وتنتهى بعدالة السماء.

وفى تحقيق هذه العدالة يفضل شكسبير أن تأتى من السماء ولا تأتى من الأرض. فعدالة السماء تحرك البشر من خلال أطماعهم وغرائزهم وفضائلهم ورذائلهم، بما يؤدى فى النهاية إلى تحقيق العدل، فالعدل قد يتم عبر سلسلة طويلة من الصراعات الدنيوية .

ويساند شكسبير فى فلسفته لغتة الفريدة الساحرة، التى ندر أن نرى مثيلا لها لدى الروائيين الآخرين، والتى تصدم عقل المشاهد . ومن هنا فمن يشاهد مسرحيات شكسبير يتصور أنه يشاهد أوبرا عالمية، بدون أصوات غنائية، وبدون أوركسترا، ويحدث لديه نفس التأثر الذى يأتى من أصوات وموسيقى.

وعلى سبيل المثال فحين يشكو الملك لير من عقوق ابنتيه يصيح صارخًا : «أيها العقوق ، أنت شيطان قلبك من صخر، ما أقبحك يوم تتمثل لنا فى الأبناء. أنت أبشع من وحش البحار.

. وفى مشهد العاصفة يصيح قائلاً: «لترتعد فرائصك أيها المذنب المتستر على جرائمك. فلن تهرب من العدالة. أخف يدك التى تقطر دمًا أيها القاتل. وأنت ياشاهد الزور ويا من تظهر الفضيلة وتفسق في السر، تعسا لكل شقى يدبر جرائمه فى الخفاء فيوقع الأبرياء، اليوم ويوم القصاص، أيتها الذنوب المخيفة حان أن تنفضى عنك الغطاء، وتطلبى الصفح من الآلهة الغضبة. أما أنا فقد خفت ذنوبى بما ارتكبوا فى حقى من خطايا «وحين يقوده صديقه لورد كنت إلى حظيرة ليحتمى بها من العاصفة ويعتذر عن ذلك يقول له لير : «الحاجة ترغم على الرضا».

وحين تموت بين يديه ابنته الصغيرة الوفية يصرخ الملك لير معاتبا القدر قائلاً: لا حياة ولا نفس. لما يحيا الكلب والحصان والفأر وتموتين».

ومن هنا قيمة هذا العمل الهائل الذى أبدع إخراجه المخرج أحمد عبد الحليم ، وترجمته د. فاطمة موسى وشارك فى تمثيله سوسن بدر وأشرف عبد الغفور ولطفى لبيب وسلوى محمد على وريهام عبدالغفور ومحمد ناجي وأحمد سلامة ومجدى إدريس وعلى رأسهم الفنان القدير يحيى الفخراني، الذى سطر اسمه بحروف من نور فى هذه المسرحية.

والمهم أن إقدام المسرح القومى على تقديم هذا العمل يعد جرأة كبيرة وتحديا للمسرحيات الهابطة التى تعرض على المسرح الخاص، وتقوم على الرقص والتهريج دون أن تقدم للعقل المصرى الفنى ما يشبعه ، ويستحق عليها الدكتور هانى مطاوع رئيس البيت الفنى للمسرح كل تهنئة وتقدير ، ويمثل لنا - فى الوقت نفسه - استمرارية جادة للمشوار الذى قطعته الدكتورة هدى وصفى.



من أهم الأعمال العلمية المنشورة للمؤلف

١ ـ تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ ـ ١٩٣٦) الطبعة الأولى ـ
(القاهرة: دار الكاتب العربى ١٩٦٨).

ـ تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ ـ ١٩٣٦) ـ الطبعة الثانية
(مكتبة مدبولى ١٩٨٣).

ـ تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ ـ ١٩٣٦) ـ الطبعة الثالثة:
الجزء الأول ـ (١٩١٨ ـ ١٩٢٤).
الجزء الثانى ـ (١٩٢٤ ـ ١٩٣٦).
(الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٨).

٢ ـ تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩٣٧ ـ ١٩٤٨) ـ مجلدان ـ الطبعة الأولى (بيروت: دار الوطن العربى ١٩٧٣).

الطبعة الثانية:

ـ الجزء الثالث ـ (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩).

ـ الجزء الرابع ـ (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥).

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨).

٣ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر من ثورة يوليو إلى أزمة مارس ١٩٥٤ ـ الطبعة الأولى ـ (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٧٥).

الطبعة الثانية (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٩).

٤ ـ عبد الناصر وأزمة مارس. (القاهرة: دار روز اليوسف ١٩٧٦).

٥ ـ الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧).

٦ ـ صراع الطبقات فى مصر (١٨٣٧ ـ ١٩٥٢). (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨ ـ **الطبعة الأولى**).

ـ الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ (مكتبة الأسرة).

٧ ـ الصراع بين الوفد والعرش (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) **الطبعة الأولى**. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩).

الطبعة الثانية (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٥).

٨ ـ الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو. (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨١).

٩ ـ المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الأحمر (١٩٤٩ ـ ١٩٧٩):

الطبعة الأولى (القاهرة: دار روز اليوسف ١٩٨٢).

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب «مكتبة الأسرة» ١٩٩٦).

١٠ ـ الاخوان المسلمون والتنظيم السرى. **الطبعة الأولى** (القاهرة: دار روز اليوسف يناير ١٩٨٣).

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

١١ ـ الصراع بين العرب وأوروبا، من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية. (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٣).

١٢ ـ حرب أكتوبر فى محكمة التاريخ. (**الطبعة الأولى**) ـ (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٤)

الطبعة الثانية (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مكتبة الأسرة، ١٩٩٥) .

١٣ ـ مذكرات السياسيين والزعماء فى مصر، ١٨٩١ ـ ١٩٨١ (الطبعة الأولى) (القاهرة: دار الوطن العربى ١٩٨٤) .

ـ الطبعة الثانية (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٩) .

ـ الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مكتبة الأسرة، ١٩٩٨) .

١٤ ـ تحطيم الآلهة، حرب يونيو ١٩٦٧ . (جزءان) ،الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٤) .

،الطبعة الثانية ـ الجزء الأول، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠) .

،الجزء الثانى،، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠١) .

١٥ ـ الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة . ،الطبعة الأولى، (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٥) .

الطبعة الثانية ،القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، .

١٦ ـ مصر فى عصر السادات (الجزء الأول) (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٦) .

١٧ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الأول (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧) .

١٨ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ:

الطبعة الأولى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١ سنة ١٩٨٧) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين سنة ١٩٩٤) .

١٩ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان:

الطبعة الأولى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣ سنة ١٩٨٨).

الطبعة الثانية (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦).

٢٠ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الثانى. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨).

٢١ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الثالث. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩).

٢٢ ـ مصر فى عصر السادات، الجزء الثانى. (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٩).

٢٣ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الرابع. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠).

٢٤ ـ الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى (القاهرة: الزهراء ـ ١٩٩٠).

٢٥ ـ حرب الخليج فى محكمة التاريخ. (القاهرة: الزهراء ـ ١٩٩٠).

٢٦ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) (القاهرة: سلسلة تاريخ المصريين ٤٩ سنة ١٩٩١).

٢٧ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الخامس. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢).

٢٨ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك الجزء الأول. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٢٩ ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، سلسلة تاريخ المصريين عدد٦١).

٣٠ ـ تاريخ مصر والمزورون. (القاهرة: الزهراء ـ ١٩٩٣).

٣١ ـ أوهام هيكل وحقائق حرب الخليج. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٢ ـ قصة بناء المواطنة الخليجية. (القاهرة: مركز المنار للنشر والدراسات الاعلامية ١٩٩٣).

٣٣ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٤ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السادس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٥ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثالث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤).

٣٦ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الرابع، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤).

٣٧ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الخامس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٣٨ ـ جماعات التكفير فى مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٣٩ ـ مصر قبل عبد الناصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٠ ـ أوراق فى تاريخ مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤١ ـ هيكل والكهف الناصرى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٢ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء السادس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٣ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء السابع، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٤ ـ رحلات مؤرخ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٥ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السابع (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٦ ـ تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة ،الجزء الأول، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الثورة الفرنسية [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٧ ـ تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة ،الجزء الثانى، من تسوية مؤتمر ڤيينا إلى تسوية مؤتمر ڤرساى [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٨ ـ تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة ،الجزء الثالث، من قيام النازية فى ألمانيا إلى الحرب الباردة [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٩ ـ مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الثامن (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٥٠ ـ الوثائق السرية لثورة يوليو الجزء الأول (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧).

٥١ ـ حرب الاستنزاف (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) سنة ١٩٩٧.

٥٢ ـ مصر والحرب العالمية الثانية (معركة تجنيب مصر ويلات الحرب) (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) سنة ١٩٩٧.

٥٣ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء الثامن، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧).

٥٤ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء التاسع، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧).

٥٥ ـ الوثائق السرية لثورة يوليو، الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨).

٥٦ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء العاشر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨).

٥٧ ـ قصة عبد الناصر والشيوعيين (دراسة تاريخية) الجزء الأول (القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨).

٥٨ ـ قصة عبد الناصر والشيوعيين (دراسة تاريخية) الجزء الثانى (القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩).

٥٩ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء الحادى عشر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩).

٦٠ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء الثانى عشر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠).

٦١ ـ أسرار هوجة عرابى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠).

٦٢ ـ قضايا فى تاريخ مصر المعاصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١).

٦٣ ـ الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ،الجزء الثالث عشر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١).

٦٤ ـ خواطر مؤرخ الجزء الأول (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١).

٦٥ ـ خواطر مؤرخ الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١).

٦٦ ـ خواطر مؤرخ الجزء الثالث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢).

٦٧ ـ القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر «رؤية جديدة» (الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢).

مع آخرين:

٦٨ ـ مصر والحرب العالمية الثانية، مع الدكتور جمال الدين المسدى والدكتور يونان لبيب رزق (القاهرة: مؤسسة الأهرام ١٩٧٨).

٦٩ ـ تاريخ أوروبا فى عصر الرأسمالية، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود. رءوف عباس. (القاهرة: دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

٧٠ ـ تاريخ أوروبا فى عصر الامبريالية، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود. رءوف عباس. (القاهرة: دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

كتب مترجمة:

٧١ ـ تاريخ النهب الاستعمارى لمصر، (١٧٩٨ ـ ١٨٨٢) تأليف جون مارلو. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦).

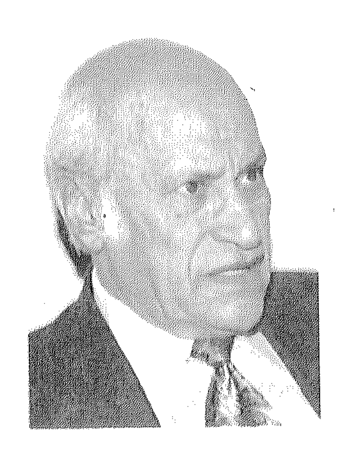
الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٠٤١ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8293 - 1

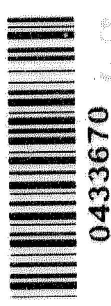




الذهن البشرى به مخزون هائل من الخبرات والتجارب. وهو بالنسبة للعالم والمفكر والمثقف عبارة عن بحر زاخر من المعرفة، والخاطر بالنسبة لهذا البحر هو أشبه بالرياح التى تحرك ساكنه وأمواجه، أو هو أشبه بحجر يلقى فى بحر ساكن فيحدث دوامات تتسع تدريجيا حتى تصل إلى أبعد شطئانه.

والحياة المعاصرة لا تترك للذهن البشرى الفرصة للراحة أو السكون! فالأحداث الجسيمة تتلاطم فيه يوميا تلاطم الأمواج العالية، ولا تترك للمفكر مجالا لتجاهلها.

ومن هنا أصبحت كتابة الخواطر اليومية جزءا من إيقا الحياة اليومية، وإفرازا من إفرازات الأحداث، بل أصبحت ممارسة حياتية.



٩٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب